

قلعة الكبش

د. نبيل راغب

الناشر
مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدقي - الفجالة

دار مصر للطباعة
سعيد جودة السحار وشركاه

— ١ —

مع غروب شمس ذلك اليوم الحار ، اخترقت السيارة السوداء الفارهة جموع المارة فى ميدان السيدة زينب الذى تلفح بغلاله شفافة رمادية ربما كانت نتيجة لبقايا القيظ اللافح الذى تركته الشمس الغاربة ، أو نتيجة لذرات التراب الناعم المشحون بعبق التاريخ القديم الذى يفوح به المكان ، والذى لم يخفف منه كل مظاهر الحياة الحديثة . لذلك أحاط السيارة السوداء بذراعيه وهى تمر بشارع مراسينا لتنحرف يمينا صاعدة طريقا محاذيا لسور جامع ابن طولون الاسطورى ، فى طريقها الى قمة قلعة الكبش .

قبع المعلم الكبش فى المقعد الخلفى بعباءته السوداء المهابة وقد اتكأ بكلتا ذراعيه على عصاه ذات المقبض العاجى الذى نحت على شكل رأس كبش بقرنين ملتفين على شكل دائرة كاملة ، وهى العصا التى ورثها عن أجداده ولم تبتعد عن يده منذ وفاة أبيه التى مر عليها الآن أكثر من ربع قرن . أما عمامته البيضاء الناصعة فقد تربعت على رأسه الذى تسلل المشيب أسفله مع طرف من قماشها ارتاح على كتفه اليمنى . وبرغم الهواء المكيف داخل السيارة ذات الزجاج الداكن الذى يخفى ما بداخلها ويكشف عما يدور خارجها، فإن امارات الارتياح تلاشت من عينيه الواسعتين السوداوين المشعتين بوميض يكاد يشل من ينظر إليهما أكثر من لحظات معدودات . وضاعف من مهابته المشيب الذى تألق فوق الشعر الكث لحاجبيه المقوسين وشاربه العريض المدبب عند طرفيه .

كان الشمطلى مساعده وساعده الأيمن منهمكا فى قيادة صامتة للسيارة التى تهادت بين منازل القلعة التى تضيق طرقاتها الملتوية كالأفاعى لدرجة توشك فيها شرفاتها على تبادل العناق . بعض المنازل من الطوب أو الأحجار ولا تزيد فى ارتفاعها على طابقين أو ثلاثة ، والبعض الآخر من الخشب المتآكل والصفيح المتدثر بالصدأ ، ولا يرتفع طابقها الوحيد عن مستوى الطرقات المتربة صعودا وهبوطا . وعلى الرغم من سريان التيار الكهربى فى القلعة ، فإن طرقاتها تخلو تماما من أعمدة الإنارة التى استعاض عنها الأهالى برفع مصباح كهربى أمام كل بيت لينير للسابلة ليلهم .

عبرت السيارة شارع قلعة الكبش ثم واصلت صعودها خلال الشارع العريض الوحيد المؤدى إلى أعلى ربوة فى القلعة حيث يقع بيت المعلم الكبش الذى يطل على قلعة صلاح الدين التى تغطى قبابها أفق السماء فى شموخ يصافح السحب ، كما يطل على صخور جبل المقطم المتجهمة والتى عاصرت الحياة منذ طفولتها ، بل ويمكن أن تكون قد شهدت ميلادها .

توقفت السيارة أمام بيت الكبش الذى يسميه سكان القلعة « السراى » . هبط منها المعلم الكبش وفى أعقابه الشمطلى . بدت قامته الفارعة داخل العباءة السوداء فى مواجهة خط الأفق الذى تناثرت أسفله أضواء خافتة بين منحدرات المنخفض المتأرجح بين القلعتين . بعضها كان ثابتا فى حين تحرك البعض الآخر فى صمت بليغ . فعند ربوة الكبش كان ضجيج القاهرة يتلاشى تماما بين طيات الهواء الجاف النقى برغم كل هذه الأتربة . دخل المعلم الكبش من الباب المقوس من أعلى وخلفه الشمطلى فى عجلة واضحة . خلف الباب المزخرف ببعض النقوش العربية انتفض ثلاثة رجال واقفين تحية للمعلم الذى لم يلتفت إليهم ، بل عبر الفناء الداخلى الذى

ينتهى بحديقة جميلة تتوسطها نافورة مرصعة بالرخام الملون فى حين بدت فى ركن منه بئر للمياه . الهدوء رابض وناعس فى الهواء كما لو لم يكن هناك أثر للحياة ، فالأبواب موصدة ، والعصافير المعششة فى أعالى البيت نائمة صامتة .

عبر الشمطلى القاعة الأرضية ذات الفسقية الرخامية النادرة مهرولا خلف المعلم وهو يمسح بعينيه الثريات النحاسية المتلألئة بالأنوار الحمراء والخضراء والصفراء والزرقاء كالأقمار والنجوم والأفلاك . لم يكن الشمطلى مهموما كالكبش ، بل ربما كان على النقيض من ذلك تماما ، إذ أفلت وميض سعيد من عينيه الضيقتين . كان يقلد الكبش تماما فى ملبسه ، لكن قامته النحيفة ذات الطول المتوسط لم تسعفه كى يقف على نفس مستوى المعلم .

صعد المعلم الكبش على درجات السلم الخشبى القديم فأنت تحت قدميه الكبيرتين فى حذائه الأسود اللامع ، وتحت دقات عصاه المنتظمة ، حتى بلغ الغرفة العلوية المكسوة بالقاشانى حيث جلس وأمامه الشمطلى الذى ركز عينيه الخفيضتين على أوانى الماء الرخامية فى الأركان ، والمقاعد العالية ، ثم رفعها ليسعد بالمشربية الجميلة التى تكاد تغطى الجدار كله . لم يتخلص الكبش من صمته وشروده وهو يركز نظراته على الشمطلى . خلع عمامته ووضعها على المقعد المجاور فبدت صلعته محاطة بإطار من المشيب المهيب . لم يحتمل الشمطلى وطأة السكون المشحون فقطعه :

ــ لا أحب يا معلم أن يتسبب عبث الصبية فى تعكير صفوك !! فأنت المعلم وكبير القلعة والكل يدينون لك بالولاء والعرفان ! وربما كان هدف هؤلاء الصبية التمسح بك والتقرب منك !

خرج صوت المعلم الكبش من جوفه جهوريا عريضا :

ـــ لقد رأيت بنفسك يا شمطلى فى إشارة مرور ميدان السيدة كيف وقف هذا الولد عارف وصديقه يشكر ينظران إلى نظرات كلها سخرية واستهزاء !

ـــ لا تنس يا معلم أن زجاج العربة يخفى تماما ما بداخلها !

ـــ إنهما يعرفان عربتى .. ويعرفان أيضا أننى بداخلها وأستطيع رؤيتهما .. كما أننى لا أتوهم أشياء غير حقيقية .. فأنت بنفسك مع نمر وديب وفهد رصدت حركاتهما وسمعت بأذنيك ما يحاولان إشاعته عنى طوال الشهور الماضية وخاصة فى جلساتهما بين رواد مقهى قلعة الكبش ..

استرخى الشمطلى فى مقعده العالى ونضحت نبراته بالرضا :

ـــ تحت أمرك يا معلم .. سأفعل بعارف وجماعته ما تشاء !

ـــ لا بد من إيقافهم عند حدهم !

ـــ بل من الأفضل التخلص من عارف بطريقة أو بأخرى .. حتى يكون عبرة لشباب القلعة !

لم يستطع المعلم أن يخفى ارتعاشة طارئة على جفنه الأيسر .

ـــ أنت تعلم جيدا أن العنف آخر ما الجأ إليه .. إنه وسيلة العاجز .. كما أنه يمكن أن يورطنا فى مآزق نحن فى غنى عنها .. وعلى أحسن الفروض يمكن أن يجعل من عارف أسطورة تعيش فى قلوب سكان القلعة وتدفعهم إلى الانتقام منا !

نظر الشمطلى إلى السجادة الفارسية العريقة تحت قدميه :

ـــ أنا رهن اشارتك فى كل ما تأمر به ؟

ـــ أريد أن اضع عارفا بالذات فى حجمه الحقيقى .. أى مجرد شاب عادى لايتميز فى شيء بعينه عن شباب القلعة !

ـــ لاتنس يا معلم العداء الطويل بين عائلتك وعائلته !
ـــ لم يعد لهذا العداء قيمة .. بعد أن أوشكت عائلته على الاندثار !
لكن الخوف من علمه الذى تخصص فيه والذى أهله للتدريس بالجامعة !
ـــ علمك أقوى من علمه .. يكفى أن الجميع ينادونك « يا لمعلم » .
وأن مفتاح سر القلعة كلها فى يدك !
ـــ هذا عن المشايخ والكهول .. أما الشباب فيبدو أن تأثيره عليهم قد جاوز كل حد ؟
نظر الشمطلى عبر فتحات المشربية فوجد الظلام قد أطبق على الكون تماما باستثناء بعض النجوم التى ترسل وميضها خافتا :
ـــ كم تمنيت يا معلم أن يرزقك الله بولد من صلبك .. يحمل اسمك من بعدك .. اسمك الذى عاش هنا مئات السنين !
تململ الكبش فى مقعده العالى ثم وضع ساقا على ساق فى اهتزازة عصبية :
ـــ قلت لك أكثر من مرة أن كل شىء قسمة ونصيب .. فقد زهدت الدنيا بعد وفاة المرحومة أم قطر الندى .. ولم أستطع البقاء مع زوجتى الثانية أكثر من عام .. كانت ذكرى المرحومة تملأ حياتى تماما ولا تزال !!
ـــ عوضك الله خيرا فى قطر الندى ..
نظر الكبش إلى الثريا النحاسية المطعمة بالبللور الملون :
ـــ أتمنى لها زوجا يكون بمثابة ابنى تماما .. وسأغير اسم أسرته بحيث يصبح « الكبش » !
ـــ إنه شرف لايجرؤ شاب من القلعة على أن يحلم به !!
ومضت نظرات الإصرار من عينى الكبش :

ـــ لكنى سأمنحه إياه .. إذا كان يستحق حمله !

بدت بوادر ضيق دفين على وجه الشمطلى لم يلحظها الكبش فى مقعده العالى ، لكن الشمطلى سرعان ما ابتسم :

ـــ لن يسلم هذ الشاب من حسد شباب القلعة وحقدهم !

ـــ إذا كان هذا الشرف مكتوبا له .. فلن يقف فى طريقه حسد أو حقد !

انحنى الشمطلى فى مقعده وقد طفا الرجاء الملح الخفى على نبراته :

ـــ لا أحلم بأن ينال ابنى مثل هذا الشرف الكبير !

نهض الكبش وسار حتى وقف خلف المشربية التى تطل على المدخل :

ـــ كل شىء قسمة ونصيب يا شمطلى !

التزم الشمطلى الصمت الكئيب وهو يشارك الكبش النظر عبر فتحات المشربية . رأى الكبش خمسة رجال يدخلون سائلين الثلاثة الجالسين عن المعلم فأجابوهم بأنه فى انتظارهم . نظر الكبش إلى ساعته الذهبية التى أخرجها من جيب داخلى فى عباءته ثم قال للشمطلى وهو يعيدها الى جيبه :

ـــ جاءوا فى ميعادهم تماما !

قال الشمطلى فى عجلة :

ـــ سأ هبط أنا لتنفرد بهم !

لم ينتظر أى رد متوقع من الكبش بل أسرع إلى الخروج . عاد المعلم إلى مقعده العالى . لبس عمامته وهو يتحفز للأقدام الصاعدة على درجات السلم الخشبى . دخل الرجال الخمسة فى خشوع واضح فى انحناءاتهم وهم يمدون أيديهم بالسلام على المعلم الذى ابتسم متباسطا . جلسوا على المقاعد المتناثرة حوله . لم يقل أصغرهم عن الستين . ارتدى ثلاثة منهم عباءات

مشابهة لعباءة المعلم وإن تراوحت ألوانها بين الكحلى والرمادى والبنى الداكن . أما الآخران فكانا أصغر سنا ويرتديان حلتين إفرنجيتين ، فى حين أصر أحدهم على تغطية رأسه بطربوش قانى الاحمرار . نضح الوقار المهيب من نبرات المعلم :

ــ طلبتكم خصيصا الليلة بصفتكم ممثلين لحكماء القلعة وكبرائها ..إن ما دار فى القلعة فى الشهور الأخيرة لا يمكن السكوت عليه .. لم يعد سوى العيال ليتحكموا فى مقدراتها !

توقف كبيرهم ذو العباءة الكحلية عن التلاعب الرتيب بحبات مسبحته الكهرمانية متسائلا :

ــ خير يا معلم .. ماذا حدث ؟!

ركز الكبش سهام عينيه على وجهه المتغضن النحيل :

ــ ألم تسمع بالكلام الذى يتقول به الولد عارف النباش وجماعته بين شباب القلعة ؟!

قالها الكبش وتذكر سبحته الفضية فأخرجها من جيب عباءته الداخلى وهو لا يزال يركز عينيه على الشيخ الذى قال :

ــ إنه مجرد عبث صبية .. وعندما يشبون عن الطوق سيدركون هم أنفسهم هذه الحقيقة !

تلاعبت أصابع الكبش الغليظة بحبات السبحة الفضية :

ــ إننى لا أقول هذا خوفا منهم وإنما خوفا عليهم !

تململ ذو الطربوش القانى قلقا فى مقعده ولم يمسك نفسه عن الكلام :

ــ كيف يا معلم ؟!

ــ لا تقلق .. أعرف أن ابنك مصطفى ضمن مجموعة عارف ..

لكنك تعلم أيضا أن من يحاول السعى وراء اكتشاف سر القلعة لا بد أن يموت .. وقد دفعهم طيشهم الى الاستمرار فى هذه المحاولة التى لم ينجح فيها أحد من قبل عبر مئات السنين .. فهو سر لا يدركه إلا فرد من أفراد عائلة الكبش تكون الأقدار قد اختارته لحكم القلعة من بعدى ..

لم يستطع ذو العباءة الرمادية إخفاء حب استطلاعه الممزوج بادعاء الاطلاع الحكيم على بواطن الأمور :

ـــ معظمنا يعرف أن القلعة سميت باسم عائلتكم الكريمة العريقة !

خرجت كلمات الكبش حادة جوفاء :

ـــ لقد سميت عائلتنا باسم القلعة وليس العكس .. لكن السر فى تسميتها بقلعة الكبش لم يخرج حتى الآن خارج نطاق عائلتنا !

لاذ ذو العباءة الرمادية بالصمت ناظرا إلى النقوش الدقيقة التى تتحلى بها السجادة الفارسية تحت قدميه ، فى حين خاطبهم المعلم بصفة عامة دون أن ينظر الى أحدهم على وجه التحديد :

ـــ لم أطلبكم هذه الليلة لهذا الموضوع فحسب .. بل وجدت أن من واجبى تجاهكم أن أطلعكم بنفسكم على كل شىء .. حتى لايصبح الأمر مجرد شائعات تتناقلها ألسنة القلعة .. خاصة بعد أن قرروا زيارتى هذه الليلة !

تساءل ذو الصلعة اللامعة والحلة السوداء :

ـــ من هم الذين قرروا زيارة سيادتك ؟!

ـــ الذين لا اسم لهم .. ولا يراهم سواى .. إنهم يزوروننى كل حين ومين .. وخاصة فى غرفة السرداب التى تقع فى أعماقها الخزانة التى تحتوى على السر الرهيب .. والتى لا يستطيع فتحها سوى أحد أعضاء أسرة الكبش

ليحكم القلعة .. أما من يحاول دون أن تنطبق عليه هذه الشروط فموتا يموت !

سرى مس كهربى فى شرايين الجالسين ، وشحنت القاعة بروح لم يدرك أحد كنهها . قال ذو العباءة البنية بصوت خاشع خفيض :

ـ وهل سنراهم بأنفسنا الليلة ؟

حسم المعلم الحوار بنبرات كوميض الخناجر :

ـ قلت لا يراهم أحد سواى ..أو من سيخلفنى ..

ثم خفض صوته إلى درجة الفحيح :

ـ لكنكم ستسمعون أصواتهم عندما يصلون الى السرداب .. وستشمون بأنفسكم الرائحة الزكية للبخور الذى يقومون بحرقه فى كل زيارة للخزانة !!

تساءل كبيرهم ذو العباءة الكحلية :

ـ وكيف يخبرون سيادتك بميعاد مجيئهم ؟!

أشاح الكبش بوجهه بعيدا فيما يشبه الغضب ثم ربت على رأس الكبش فى قمة عصاه المسترخية بين ساقيه :

ـ معظم الأسئلة التى يثيرها الإنسان فى هذا الكون لا يجد لها إجابات ..ومع ذلك يستمر فى التساؤل ..لا أعرف لماذا ؟!

ساد الصمت ولم يعد أحد يسمع سوى الدقات الرتيبة لسبحة المعلم الفضية .طال الصمت إذ لم يجد أحدهم شيئا يقطعه به . لكن صوت أقدام ثقيلة وخفيضة تسللت إلى آذانهم ولم يعرفوا مصدرا لها . هل هى فى أعماق السراى حيث السرداب أم قادمة على السطح ؟!ظل الدبيب يعلو وينخفض

فى رتابة رهيبة ألصقتهم بمقاعدهم ، ثم امتزج ببخور تصاعد دخانه خفيفا من مدخل السلم الخشبى ، لكنه تكاثف حتى ملأ خياشيمهم لدرجة أن كبيرهم ذا العباءة الكحلية أوشك على نوبة من العطس لكنه تماسك .

وسط سحابات الدخان البيضاء والرمادية نهض المعلم بقامته المديدة دون أن يفتح فمه بكلمة ،ثم سار فى صمت رهيب إلى حيث فتحة السلم الخشبى الذى هبط عليه تاركا ضيوفه وسط موجات من علامات الاستفهام اللانهائية . صاح أحدهم فى نشوة عارمة مفعمة بالتجلى :

ـــ هذا الرجل سره باتع ..ويل لمن يعصاه !!

قال آخر ويبدو أنه أبو مصطفى صديق عارف :

ـــ لكن الأولاد لم يفعلوا شيئا بلغ حد المعصية !!

امتزج الصمت مرة أخرى بسحابات الدخان ودبيب الأقدام . ومرت لحظات كأنها ساعات . كانت فترة توقفت فيها عقارب الزمن وخرج فيها الجالسون بعيدا عن أسواره حيث أصابهم خدر غريب نقلهم من عالم اليقظة الى دنيا الأحلام الزرقاء والرمادية ففقدوا إرادتهم تماما ،حتى الذين حاولوا التماسك منهم تركوا أنفسهم للتيار الجارف الذى لم ينحسر الا مع خفوت دبيب الأقدام وانقشاع سحابات الدخان وان ظلت القاعة مشبعة برائحته النفاذة التى قاومها كبيرهم قدر إمكانه حتى لا يغرق فى نوبة لاتنتهى من العطس .

عاد دبيب الأقدام مرة أخرى لكنه كان فوق درجات السلم الخشبى حيث بدا المعلم الكبش بقامته المديدة وعصاه الثقيلة من فتحته. سار فى مهابة غامضة إلى مقعده العالى الذى جلس عليه راضيا متجليا :

ـــ رحلوا !

لم يفتح أحدهم فمه بكلمة .استأنف حديثه بكلمات بطيئة عميقة :

ـــ أريد منكم أن تقصوا على القلعة ما لمستموه بأنفسكم ..فأنا أخاف على شباب القلعة كأبنائى تماما ..وخاصة بعدأن حرمت من إنجاب البنين !

نظرإليه الخمسة وكأن عيونهم قد شدت إليه بخيوط فى لحظة واحدة . ارتعش جفن الكبش الأيسر فى حركة لا إرادية واستدرك :

ـــ فأنتم تعلمون أن أم قطر الندى كانت كل حياتى ..وبرحيلها لم أحتمل وجود امرأة أخرى فى حياتى ..ولذلك سرعان ما طلقت زوجتى الثانية وظللت بلا زوجة وبلا بنين !

تفحص وجوههم مرتاحا لتغيير الانطباع الطارىء عليها .قال :

ـــ سأحكى لكم كل شىء بالتفصيل عن الخزانة ..ماعدا السر طبعا ..فقد سئمت الشائعات التى يخترعها أهالى القلعة حولها ..هذه الخزانة كان جدى الأكبر أحمد بن طولون قد أمر بصنعها ليحتفظ فيها بوثائق الدولة وأسرارها ..وحملها معه عندما جاء من بغداد بعد أن جمع كل السحرة الذين عزّموا عليها بحيث أصبحت محجبة بسر لا يعرفه سوى صاحبهادون أن يستعمل مفتاحا أو قفلا !

لم يستطع ذو العباءة الكحلية التزام الصمت :

ـــ وهل تفتح بكلمة سر مثل مغارة على بابا ؟!

أجاب الكبش بجدية تبلغ حد الصرامة :

ـــ وجود السر داخل الخزانة لا يعنى وجود كلمة مرتبطة به ! . . . إنها تفتح بابها عند أول لمسة من أصبع من اختارته الأقدار لحكم القلعة من أسرة الكبش !

تساءل ذو الطربوش القانى الحمرة :
ـــ وكيف يتم الاختيار ؟!
ـــ عندما يفتحها ويقرأ الوثيقة داخلها دون أن يموت !
تعجب ذو الصلعة اللامعة والحلة السوداء :
ـــ اذاً .. الأمر فى حاجة الى مغامرة بالحياة نفسها !!
ـــ لكنها ليست مغامرة لآل الكبش منذ أيام ابن طولون !!....
أما المغامرون فقد مات منهم الكثيرون سواء فى أيام خمارويه الذى تولى الحكم بعد وفاة أبيه ابن طولون ..أو فى أيام الملك الصالح نجم الدين أيوب ..أو الحاكم بأمر الله ..أو الظاهر بيبرس .. أو قلاوون ..أو المنصور لاجين .. أو الخليفة المستكفى .. أو الأشرف قايتباى .. أو غيرهم من جدودى العظام ..
تساءل ذو العباءة الرمادية فى حذر بالغ :
ـــ لكن أحدا من هؤلاء الجدود العظام لم يحمل لقب الكبش ؟!
نظر الكبش الى الثريا النحاسية العريقة :
ـــ هذا هو السر الذى يتحتم على حاكم القلعة أن يعرفه حتى تدين له الأمور .. وإلا جنى على نفسه بنفسه !
سمح ذو العباءة البنية لنفسه بالتدخل فى الحوار :
ـــ وهذا السر كامن فى خزانة السرداب ؟!
أضاف المعلم :
ـــ وعليها رسم الكبش المنقوش على بابها ..وهو رنك ابن طولون ! ولذلك فان محاولات هؤلاء الصبية محكوم عليها بالفشل مقدما ..وربما حكموا على أنفسهم بحكم أخطر من الفشل ..ولقد أعذر من أنذر !!

ضغط كبيرهم ذو العباءة الكحلية على مخارج ألفاظه :

ــ سنبذل أقصى ما فى وسعنا لتبصيرهم بخطورة ما يفعلون !

ــ لاأريد تبصيرهم ..وانما ايقافهم عند حدهم وفورا !

ــ أمرك يامعلم !!

قالها بعضهم فيما يشبه الاضطرار فى حين لزم البعض الآخر الصمت . سمعوا دبيب أقدام على السلم الخشبى وسرعان ما ظهر الشمطلى وسطهم وهو يخاطب المعلم :

ــ هل جاء ميعاد خلوتك يامعلم ؟!

جذب المعلم سلسلة ساعته الذهبية من جيبه ونظر إليها :

ــ فعلا .. لم يتبق سوى خمس دقائق !

شعروا بأن المقابلة قد انتهت فنهضوا بنفس الانحناءة التى جاءوا بها . سلموا عليه وغادروا القاعة فيما يشبه الطابور الصامت . عاد المعلم الى مقعده ناظرا الى الشمطلى الواقف فى حضرته :

ــ نعم النصيحة .. ونعم المستشار !

انحنى الشمطلى فى حركة بدا عليها التصنع :

ــ أنا فى خدمتك يا معلم العمر كله ! والآن أنصحك بأن تتحول الخلوة الى اختفاء ليومين أو ثلاثة .. حتى يزداد الغموض وتتضاعف مهابتك وتكثر الشائعات والأقاويل حولك !

ــ فكرة عظيمة .. وأماكن الاختفاء لا يوجد أكثر منها !

ــ على أن يكون هذا الاختفاء بصفة دورية حتى لا يتصور الأهالى أنه مجرد مسألة عابرة !

ــ والآن أريد منك أن تجتمع بنمر وديب وفهد وتشرح لهم كيفية تنظيم حملة مضادة لمحاولات عارف وجماعته بين الأهالى .. ولتكن البداية فى مقهى

شارع قلعة الكبش حيث يجتمع معظم الشباب صباح الجمعة .. وكما قلت لك من قبل .. لا أريد أى نوع من العنف .. حتى لا يتحولوا الى أبطال فى نظر الأهالى !

ــ اننا اذا اضطررنا الى اللجوء الى العنف .. فلن يكون هذا سوى آخر حل نفكر فيه .. ولن يقع الا فى الأزقة المظلمة وتحت أسوار القلعة وفى كهوف المقطم !!

نهض المعلم فسار فى أعقابه الشمطلى . هبطا الى القاعة الأرضية ذات الفسقية الرخامية النادرة ولايزال الشمطلى يتأمل الثريات النحاسية المتلألئة بالأنوار الحمراء والخضراء والصفراء والزرقاء بنفس الوميض السعيد من عينيه الضيقتين . خرجا الى الفناء ودارا حول النافورة المرصعة بالرخام الملون ثم افترقا . المعلم الكبش الى بئر المياه القابعة فى الركن ، والشمطلى الى نمر وديب وفهد الجالسين عند الباب المقوس المزخرف فنهضوا احتراما بينما قال لهم :

ــ هيا خارج البوابة .. فسيقضى المعلم الليلة فى البئر !!

ــ نظروا تلقائيا تجاه البئر فوجدوا المعلم وقد اختفى تماما . خرجوا خلف الشمطلى حاملين مقاعدهم الصغيرة فى أيديهم . كانوا يرتدون نفس عباءة الشمطلى و عمامته . جلس فجلسوا . نظر فى نشوة بالغة الى أضواء القاهرة الثابتة والمتحركة تحت قدميه وقال لهم :

ــ سأقص عليكم ما تفضل به المعلم علىّ كى تدركوا كم أنتم سعداء الحظ حتى تعملوا فى خدمة عظيم مثله !

كانت غرفة المكتبة أحب الغرف إلى قلب عارف فى شقة أسرته التى توارثت المنزل العريق أبا عن جد عبر أجيال عديدة . يقع المنزل على ناصية شارع سلم الكبش وشارع سلامة ثم زين العابدين ، فى حين يؤدى أعلاه الى ربوة المعلم الكبش وقصره . ولايزال المنزل يحتفظ بلونه حائلا بفعل الأتربة والرمال التى تهب على القلعة من المقطم ، والتى لم تطمس ملامح عراقته وعزه تماما .

فى الدور الأرضى سكن ابن عم عارف مع زوجته وابنه ، لكن الشقة مغلقة بقفل كبير منذ عام مضى لسفره فى بعثة دراسية إلى كندا ، وانتقال زوجته وابنه للحياة مع أبيها فى بيته الذى يطل على درب البير بالقلعة . أما الدور الأول فيعيش فيه عارف مع أمه التى لاتشعر بالعزلة كثيرا لأن ابنتها الكبرى بثينة تقطن فى الدور الثانى مع زوجها عبد العليم الذى يعمل مدرسا فى مدرسة السيدة الإعدادية للبنات . وغالبا ما يهرب أطفالها الخمسة الى شقة جدتهم التى تسعد بوجودهم وتلبى كل طلباتهم ، حتى تلك التى فرض عليها أبواهم حظرا صارما . أما السطح فكان أحب الأماكن إلى قلب أم عارف التى تحب قضاءمعظم ساعات الصباح بين أقفاص البط والأوز والدجاج والأرانب . أو مع الخروف الذى يقوم عارف بشرائه قبل عيد الأضحى من كل عام .

نظرت الأم بطرحتها البيضاء ووجهها الصبوح الحبيب الذى لا يزال يحتفظ بمسحة من الجمال الجذاب الغابر فوجدت ابنها مستغرقاً أمام مكتبه فى أحد المجلدات الضخمة . ارتسمت على وجهها ابتسامة عذبة حانية مع كلماتها الرقيقة الخافتة :

ـــ ألا تريد أن ترحم نفسك حتى فى صباح الجمعة ؟!

رفع عارف وجهه مبتسما ابتسامة أوضحت التطابق بين ملامحه وملامح أمه . نفس العينين العسليتين الواسعتين ،والجبهة العريضة ،والشعر الفاحم الناعم ،والأنف الدقيق ،والشفتين الغليظتين ،والبشرة السمراء التى توحى بالدفء والحيوية والانطلاق . كان يرتدى بيجامة صفراء بخطوط بنية ويبدو ضئيلا قصيرا خلف المكتب المحمل بالمجلدات المتناثرة ، لكنه عندما نهض بدت قامته الطويلة النحيلة :

ـــ ابن الوز عوام ياماما .. لقد تعلمت الاستيقاظ المبكر منك ! حتى فى صباح الجمعة !

* * *

لم تتحرك الأم بعيدا عن باب الغرفة التى اختفت جدرانها خلف رفوف الكتب التى تنوء بأحمالها المكدسة :

ـــ الإفطار جاهز !

ترك عارف مكتبه حتى بلغ الباب فانحنى وقبل أمه فى وجنتها :

ـــ قلت لك .. إننى لن أتناوله إلا معك !

ـــ أنت تعرف أننى أكتفى فى الصباح بتناول كوب الشاى !

ـــ تريدين الاحتفاظ برشاقتك فى حين أصاب أنا بالبدانة !

رفعت عينيها لتنظر إليه فى حنان بالغ :

ـــ فى سنك كان أبوك يشرب كل صباح كوبا من المسلى البلدى !

ربت على كتفها وهو يحتضنها :

ـــ لا أعرف كيف احتفظت برشاقتك فى جيل أغرمت فتياته بالبدانة بل والترهل !!

ابتسمت فى ثقة واعتزاز واضح بالنفس :

ـــ أنت مغرم بالجدل الذى يمكن أن يستمر ساعات .. هيا إلى الإفطار وثرثر بما تشاء !

ـــ بشرط أن تتناوليه معى ! فاليوم جمعة ويمكننى الانتظار حتى تنفتح شهيتك !

ـــ لم يولد بعد من يمكنه الانتصار عليك فى الجدل ! وهو كذلك ! سأتناول شيئا إكراما لخاطرك !

ساراسويا إلى الصالة التى تتوسطها المائدة التى وضع عليها طبق من الفول ، وآخر به بعض قطع الجبن ، وثالث به مربى حمراء ، ورغيفان من الخبز المقدد ، وإبريق شاى وكوبان كبيران من الزجاج الذى يميل إلى اللون الأخضر . جلسا متقابلين . صبت الأم الشاى فى الكوبين بعد أن أضافت ملعقة من السكر إلى كل منهما . دقت ساعة الحائط العجوز الساعة الثامنة صباحا بدقات مجلجلة جلية وسط سكون لا يزال يلف شوارع القلعة فى ذلك الصباح الحار . فلم يتعد عدد المارين أو الصاعدين أو الهابطين على السلم الحجرى العريض المتآكل ، أصابع اليد الواحدة . كان عارف يرقبهم من النافذة المفتوحة على مصراعيها طلبا لبقايا هواء الفجر النقى . وضعت الأم كوب الشاى على طبقها بعد رشفة سريعة :

ـــ كل ما أتمناه من الله أن يرزقك بابنة الحلال !

مضغ عارف بعض حبات الفول المدمس الذى يعشقه :

ـــ ليس قبل الحصول على الماجستير !

ـــ الزواج لن يعطلك عن الدراسة .. على الأقل ستملأ زوجتك هذه الشقة الواسعة بحسها ونفسها .. ولن أشعر بالوحدة فى غيابك الذى يطول أحيانا فى محاضراتك وأبحاثك بمكتبة الجامعة !

ضحك عارف ضحكته التى تعشقها أمه :

ـــ لا يمكن أن تشعرى بالوحدة مع أولاد بثينة الخمسة !

ـــ أريد أطفالا يحملون اسم أبيك وجدك !

ـــ لن أتزوج زواجا تقليديا .. إننى أشترط فى زوجتى أن تكون فريدة فى كل شيء .. فى جمالها وعقلها وروحها ! وفى إمكانى انتظارها عشر سنوات .. فأنا لم أتعد الثالثة والعشرين بعد !!

أتت الأم على نصف كوب الشاى :

ـــ طبعا .. يمكنك الانتظار .. لكن كل همى أن تشغل نفسك بعيدا عن هذا الرجل الجبار المفترى الذى لا يرحم من يقف فى طريقه !

حرك عارف الملعقة فى كوب الشاى بطريقة تلقائية :

ـــ لا يمكن أن نترك دجالا مثله يتحكم فى مقدرات القلعة بهذه البساطة والسلبية !

ومضت عيناها العسليتين الواسعتين بخوف مفاجيء :

ـــ أنت عندى أغلى من القلعة كلها !

ـــ لا يحق لى وأنا أعمل معيدا بكلية الآثار . وأعد رسالتى للماجستير فى تاريخ قلعة الكبش أن أترك مثل هذا الدجال كى ينشر الخرافات بين الناس حتى يملأ قلوبهم بالخوف فيدين له الكل بالولاء والاستسلام والطاعة العمياء !

ربتت على يده بحرارة دافقة ثم أمسكت بها :

ـــ لا تنس يا حبيبي أن السيارة الغادرة الغامضة التي أردت أباك قتيلا في طريق مجرى العيون .. لم تفعل هذه الجريمة بالصدفة ثم هرب سائقها دون أمل في العثور عليه .. فأنا واثقة أنها كانت من تدبير هذا الوحش !

ضغط عارف على أسنانه دون شيء للمضغ :

ـــ ثقتك هذه تمنح للموضوع بعدا شخصيا !

ضغطت على يده التي لا تزال تتعلق بها :

ـــ لا أتصور حياتي يوما واحدا من بعدك . يكفيني صدمة أبيك التي أعانني الله على تحملها !

رفع يدها إلى فمه وقبلها بخشوع مبتسم :

ـــ لا تكوني متشائمة هكذا .. فأنا لا أتحداه كما يفعل أبي أمام كل كبراء القلعة وحكمائها .. فبرغم ثقافة بابا وعلمه فإنه كان يتصور أن قوته الجسدية كفيلة بالتصدي لهذا الوحش وفتواته علنا .. اما أنا فكل ما أفعله هو توعية أصدقائي وأبناء جيلي حتى لا يقعوا ضحايا لخداعه ودجله .

ـــ أنت تعرف أن عيونه في كل مكان لرصد حركاتك وسكناتك .. وربما غدروا بك من حيث لا نعلم ولا ندري !

ـــ كان أبي يحارب بمفرده إلى حد كبير .. أما أنا فقد نجحت في الشهور الأخيرة في تكوين جبهة من الشباب الواعي المستنير الذي بدأ يسخر منه في جلساته العائلية والخاصة !

ـــ إياك أن تظن أن شيئا من هذا غائب عنه !

ـــ لا بد من وجود من يقوم بهذه المهمة .. وإذا قال كل منا إن هذا أو

ذاك ليس من شأني .. فسيأتي اليوم الذى نجد فيه أنفسنا كلنا فى الجحيم دون أمل فى العودة منه !

ــ لقد دفع أبوك حياته ثمنا لهذه المهمة .. فلنترك غيرنا يقوم بها ! أم أن العذاب كتب علينا وحدنا ؟!

ــ لست وحدى فى الميدان .. وأعدك أن أتخلى تماما عنه يوم أكشف حقيقة هذا الرجل لكل أهالى القلعة !

ــ إنهم يعلمون كل شيء .. لكنهم يتظاهرون بالجهل إيثارا للسلامة ! ولهم الحق فى هذا ! فأولادهم فى حاجة إليهم !

تخلص عارف من يد أمه فى رقة وخفة ثم تناول ملعقة من المربى محاولا التخفيف من حدة الحوار :

ــ إذا كنا قد فقدنا الأمل فى الجيل القديم الذى عشش الخوف فى قلبه .. فلا بد أن نعقد الأمل على الجيل الجديد .. فهذه سنة الحياة والتطور !!

سيطر الحسم على نبرات الأم وألفاظها الواضحة المحددة :

ــ قل ما تشاء .. فأنا أدرى بقدرتك على الجدل .. فمن شابه أباه فما ظلم .. لكن ليكن فى علمك أن حياتى فى حياتك .. فحافظ عليها إن كنت تحبنى فعلا !

أوشكت عيناها على الدمع لكنها أمسكته بيد من حديد . قبلها عارف سريعا وهو ينهض بعد أن أتى على كوب الشاى :

ــ أنت أغلى من حياتى نفسها .. لكنك لم تتناولى سوى كوب الشاى برغم وعدك بالإفطار معى !

نظرت إليه وهو يختفى فى غرفة نومه وقلبها فى صلاة خاشعة تخترق

السحب صوب السماء ليحافظ الله على وحيدها ونور حياتها . لم تغادر مقعدها حتى دق جرس الباب فتنبهت ونهضت لفتحه فوجدت صديقى ابنها : يشكر ومصطفى اللذين ألقيا بتحية الصباح فى خشوع رقيق سائلين عن عارف ، فرحبت بهما وقادتهما إلى غرفة المكتبة حيث جلسا فى انتظاره .

كان يشكر متوسط القامة ، ممتلىء الجسم دون ترهل ، فعضلاته البارزة تحت قميصه توشى بممارسة يومية لرياضة مثل رفع الأثقال . ولذالك يبدو فى الخامسة أو السادسة والعشرين على الرغم من أنه تجاوز الثلاثين . أما مصطفى فيميل إلى النحافة مثل عارف وإن كان أقصر منه فى القامة وأقل منه فى الوسامة . شعره أكرت ويضع على عينيه نظارة سميكة داكنة بعض الشىء ، وذلك على النقيض من يشكر ذى العينين الخضراوين الواسعتين وشعره الناعم المائل إلى الصفرة والصامد فى وجه الصلع الزاحف من مؤخرة رأسه .

نهض مصطفى من مقعده ليقلب فى المجلد الذى لا يزال مفتوحا على المكتب ، ويقول ليشكر الذى كان يتابع عبر النافذة يعض الفتيات الصاعدات والهابطات على سلم الكبش ، مركزا على قوامهن الجميل المثير برغم اختفائه تحت رداء أسود طويل تناثرت على قمته طرحة سوداء شفافة كشفت عن بياض العنق وطوله . أما عيون الهابطات فكانت كآبار الأساطير التى تختفى داخلها الحوريات :

ــ كان يقرأ فى الجزء الثانى من الخطط التوفيقية لعلى مبارك !

قال يشكر دون أن يشد عينيه بعيدا عن النافذة :

ــ إنه مثل المرحوم أبيه تماما .. لا يستطيع أن يفارق الكتب .. فقد عملت تحت إشرافه فى دار المحفوظات ثلاث سنوات تعلمت فيها ما كان

يمكن أن أتعلمه فى عشرين سنة .. فأنا أحب الاستماع أكثر من القراءة .. ولذالك لم يكن حزنى على فراقه المفاجىء ليقل عن حزن أسرته .. كان عملاقا بمعنى الكلمة !

جلس مصطفى إلى المكتب ولا يزال يتصفح المجلد :

ــ لكن عارفا لم يرث عن أبيه حبه للرياضة ؟!

ابتسم يشكر وهو يميل بمقعده إلى الخلف حتى لا مس رفوف الكتب :

ــ يبدو أننى ورثتها عنه .. كان يستيقظ يوميا فى الخامسة صباحا ليجرى حول القلعة مرتين .. مهما كان الجو باردا والرياح شديدة .. ثم يعود لبعض التمرينات الرياضية فى البيت .. ثم يستحم ويتناول إفطاره الذى كان يفخر أنه يحتوى على كوب من المسلى .. وبلغ إعجابى به أننى مارست الرياضة الثقيلة على سبيل الاقتداء به برغم أننى لم أمارسها فى صباى وصدر شبابى !

أطرق مصطفى برأسه فى أسى واضح :

ــ لكنه انتهى فى لحظات .. كأنه لم يكن !

اعتدل يشكر بمقعده فى حسم :

ــ لا تقل هذا يا مصطفى .. إن ذكراه فى قلوبنا جميعا .. كما أننا نعلم تماما اليد الآثمة التى اغتالته غدرا وإن كان الدليل ينقصنا ! لكننا سنعثر عليه إن آجلا أو عاجلا !

كان مصطفى على وشك أن يرد لكن أم عارف دخلت تحمل كوبين من الشاى على صينية . داعبها يشكر وهى تضع الصينية على المائدة الصغيرة أمامه :

ــ ألم يستيقظ البك بعد ؟!

ابتسمت الأم في عذوبة واضحة :
ـــ سيأتي حالا ..
التفتت إلى مصطفى الذي هرع إليها ليأخذ منها الكوب :
ـــ أما أنت يا مصطفى فأنا واثقة في عقلك وقدرتك على تهدئة عارف حتى لا يذهب به الشطط بعيدا ! إنك تعلم ما أعنيه جيدا ؟!
كانت كلمات مصطفى مشحونة بالحب الخاشع :
ـــ أرجو أن يساعدني الله حتى أكون له نعم الناصح والصديق !
لم يكتم يشكر تحفزه الذي شحنت به كلماته :
ـــ أما أنا فمجنون ومتهور .. ويخشى على عارف مني !
ابتسمت الأم وهي في طريقها إلى الباب :
ـــ أنت الخير والبركة .. لكنك أنجب تلاميذ زوجي !
قالتها واختفت خارج الغرفة . انهمك الاثنان في رشف الشاي في استمتاع بدا على ملامحهما . قطع السكون بدخول عارف الذي حياهما سعيدا بصحبتهما . داعبه يشكر :
ـــ إذا كنت الآن لا تستيقظ إلا إذا جاء من يزعجك .. فماذا سيكون حالك إذا تزوجت ؟!
جلس عارف على مقعد مجاور في قميصه الأبيض الخفيف ، وبنطلونه الكحلي الأنيق ، وحذائه الأسود اللامع :
ـــ لعلمك .. ظللت أقرأ أمس حتى الثانية صباحا .. ثم استيقظت في السادسة لأكمل قراءاتي . أما إذا تزوجت فلن أتزوج إلا الفتاة التي تحفزني إلى المزيد من العمل والثقافة !
تدخل مصطفى في الحوار فيما يشبه المقاطعة :

ــ يبدو أن القراءة كانت ممتعة حتى تنام متأخرا وتنهض مبكرا هكذا !

ظهر فى عينيه الوميض الذى يعرفه مصطفى ويشكر عندما يقول شيئا جديدا مبتكرا :

ــ لقد اكتشفت سر قلعة الكبش !

تساءل يشكر :

ــ هل أصبحت تؤمن بأن هناك سرا كما يدعى بعض الجهلاء والانتهازيين وعلى رأسهم الدجال الأكبر ؟!

لم يعبأ عارف باستفزاز يشكر التقليدى :

ــ أقصد أننى توصلت إلى السر فى تسمية القلعة بالكبش !

لم يمنع مصطفى ضحكة تلقائية سريعة :

ــ إذاً ..سنهنئك قريبا بالجلوس على عرش الكبش !

سأل يشكر عارفا بطريقته المباشرة المفاجئة :

ــ هل يمكننا معرفة هذا السر ؟! أم أنك ستحتفظ به مثل الكبش ؟!

ــ لن أفتح الموضوع إلا فى ندوة اليوم !

أضاف مصطفى متذكرا :

ــ بالمناسبة ..حضر أبى أمس مؤتمر القمة الذى عقده الكبش .. ووجه فيه تحذيرا مباشرا لجماعتنا ..وهدد باتخاذ كل الإجراءات التى من شأنها الحفاظ على وحدة القلعة !

علق يشكر وقد عاد إلى متابعة الصاعدات والهابطات على سلم الكبش عبر النافذة :

ــ يقصد الحفاظ على سطوته وسيطرته على رقاب الأهالى ؟!

استمر مصطفى فى كلامه لعارف دون الالتفات إلى يشكر :

ــ كما أننا لاحظنا هذا الصباح وقوف أحد فتوات الكبش بالقرب من باب البيت لمراقبة الداخل والخارج !

ترك يشكر السخرية تمتزج بتحفزه :

ــ هل كنت تتوقع أن يرسل قطر الندى لمراقبته ؟!

ابتسم عارف مغلقا عينيه كالحالم :

ــ لو كانت هي .. لطلبت من الكبش أن تراقبني العمر كله .. يقولون إن جمالها وسحرها قد جعلاها من حوريات العصر الحديث !

عاد مصطفى إلى ضحكته التلقائية السريعة مما أصاب نظارته السميكة الداكنة باهتزازات متتابعة :

ــ دفعني حب الاستطلاع ذات مغرب إلى التجول حول القصر الغامض ولم يكن هناك لحسن حظي واحد أو اثنان من الفتوات الذين يرابطون عادة عند البوابة التي كانت مفتوحة نصف فتحة رأيت من خلالها السحر كله !

ومض بريق أخاذ في عيني عارف زادهما جاذبية :

ــ ماذا رأيت يامصطفى ؟!

لاحظ مصطفى الضيق على وجه يشكر لكنه استأنف :

ــ أعرف أنك رومانسي حالم ..ولذلك جهز نفسك لما سأقصه عليك !

أقحم يشكر نفسه في الحوار عنوة :

ــ لن تقص علينا سوى كلام فارغ !

استأنف مصطفى حديثه لعارف :

ــ هناك في الحديقة الجميلة التي تتوسطها النافورة المرصعة بالرخام

الملون فى نهاية الفناء الداخلى وجدت حورية بعثت من عالم الاساطير تسير الهوينى حول النافورة بصحبة مربيتها !

دون أن يدرى وجد عارف نفسه وهو يسأل مصطفى :

ــ ماذا كان شكلها ؟! ماذا كانت ترتدى ؟!

ــ كانت ترتدى ثوبا طويلا من الحرير الأبيض المنساب حول جسدها الرقيق كغصن البان ..فى حين انهمرت خصلات شعرها الأسود الطويل اللامع الناعم على كتفيها كشلال صامت ..أما وجهها فكان فى استدارته كالبدر فى إطلاله على الكون المظلم ..وعيناهـــا فى سواد شعرهـــا ولمعانه ..وأنفها كبروز جميل فى لحن ساحر ..وشفتاها رقيقتان كخاتم سليمان ..

عاد عارف إلى إغماض عينيه فيما يشبه النشوة العارمة . أراد يشكر أن يوقظه بألفاظه الحادة الموجهة فى الظاهر إلى مصطفى :

ــ هل استطعت وقت الغروب بنظارتك السميكة الداكنة .. ونظرك الضعيف أن ترى كل هذا بامتداد الفناء الداخلى الطويل ؟! أم أن خيالك كان أوسع من اللازم ؟!

لم يتخلص عارف من حالته الحالمة تماما :

ــ ما يقوله مصطفى يطابق تماما أقوال القليلين الذين لمحوها !

استمر مصطفى على سبيل إكمال حديثه :

ــ لعل الشيء الوحيد الذى التمست فيه العذر للكبش أنه أجبر ابنته على أن تلزم عقر دارها بعد حصولها على الشهادة الإعدادية فمن الممكن أن يتسبب جمالها فى صراعات دموية بين شباب القلعة !

علق يشكر فى سخرية واضحة :

ـــ كلنا يعلم أنه حريص عليها حرصه على حياته .. وقد ثبت أنه عاجز عن الإنجاب فى هذه السن المتأخرة .. وهذا هو السر فى تطليقه لزوجته الثانية بعد زواج استمر شهورا ..

عاد عارف إلى يقظته الجادة :

ـــ وإن كان يشيع أنه طلقها لارتباطه العاطفى الوثيق بأم قطر الندى التى رحلت عن الدنيا لكنها لم ترحل عن دنياه !

رد يشكر كأنه يحسم الحوار :

ـــ كل كلماته وتصرفاته زيف فى زيف .. وخداع فى خداع !

هز مصطفى رأسه موافقا :

ـــ إنه فى منتهى الخبث والدهاء .. ومن الخطورة أن نواجهه وصدورنا مكشوفة .. فهو لايتورع أن يقتل القتيل ويمشى فى جنازته !

وقف يشكر فى اعتداد كتمثال من الرخام :

ـــ المستقبل لنا ولمن بعدنا .. أما هو فماض مهما فعل .. إن عجلة الزمن لايمكن أن تعود إلى الخلف ولو للحظة واحدة !

نهض مصطفى بدوره فى حين نظر عارف الى ساعة يده :

ـــ هل حان ميعاد الندوة أم ننتظر بعض الوقت ؟

عاد يشكر إلى النظر عبر النافذة :

ـــ أصبح معظم شباب القلعة من رواد الندوة صباح كل جمعة .. وهى على وشك أن تسرق الأضواء من ندوة كازينو وبرا التى يحضرها نجوم الفن والأدب !

علق مصطفى بحذره المعهود :

ـــ لكن لاتنس عيون الكبش المبثوثة بين الرواد !

ظهرت بوادر السأم على نبرات يشكر :

ـــ لو وضعنا كل هذه الاعتبارات فى ذهننا لما فعلنا شيئا !
هيا بنا ..فالشباب فى انتظارنا !

سار يشكر بنفس الاعتداد وخلفه مصطفى وعارف إلى خارج الشقة حيث هبطوا على درجات السلم الحجرية العريضة ذات السور الحديدى الذى تحسسه مصطفى فى الظلام الذى لم ينقشع إلا عند باب الشارع حيث الشمس التى بدأت تلهب حوارى القلعة وأزقتها الصاعدة والهابطة بسياط من نار برغم البيوت المتلاصقة الحانية عليها بظلالها .

كان نمر يقف يراقب الداخل والخارج عند الناصية المقابلة . فجأة ذهب إليه يشكر وسلم عليه فى حرارة أذهلت كلا من عارف ومصطفى اللذين سمعاه يقول له :

ـــ لا يصح يا معلم أن تقف هنا فى الهجير .. فى المرة القادمة أرجو أن تتفضل معنا لتتناول شيئا باردا .. ولنستمتع بصحبتك فى الوقت نفسه !!

عقد الذهول لسان نمر الذى تلعثم كأنه يهذى :

ـــ لم أكن واقفا فى الهجير .. فقط كنت فى انتظار صديق سيأتى حالا !

أشار يشكر إلى المنزل ذى اللون البنى المترب :

ـــ على كل حال فالبيت مفتوح لجميع أبناء القلعة .. سلامه عليكم ..

تحرك يشكر ومعه مصطفى وعارف صاعدين سلم الكبش . لم يستطع مصطفى الإمساك عن الكلام :

ـــ لا داعى للتحرش بهؤلاء المجرمين !

بلغوا أعلى السلم . نظر يشكر خلفه فوجد نمراً يهرول فوق درجاته فى أعقابهم مع الاحتفاظ بمسافة معقولة :

ـــ إذا لم تواجه الخطر فى عقر داره .. فسيدهمك فى عقر دارك !

سار ثلاثتهم عبر شارع قلعة الكبش الملتوى والملتف حول البيوت مثل ثعبان أسطورى ، برغم الأتربة وتلال القمامة الصغيرة المتناثرة على جانبيه بين القطط والكلاب الضالة أحيانا ، وبين البط والدجاج والماعز أحيانا أخرى . قال عارف وكأنه يخاطب نفسه وإن كان بصوت عال :

ـ كم حصل الكبش على تبرعات .. وإن كانت فى حقيقتها جباية مفروضة على الأهالى .. من أجل نظافة القلعة ورصف شوارعها وأزقتها .. وبناء مساكن شعبية نظيفة صحية ..وإنشاء مدرسة ونادى للشباب .. لكن شيئا من هذا لم يتم ..ومع ذلك فالتبرعات الإجبارية مستمرة !! واستخدام صبية القلعة بأقل الأجور فى مشروعات المعلم كالطاحونة ومغلق الخشب ومسبك الحديد مستمر دون أن يفتح أحد فمه بكلمة !!

رفع يشكر صوته وكأنه يريد للنسوة الجالسات عند عتب البيوت طلبا للهواء والنور ، أو الواقفات فى النوافذ أن يسمعن مايقوله :

ـ لايمكن أن تستمر الأمور على هذا الوضع المستحيل !

استأنفوا سيرهم فى حين تفادى عارف سيلا متدفقا من ماء الغسيل من إحدى الشرفات التى سرعان مااختفت فيها امرأة بدينة كانت تحمل فى يدها دلوا من الحديد .

بلغوا الميدان الصغير حيث المقهى ذو الواجهة الزجاجية المحاطة بجدران رقيقة من الخشب المدهون باللون الأخضر الفاتح .

رآهم الشباب المتناثر حول الموائد الرخامية ذات القوائم الحديدية فتعلقت عيونهم بهم . دخل عارف وحياهم مع يشكر ومصطفى ثم جلسوا حول مائدة خالية فى المنتصف وكأنها تركت لهم خصيصا . وسرعانماالتف حولهم الشباب ،كل بمقعده .

دخل نمر المقهى كالسهم فتتبعته العيون حتى الركن المندس أقصى اليمين حيث كان الشمطلى جالسا بصحبة فهد وديب متنمرين لما يدور فى الركن الأيسر ، الشمطلى يدخن النارجيلة ، وفهد سيجارة ، وديب يشرب كوبا من الشاى الساخن ويتبادل كلمات هامسة مع نمر الذى جلس إلى جواره .

قال شاب نحيف يرتدى حلة عمالية صفراء لعارف :

ـــ وعدتنا الأسبوع الماضى أن تكشف لنا عن سر الكبش .. ونحن على أحر من جمر لنعرفه .. وإن كان أبى قد أكد لى أن هذا السر لم يخرج عن أسرة الكبش منذ أيام أحمد بن طولون !

التقط الشمطلى فى ركنه كلمات الشاب فتحول إلى آذان صاغية ، فى حين لم يعبأ عارف به وقال للشاب :

ـــ من خلال دراستى لتاريخ قلعة الكبش .. وخصوصا فى الأسبوع الماضى .. اكتشفت أن الأمر ليس فيه سر على الإطلاق .. وأن القلعة عبارة عن كتاب تاريخ مفتوح لكل من يريد أن يقرأ أو حتى يقلب صفحاته !!

تساءل شاب آخر بجلباب أبيض نظيف :

ـــ وماذا قرأت ؟! نريد أن نعرف !! إن ثقتنا فيك لا حدود لها !

اقترب الشمطلى بمقعده قليلا وخلفه رجاله ، فى حين قال عارف بهدوء المفكر الواثق من علمه :

ـــ إن ما سأقوله ليس من اختراعى أو بنات أفكارى كما يفعل البعض بهدف تأكيد سيطرته على الأهالى بالغموض والهيبة المفتعلة والأسرار الكاذبة .. بل من مراجع وكتابات مؤرخين عظام من أمثال ابن أياس وابن تغرى بردى والمقريزى وعلى مبارك ..

ران الصمت وكأن على رءوس الجميع الطير ، حتى النادل وقف

بالباب الداخلى منصتا . أما الشمطلى فقد تحول مع رجاله إلى توتر متحفز ، خاصة وأن أوامر المعلم كانت واضحة ومحددة فى عدم اللجوء إلى العنف . استمعوا إلى كلمات عارف الجهورية الرصينة لعلهم يجدون فيها ثغرة :

ــ فى سنة ٨٦٨ ميلادية جاء ابن طولون إلى مصر وكيلا عن باكباك صاحب إقطاعها بأمر الخليفة العباسى .. وكان زوج أم أحمد بن طولون .. وكان من عادة أصحاب إقطاعات الولايات أن يقيموا بسامرا مركز الخلافة ويرسلوا عنهم وكلاء إلى ولايتهم . ولما قتل باكباك منح إقطاع مصر لياركوج وكان صهر أحمد بن طولون فأبقاه وكيلا له فى حكم مصر .. بل أطلق يده فيها حتى قال له : تسلم من نفسك لنفسك .. فأسندت إليه ولاية الإسكندرية وخضع له صاحب برقة وبسط سلطانه على سائر أقاليم القطر المصرى . ولم يلبث ابن طولون أن استقل بحكم مصر ثم ضم إليه بلاد الشام .

توقف عارف لعل هناك من يريد التعليق أو الاستفهام لكن السكون التام ساد المكان . شرب نصف كوب من الماء المثلج أحضرها له النادل خصيصا دون أن يطلبها منه أحد . استأنف حديثه :

ــ أقام ابن طولون فى أول الأمر بمدينة العسكر ونزل دار إمارتها وأسس فيها مستشفى اشتهر بدقة أنظمته .. ولكنه فى سنة ٨٧٠ ميلادية شرع فى تأسيس مدينة القطائع لتكون مركزا لحكمه ومقرا لجنده وحاشيته الذين اقتسموها فسميت بذلك القطائع .. وكما فعل أبو عون حين أسس العسكر فى الجانب الشمالى من الفسطاط .. أسس ابن طولون القطائع فى الطرف الشمالى من العسكر !!

لم يستطع الشمطلى التزام الصمت أكثر من هذا فنهض قائلا فيما يشبه الصراخ المتشنج :

ــ وماعلاقة هذا بقلعة الكبش ؟! لاتحاول خداعهم فنحن نعرف هذه المنطقة أفضل منك ألف مرة !!

نظر إليه عارف بابتسامة ساخرة خفيفة وأجابه فى هدوء :

ــ الموضوع ليس فى حاجة إلى كل هذا التشنج .. فأنا لم أنه حديثى بعد .. ومع ذلك فصدرى متسع لكل تعليق أو استفهام أو نقد أو حتى هجوم بعد أن أقول كل ماعندى !

وقف فهد إلى جوار الشمطلى مقلدا إياه :

ــ من أنت حتى تظن نفسك معلما لهم ؟!

لم يرد عارف فى حين جذب الشمطلى فهدا من يده وأجلسه إلى جواره . استأنف عارف حديثه بالهدوء نفسه :

ــ كانت القطائع تقع من جهة بين جبل يشكر ..

ابتسم عارف وهو ينظر إلى يشكر الذى سعد بذكر اسمه :

ــ وهو الجبل الذى سمى يشكر باسمه !

ضرب الشمطلى المائدة أمامه بيده :

ــ ولماذا سمى الجبل باسم يشكر ؟!

لم يفقد عارف اتزانه :

ــ يقول القضاعى إن الجبل سمى بذلك نسبة إلى يشكر بن جزيلة من قبيلة لخم .. وكانوا قد اتخذوا من هذه البقعة مكانا لهم أقاموا فيه منازلهم عند تأسيس مدينة الفسطاط فى عهد عمرو .. ويقول ابن دقماق إنها سميت بذلك نسبة إلى رجل صالح كان يسمى يشكر.وقد ذكر المقريزى أنه كان من المعتقد أن هذه البقعة كانت مباركة : إذ قيل إن موسى عليه السلام ناجى ربه عليها .. ونقل المقريزى نفسه عن ابن عبد الظاهر أنها كانت مكانا مشهورا بإجابة الدعاء .

تساءل النادل وهو لايزال فى وقفته :

ـــ نريد إكمال الحكاية بدون مقاطعة !! أين كانت هذه المدينة ؟!

ـــ كما قلت كانت من جهة بين جبل يشكر وهو الحد الشمالى للفسطاط وبين سطح جبل المقطم عند مكان القلعة حاليا . أقصد قلعة الجبل أو قلعة صلاح الدين .. وكان المكان يعرف فى ذلك الوقت باسم قبة الهواء .. ومن جهة أخرى بين الرميلة تحت القلعة إلى مشهد الرأس الذى عرف فيما بعد باسم مشهد زين العابدين . كما أتم ابن طولون بناء مسجده المعروف فوق جبل يشكر فى سنة ٨٧٩ ميلادية .. وهو البناء الوحيد الذى تبقى من قطائع ابن طولون ..

لم يستطع شاب أن يمنع نفسه من التساؤل :

ـــ وهل بنى ابن طولون مسجده على جبل يشكر للأسباب التى ذكرتها؟

ـــ من الملاحظ أنه أختار موضعا ملائما من الناحية المعمارية والناحية الاجتماعية . فمن جهة يلاحظ أن بناء المسجد على ربوة صخرية مرتفعة قد جعله بمنأى عن فيضان النيل ورشح المياه .. كما زوده بأساس صخرى متين .. وهذا كله مما يفسر بقاء جامع ابن طولون برغم اندثار جميع ما حوله من المبانى .. ومن جهة أخرى يلاحظ أن موضع الجامع يقع فى الطرف الجنوبى من مدينة القطائع أى بين مدينة العسكر القديمة وبين مدينة القطائع الجديدة .. أى وسط مدينة مصر التى أصبحت تضم فى ذلك الوقت كلا من الفسطاط والعسكر والقطائع . ويبدو أن أحمد بن طولون كان يضع فى اعتباره أن هذا الجامع سوف يسعى إليه سكان هذه المدن الثلاث ولذلك بناه على مساحة قدرها ستة أفدنة ونصف .. ويقال إن ابن طولون قال عند عزمه على بناء جامعه : أريد أن أبنى بناء إن احترقت مصر

سحب الشمطلى نفسا عميقا من النارجيلة أطلقه بغزارة من فمه وأنفه وقال بصوت عريض يحمل بشائر النصر :

ـــ إنه يلف ويدور دون أن يلمس السر الذى وعد بأن يكشفه لكم هذا الصباح !

أجاب النادل وكأنه يريد أن يحسم الموقف :

ـــ نريد أن نسمع الحكاية حتى النهاية !!

صدرت همهمات متناثرة من الشباب الذى تضاعف عدده حول مائدة عارف لدرجة أن البعض ظل واقفا على شكل نصف دائرة . لم تكن همهمات ذات كلمات واضحة لكنها أكدت موافقتها على رأى النادل . اكتفى عارف بهذا التأييد الحماسى واستأنف حديثه :

ـــ وكان عمار القطائع قد ازداد فى عهد خمارويه بن أحمد بن طولون الذى كان بطبيعته شغوفا بالترف والبذخ والفنون . وأنشأ خمارويه حديقة للحيوان كان فيها السباع والنمور والفهود والدببة والذئاب والفيلة والزرافات والطيور وغيرها .. وجهز بيوتها بما يكفل لها الصحة والنظافة .. غير أن أسرة طولون لم يكتب لها البقاء طويلا .. ففى سنة ٨٩٢ ميلادية أرسل المستكفى بالله قائده محمد بن سليمان الكاتب على رأس جيش فاقتحم القطائع وقتل بنى طولون وخرب قصورهم .. ثم سكن محمد بن سليمان الفسطاط وتبعه فى ذلك من جاء بعده من الولاة العباسيين والإخشيديين .

تساءل شاب من الواقفين :

ـــ وهل سمى زقاق المستكفى باسم المستكفى بالله ؟!

أجاب عارف وقد تضاعف حماسه الذى غلف كلماته :

ـــ طبعا .. كما قلت لكم إن قلعة الكبش كتاب للتاريخ مفتوح لكل من

يريد الاطلاع .. ولعلمكم فقد سكن قلعة الكبش الخليفة المستكفى بالله لكن السلطان قلاوون سجنه فى برج بالقلعة ثم أفرج عنه ..

دق الشمطلى بيده على المائدة صارخا فى عارف :

ــ تكلمت فى كل شيء .. إلا فى قلعة الكبش وسرها !! إما أنك تعرفه فقله وخلصنا .. أو أنك لاتعرف شيئا .. حينئذ عليك بالذهاب إلى بيتكم وإغلاق بابكم عليكم حتى لا يرميك شباب القلعة بالطوب والأحجار .. فهم يكرهون الدجالين من أمثالك !

لم يستطع عارف أن يمسك نفسه من الرد المباشر هذه المرة :

ــ الدجالون هم الذين يدعون الاحتفاظ بسر وهمى يضحكون به على عقول البسطاء .. فكلنا بشر ولا يملك إنسان حق امتلاك سر يستخدمه سلاحا على رقاب الآخرين .. وإذا كان قطع ألسنة الدجل والخداع قد أصبح ضرورة ملحة فإننى أقول على مسمع من الجميع إن القلعة سميت بالكبش من اسم الجبل الذى بنيت بيوتها عليه ..

تمنى الشمطلى أن يطول نفسه فى هده المحاورة العلمية الجادة :

ــ قلت إن اسم الجبل يشكر . والآن تقول إن اسمه هو الكبش .. فأيهما نصدق ؟!

قرر عارف أن يشهر كل أسلحته العلمية :

ــ ذكر المقريزى أن عمال مصر من طرف الخلفاء الأمويين والعباسيين وفى دولة الفاطميين بنوا قصورا سميت مناظر الكبش على جبل يشكر بجوار الجامع الطولونى .. وكانت هذه المناظر تشرف على البساتين الشاسعة وبركة قارون التى أنشأها الملك الصالح نجم الدين أيوب من أعلى جبل يشكر الذى يطل على باب زويلة والقاهرة وباب مصر ومدينة مصر وقلعة الروضة وجزيرة

الروضة ومجرى النيل الأعظم وبر الجيزة .. وقد سمى الملك الصالح نجم الدين أيوب المنطقة كلها بما فيها جبل يشكر بالكبش وهو الاسم الذى عرفت به حتى يومنا هذا .. وأصبح اسم جبل الكبش أكثر شهرة من جبل يشكر الذى لم يعد أحد يذكره اليوم .. وقد سكن قلعة الكبش الخليفة الحاكم بأمر الله فى برج من أبراجه .. والأشرف خليل بن قلاوون .. والناصر محمد بن قلاوون الذى هدم هذه المناظر وأعاد بناءها من جديد .. وضاعف من سعتها وخضرتها .. كما سكنها الأمير يلبغا العمرى .. كما أقام الأشرف قايتباى مسجده بها .. وقد قال المقريزى إن الكبش جبل بجوار جبل يشكر كان قديما يشرف على النيل غربا .. ولما اختط المسلمون مدينة الفسطاط بعد فتح أرض مصر صار الكبش من جملة خطة الحمراء القصوى وسمى بالكبش والحمراء القصوى . أما شارع قلعة الكبش هذا فكان يعرف أيضا بشارع الحوض المرصود .. وهو حوض من الحجر الصوان الأسود كان فى فجوة بالقرب من الكبش للسقى ثم نقله الفرنسيون إلى باريس ويوجد الآن بالمتحف البريطانى بلندن !

تحفز الشمطلى فى جلسته فقد ظن أنه أصبح قادرا على إصابة عارف فى مقتل :

ـــ سنظل مع الكذاب لباب الدار .. نحن لم نسألك عن الذى سماها بالكبش !! أننا نسألك لماذا سميت هكذا ؟!

استدار عارف فى جلسته وكأنه يوجه له الضربة القاضية :

ـــ الأمر فى غاية البساطة .. فإذا فتحنا قاموس لسان العرب لابن منظور سنجد أن كبش القوم يعنى رئيسهم وسيدهم .. وقيل كبش القوم هو

حاميهم والمنظور إليه فيهم .. وكبش الكتيبة هو قائدها .. وبذلك لم يعد فى الأمر أى سر !!

انطلقت آهات الاستحسان من صدور الشباب المشتعل حماسا ، وكأنها سهام مسمومة فى صدر الشمطلى ورجاله . صاح الشمطلى وصدره يعلو ويهبط بشدة :

ــ إن سر المعلم باتع .. ومن تزين له نفسه الاقتراب منه .. سيدفع حياته ثمنا لجرأته وغبائه .. فلم يعد الأمر قاصرا على السر الكامن فى خزانة السرداب فى قصره .. بل أصبح المعلم يختفى من وقت لآخر دون أن يعلم أحد أين ؟! فالأهالى يرونه فى عدة أماكن متباعدة فى وقت واحد كما حدث ليلة أمس !!

توقف الشمطلى ليلتقط أنفاسه ناظرا الى رجاله وكأنه يطلب المساعدة بعد أن فرغت جعبته من الحجج القوية ، نهض نمر صارخا كهزيم الرعد :

ــ رآه البعض أمس يتجول عند تكية الدراويش بالقرب من قلعة الجبل !

ثم جلس وهو يحرك عصاه الغليظة فى عصبية ، فى حين نهض ديب بصوت كالريح الترابية :

ــ وفى الوقت نفسه راه البعض عند مجرى العيون لإعادة المياه التى توقفت منذ عصر السلطان قايتباى !

خرج يشكر عن صمته أخيرا :

ــ نعم عند مجرى العيون الذى اغتالت فيه السيارة الغامضة الغادرة والد عارف !

تكهرب الجو . أدرك عارف أن الشمطلى فهم تماما ما يعنيه يشكر . ساد الصمت الذى قطعه فهد بغباء قوى :

ـــ كما أن رائحة البخور المتصاعد من السرداب الرهيب .. ودبيب أقدام الأشباح لم يعد ينقطع سواء فى الليل أو النهار !

تساءل يشكر فى سخرية كادت أن تفجر الموقف المشحون :

ـــ يبدو أنها أشباح أرستقراطية لاترضى الا بالنزول فى القصور الأنيقة ..أما البيوت الخشبية المتهالكة المحيطة بقصر الكبش الفاخر فلا تليق بها ..برغم أن الإضاءة الضعيفة داخلها تناسب الأشباح التى نعرف أنها بطول تاريخها الغامض كانت تفضل الظلام !!

لم تفلح المروحة الكبيرة المعلقة فى السقف فى تجفيف قطرات العرق المتألقة على وجه الشمطلى الذى نهض محركا عصاه الغليظة فيما يشبه التهديد :

ـــ هذه هى نتيجة التعامل مع الصبية !

أحاط به رجاله واقفين فقال مقلدا لهجة الكبش :

ـــ لقد أعذر من أنذر !

سار الشمطلى فى المقدمة وهو يدك الأرض بعصاه وفى أعقابه رجاله الثلاثة .ومض فى عيونهم مزيج من الحنق والإحباط والرغبة العارمة فى الانتقام وهم يخرجون من الباب الخشبى فى طريقهم إلى الشارع الصاعد صوب القصر .كانت روائح الطبخ والتقلية قد تدفقت من نوافذ البيوت وكأن مادار فى المقهى منذ لحظات لايهم سكان هذه البيوت فى كثير أو قليل .

فجأة قال يشكر فى صيغة الأمر وهو يشير إلى الشباب المحيط بهم :

ـــ فليقف من يعمل فى طاحونة الكبش ومغلق الخشب ومسبك الحديد .

وقف بعض الشباب وهم ينظرون حولهم فى تردد وكأنهم يتوجسون

خيفة .لكن يشكراً لم يقتنع بهذا العدد :

ـــ كان عددكم أكبر من هذا فى الأسبوع الماضى ؟!

نظر ثلاثة آخرون حولهم ثم وقفوا بالتردد نفسه .تساءل يشكر فى حسم :

ـــ ماذا فعلتم بخصوص المطالبة بأجور تعادل أجور زملائكم فى القطاع العام ؟!

ران الصمت لحظات ثم قال شاب يرتدى جلبابا بلديا أنيقا :

ـــ رفض المعلم صرف نصيبنا من الحليب اليومى برغم ظهور بعض الأمراض الصدرية بين العمال ..فكيف نطالبه برفع الأجور ؟!

ـــ ولماذا لا تتركون العمل عنده ..وتلتحقون بمصانع القطاع العام ؟!

نظر الشاب حوله مرة أخرى ثم قال بصوت خفيض :

ـــ قمت أنا بمحاولة شخصية ..حتى إذا نجحت طلبت من زملائى اللحاق بى وتوجيه ضربة العمر إلى مشروعات المعلم !

تساءل يشكر فى شغف لأول مرة :

ـــ وماذا كانت نتيجة المحاولة ؟!

ـــ طلب منى امسئولون فى القطاع العام شهادة خبرة من الجهة التى كنت أعمل بها ..ولذلك يبدو أن السخرة فى مسبك المعلم قد كتبت علينا حتى آخر العمر !

أسقط فى يد يشكر لكنه قرر المقاومة :

ـــ أليس هناك أمل فى العمل بدون شهادة الخبرة ؟!

ـــ بدون الشهادة لا بد من طلوع السلم من أوله ..وبالتالى الحصول على أجر يقل كثيرا عن أجرنا الحالى !

لم يجد يشكر كلمات مناسبة ومع ذلك قال :

ـــ لا بد من البحث عن حل مناسب .. فالأمور لا يمكن أن تسير بهذا الشكل !

شعر الشباب الواقف أن الشاب قد عبر عن قضيتهم فجلسوا مرة أخرى .

مسح مصطفى نظارته السميكة الداكنة بمنديله وقال كأنه ينهى الندوة :

ـــ نرجو أن نحل قضايانا دون اللجوء إلى العنف الذى لا يلد سوى عنف أسوأ .. ويكفينا فى هذه المرحلة أن يعى الأهالى حقوقهم وواجباتهم .. حتى تستمر الحياة هادئة مثمرة كما كانت منذ أيام أحمد بن طولون ..

نهض عارف واقفا وقد طغت المرارة على إحساسه الطارئ بالانتصار على الشمطلى ورجاله عندما كشف أمام الجميع سر تسمية القلعة بالكبش . هرع النادل إلى عارف :

ـــ المثلجات جاهزة .. لا يصح مغادرة المقهى فى هذا القيظ دون ترطيب أفواهكم التى لا نسمع منها سوى الحكمة والجرأة !

ربت عارف على كتفه فى أخوة دافقة :

ـــ لسنا ضيوفا .. نحن أصحاب بيت .. كما أن ميعاد صلاة الجمعة قد حان ولا أريد أن نتسبب فى تعطيل أحد .. سلامه عليكم !!

حيا عارف ويشكر ومصطفى الشباب الذى أحاط بهم ، ثم ساروا فى طريقهم إلى مسجد سنجر الجاولى . ران الصمت مرة أخرى حتى قطعه عارف فى ابتسامة غامضة متسائلة :

ـــ لم تعد التوعية كافية .. لا بد من تعرية الكبش تماما وفضحه بطريقة يلمسها البسطاء الذين لا يهتمون بالمقريزى أو ابن أياس أو ابن تغرى بردى أو على مبارك .. لا بد من الوصول إلى أعماق قصره وكشف لعبة

السرداب والخزانة !

لم يمنع يشكر ضحكة انطلقت منه عفوا :

ــ هل تريد أن تستبدل دور المغامر بدور المثقف المفكر ؟!دخول الحمام ليس كالخروج منه !فلاداعى لشطحاتك الرومانسية التى لايمكن أن تتحقق ..وإذا تحققت فلن يعرف الذباب الأزرق طريقا إليك !

أجاب عارف وكأن الفكرة قد سيطرت عليه فعلا :

ــ أى عمل كبير فى حياة الإنسان يبدو مستحيلا لأول وهلة ..ومع التخطيط والدراسة الواعية يبدو ممكنا !

سأل مصطفى وهو يثبت نظارته على أنفه :

ــ ماذا تنوى أن تفعل بالضبط ؟!

ــ لاأعرف بالضبط ..لكن ضرباتنا القادمة يجب أن تكون موجهة للهالة التى يحرص عليها المعلم ..بطريقة مباشرة وفى عقر داره !

قال مصطفى فى يأس :

ــ لم يحدث أن دخل أحد القصر إلا بناء على استدعاء المعلم ! بل إن الدوران حوله عن بعد يشكل خطورة مؤكدة على من يقوم به خاصة إذا كان الفتوات يزاولون حراستهم المعتادة !

أشاح عارف بوجهه بعيدا :

ــ إننى مع يشكر فى أن الأمور لايمكن أن تسير بهذا الشكل !

تدخل يشكر فى الحوار عندما بدت واجهة مسجد سنجر الجاولى شامخة عريقة :

ــ هناك فرق شاسع بين الجرأة والتهور .. خاصة بعد مواجهة اليوم الساخنة !

تشجع مصطفى فى تأكيد اعتداله :

ـــ ولن يسكت الفتوات بعد هذا التصعيد !

قال عارف وهو يخلع حذاءه الأسود الذى لم يعد لامعا عند مدخل المسجد :

ـــ لم أفكر فى شيء محدد بعد .. وسأحتاط لكل الظروف .. وربما انتهزت فرصة اختفاء المعلم وانصراف الفتوات إلى حال سبيلهم للبدء فى الدراسة والتخطيط ..

صمت يشكر ومصطفى وهما يدخلان المسجد مع عارف . لم تكن ثقتهما كاملة فى جدية ما يقول . لكن عارفا رفع عينيه إلى القبة الكبيرة وابتهل لله أن يلهمه ما يجب عليه أن ينهض به من أجل إخوته وأهله الذين لم يضعوا أقدامهم على بداية الطريق بعد .

عند المغيب جلست قطر الندى خلف مشربيتها تراقب قلعة الجبل وهى تكتسى بأردية داكنة مع آخر خيوط للغروب ، فى حين جلست مربيتها الغجرية السمراء الفتية تمر حنة على مقعد منخفض قبالتها وإن كشفت المشهد المهيب بدورها . عشقت قطر الندى الخيوط الذهبية وهى تنسج عباءة رمادية للكون ، لا تزال حتى تغرق فى سمرة أزلية موغلة فى الظلام الذى سرعان ما تقاومه نجوم الليالى القمرية فى السماء ، ومصابيح الطرق الملتوية الصاعدة والهابطة بين قلعة الجبل وقلعة الكبش تحت قبة الهواء .

تنهدت قطر الندى بعد أن غرق نصف القرص الذهبى خلف خط الأفق ثم خرج صوتها صافيا ناعما هامسا وإن شابته رنة حزن وانكسار :

— لولاك ياتمر حنة ما عرفت كيف أواصل الحياة !! إن السجين خلف القضبان الحديدية يعيش على أمل الإفراج عنه يوما ما .. أما سجين القضبان الذهبية — مثلى — فلا يملك هذا الأمل !

انعكست بقايا الخيوط الذهبية على عينى تمر حنة العسليتين الواسعتين ثم انفرجت شفتاها الغليظتان عن ابتسامة غجرية ناعمة :

— روحى فداك ياحبيبتى .. فأنا أعيش من أجلك !

اتسعت ابتسامة قطر الندى الحزينة عندما ربتت تمر حنة على ركبتها فى عاطفة جياشة :

— كنت أتمنى أن أكمل تعليمى .. حرام أن أصبح رهينة هكذا فى حين تستعد زميلاتى فى الشهادة الإعدادية لدخول الجامعة هذا العام !

أخذت تمر حنة يد قطر الندى بين يديها الساخنتين :

ـــ الزواج هو مصير كل البنات .. أرجو الله أن يرزقك بفتى أحلامك كى تعيشى معه فى التبات والنبات !

تنهدت قطر الندى فى حرقة صعدت مع نفسها الدافىء :

ـــ وكيف أقابل فتى الأحلام هذا وأنا لا أغادر هذا البيت المعزول إلا نادرا وفى صحبة أبى ؟!

ـــ علمتنى جماعات الغجر التى تفتحت عيناى على الحياة وسطها أن المكتوب على الجبين لازم تشوفه العين !

ـــ وما الذى يمكن أن يكتب لى وليس لى سوى الجلوس خلف هذه المشربية .. أو النوم فى سريرى .. أو الاستماع إلى الراديو .. أو مشاهدة التليفزيون ؟!

تركت تمر حنة يدها بعد أن أحست ببوادر العرق :

ـــ إن جمالك وسحرك حديث شباب القلعة الذين يتمنون مجرد رؤيتك .. ولم يحكم عليك المعلم بعدم اكمال دراستك إلا لخوفه عليك !

ـــ هناك فى القلعة من زميلاتى من هن فى جمالى .. إذا كنت جميلة حقا .. كما أن آباءهن يخافون عليهن مثل أبى تماما .. ومع ذلك يعيشن حياتهن بمنتهى الحرية والأمل الكبير فى مستقبل عريض !!

وضعت تمر حنة يدها على وجنتها فى استسلام :

ـــ كل انسان وطبعه !

ـــ الحقيقة أن أبى لا يثق فىّ .. فهو يظن أن المرأة .. ليست سوى أنثى حيوان على استعداد للرضوخ أو الإيقاع بأول ذكر تقابله فى طريقها !

ـــ ما فعلته زوجة أبيك ليس بالأمر الهين .. والحمد لله أنه اكتفى

بتطليقها !

نظرت قطر الندى عبر المشربية :

— لم يكن له ليتزوج من هى فى سن ابنته أو أكبر قليلا !

— لا فائدة من نبش الماضى .. لقد ذهب إلى حال سبيله !

اكتسى وجهها الجميل بمسحة من الشرود العذب :

— لا أنسى كلمات الأستاذ عبد العليم وهو يقول لنا إن الرجل الذى ينظر إلى جسد المرأة قبل عقلها لا يحترمها ولا يحترم نفسه .. فالعلاقة بين الرجل والمرأة ليست مجرد علاقة بين ذكر وأنثى .. وإلا ما الفرق بين الإنسان والحيوان ؟!

لم تفهم تمر حنة كلمات سيدتها وإن كانت قد أشعلت حب الاستطلاع داخلها :

— ومن هو أستاذ عبد العليم هذا ؟!

— إنه أستاذ اللغة العربية الذى قام بتدريسى فى الشهادة الإعدادية .. وهو زوج أخت عارف النباش !

شهقت تمر حنة كما لو كانت قد رأت شبحا :

— لا تذكرى هذا الاسم على لسانك مرة أخرى . فأنت أدرى برأى أبيك فيه وفى أبيه وأسرته كلها !

— لا أستطيع أن أنكر فضل من أنار عقلى ونفسى من الداخل . فالأحاديث التى تبادلتها معه سواء فى الفصل أو الفناء تزيد على الأحاديث التى تبادلتها مع أبى منذ ولادتى حتى الآن .. ويبدو أننى لن أستطيع مجرد رؤيته بعد أن تخلى عن خلوته المعتادة داخل البيت ليستبدلها بأيام طويلة يختفى فيها بعيدا عنى !

ـــ إنها أمور لا نفهم فيها يا حبيبتى !.

عادت تمرحنة إلى الإمساك بيد قطر الندى بحرارة لكنها سحبت يدها فى توتر خفى :

ـــ لم أعد أفهم شيئا .. فحياتى نفسها لم يعد لها معنى !

كانت تمرحنة على وشك أن تواسيها لكنها فوجئت بوميض حاد فى عينيها وهى ترسل البصر عبر المشربية التى رفعت ضلفتها بعض الشىء . شاركتها تمرحنة فرأت شابا طويلا نحيفا ، أسمر البشرة ، ناعم الشعر الأسود الفاحم ، واسع العينين ، عريض الجبهة ، دقيق الأنف ، غليظ الشفتين ، يمسح بعينيه الجدار المبنى من مربعات الأحجار الغليظة السميكة ، ثم يقترب من المشربية وينظر إلى أعلى فتلتقى عيناه بعينى كل من قطرالندى وتمرحنة التى سرعان ما فاجأته بسؤال كالسهم :

ـــ ما الذى جاء بك إلى هنا ؟! وعمن تبحث ؟!

أجاب الشاب فى ثبات أدهش تمرحنة وأثار إعجاب قطر الندى التى شعرت بطبقات الصدأ والملل داخلها تنداح أمام مد موجات طاغية من أحاسيس الإثارة الغامضة اللذيذة :

ـــ لم يقل لى أحد إن المرور ممنوع من هنا . فباب البيت مغلق والطريق مفتوح أمام المارة !

لم تتخل تمرحنة عن حدتها السليطة :

ـــ هل تبحث عن شخص أو شىء ما ؟!

تحول الثبات عنده إلى لا مبالاة بلغت درجة الاستهانة . هز كتفيه وقال مركزا عينيه على وجه قطرالندى :

ـــ قالوا لى إن منظر الغروب من هذه البقعة ساحر يخلب الألباب .. وقد

خلقنى الله عاشقا للجمال !

ـــ هيا من هنا .. قبل أن تصبح ضحية عشقك !

سعد الشاب باستخدام تمرحنة لكلمة العشق التى تناسب المقام تماما . لم يبتعد بسهام عينيه الجميلتين عن وجه قطرالندى التى أصابت داخلها دغدغة مثل تلك التى قرأت عنها فى قصص الحب التى اطلعت عليها دون علم أبيها :

ـــ ماأروع أن يموت الإنسان فى سبيل الجمال ؟!

لم تدر قطرالندى إلا وصدرها الناهد الصاعد الهابط يستقبل شهيقا منعشا ليخرجه زفيرا محرقا ومعه سؤال لم تفكر فى إلقائه :

ـــ من أنت ؟! مااسمك ؟!

ـــ عارف النباش !

قالها وكأنه يدق جدران القصر بكرات من لهيب لسع قلب تمرحنة التى اهتزت بعنف لم تعهده قطرالندى فيها من قبل :

ـــ أنت بالذات ممنوع من الاقتراب هنا ! فلتسرع من هنا قبل أن يصيبك ما لا تحمد عقباه !!

طفحت لهجته بالتحدى الصريح :

ـــ لا يصح أن تتكلمى هكذا وسيدتك صامتة لم تأمرنى بالذهاب !

ـــ ستأمرك حالا !!

ثم نظرت إلى سيدتها التى شدت عيناها بخيوط خفية إلى وجهه . كان مستمتعا بجمالها الذى كاد أن يفقده الوعى دون أن تمس شفتاه كأس مسكر . تماما كما وصفها مصطفى : وجهها المستدير كالبدر وسط ظلام خصلات شعرها الأسود الطويل اللامع الناعم على كتفيها كشلال

صامت ، وعيناها الواسعتان السوداوان ، وشفتاها الرقيقتان . لكن مصطفى لم يرها مثله قريبة هكذا ولذلك لم يلحظ الشحوب والحيرة التى تكاد تقفز من عينيها باحثة عن كلمات !

ـــ لا تصمتى يا سيدتى فى وقت مثل هذا ؟!

تنبهت قطرالندى على طلقات الرصاص المنهمرة من فم تمرحنة فإذا بها تسأل عارفا دون تفكير :

ـــ هل أتيت حقا لمشاهدة منظر الغروب ؟!

لم يأمل فى سؤال أروع من هذا :

ـــ إنه منظر جميل حقا .. لكنه سرعان ما يزول .. أما الجمال المطل من المشربية فضياؤه نهر لا ينضب ولا يغيض له معين !

صرخت تمرحنة كى تصحو سيدتها من غفلتها :

ـــ هذا المساء لن يفوت على خير !

لكنها لم تستيقظ ! كانت تعيش أسعد أحلامها :

ـــ أرجوك .. اذهب بعيدا .. فأنا أخاف عليك !!

كان عارف على وشك أن يذهب بعيدا فعلا ، لكن المقطع الأخير جعله يتشبث بموطىء قدميه . إنها ليلة الأقدار أو تصادم الأقدار :

ـــ لماذا تخافين علىّ ؟! لا يخاف الإنسان إلا على أحبابه !

لم تحتمل تمرحنة منظر سيدتها وقد أسبلت عينيها :

ـــ ستدفع ثمن طيشك وتجرؤك على ابنة سيد القلعة وكبيرها !

ابتسم عارف وبلغ صوته أذنى تمرحنة كقطرات السم :

ـــ إننى فداها !

تطاير الشرر من عينى تمرحنة العسليتين على وجه قطرالندى التى لم

تشعر لمسعاته :

— إذا كنت تخافين عليه حقا فلتأمريه بالذهاب حالا وعدم العودة إلى هنا بأية حجة من الحجج !

خرج صوت قطرالندى محمولا على أجنحة حنان متدفق :

— اذهب .. أرجوك !

لكن لهجتها ترجمت الكلمة الأولى فى وجدانه : « امكث » . كانت لحظة اكتسبت فيها الألفاظ من المعانى ما لم تعرفه منذ أن اكتشفها أبناء العربية واستخدموها .

هبت نسمة هواء قوية محملة ببعض رمال المقطم لكن العيون لم تتفادها . أمسكت تمرحنة بيد سيدتها فى عنف واضح :

— إننى غير مسئولة عما سيحدث إذا عاد المعلم الآن ورآه فى وقفته هذه ! لن يتركك ضميرك دون تأنيب حتى آخر لحظة فى عمرك !

— أرجوك ..اذهب !

وكأنها لم تجد سوى هاتين الكلمتين اللتين فقدتا معناهما تماما . قرر عارف أن يصل بالموقف إلى الذروة . اقترب حتى كاد أن يلتصق بالجدار :

— لو جاء المعلم الآن فسأطلب يدك منه !

تشنجت تمرحنة وتشابكت كلماتها :

— وسيطلب عمرك بدوره !

— اذهب .. أرجوك .

— لا أذهب قبل أن أسمع رأيك فى تقدمى لأبيك ! إذارفضت فهذه أول وآخر مرة ترين فيها وجهى .. وإذا وافقت .. فسأتقدم .. وليكن ما يكون .. يكفينى شرف المحاولة !

— إنك لا تعرف أبى .. إنه رجل جبار .. ولن أحتمل أن يمسك بأذى ! كنت أتمنى أن تكون شابا آخر ومن أسرة مختلفة .. لكن ساعة القدر يعمى البصر !

— إن الحب أقوى من العداء .. وسأثبت لك هذه الحقيقة ! كنت أحلم بك من مجرد الأقاويل التى سمعتها عن سحرك وجمالك .. وعندما رأيت حقيقتك وجدتها أروع من كل حلم !

— أرجوك .. فعيناى اللتان اعتادتا الظلام الطويل لايمكن أن تحتملا الضياء الباهر فى لحظة مفاجئة كهذه ! ارحمنى حتى لاأصاب بالعمى !

كانت تمرحنة تنتفض حنقا وإحباطا . فقدت كلماتها كل أثر على قطر الندى التى أصابها مس من السحر . آثرت الصمت حتى لا تزيد النار اشتعالا . كانت الشمس قد توارت تماما خلف الأفق واغتسل الكون بسمرة المغيب . لم تعد ملامح قطر الندى بالوضوح نفسه فى عينى عارف الذى شعر بألم مفاجىء فى عنقه من جراء النظر إلى أعلى طوال هذه المدة :

— روحى فداء عينيك الجميلتين .. سأذهب لأعود المرة القادمة من الباب وأقابل أباك .. فالحب ليس جريمة !!

رفع يده ملوحا فلم تملك قطر الندى سوى أن تخرج يدها الصغيرة البيضاء من فتحة المشربية وتلوح بها بدورها . سار وهو ينظر إليها من لحظة لأخرى حتى اختفى عند المنحنى تاركا إياها وسط أحلامها التى هاجمتها بموجات عنيفة ومفاجئة لم تخطر لها على بال .

سار عارف لايلوى على شىء فى طرقات القلعة التى قاومت الظلام بالمصابيح الخافتة التى علقها الأهالى على منازلهم . لم تكن لديه رغبة فى العودة إلى المنزل أو فى لقاء الأصحاب فى المقهى أو حتى فى القراءة . وجد

نفسه يقف عند حافة الجبل وخلفه غابة صغيرة مظلمة من الكافور الصامت وخزان يمد القلعة كلها بالمياه ، وأمامه أضواء المقطم الخافتة المتباعدة ، ومصابيح السيارات اللاهثة فى طرقات المنخفض بين الجبلين أو تحت قبة الهواء . نظر إلى قبة السماء فرأى القمر يوشك أن يكون بدرا وسط النجوم المتلألئة كعيون العشاق ساعة اللقيا بعد طول انتظار . لم يكن يعرف أن للفراغ صوتا ملأ أذنيه كرجع الصدى المتردد فى جنبات قبة الهواء التى أسمعته أصداء قديمة ، قدم التاريخ نفسه . وكأن هناك جوقة تردد النشيد الذى طالما هدهدته أمه به فى ليالى طفولته المبكرة :

الحنـــــة يا الحنـــــة يا قطـــــر النـــــدى
يا شبـاك حبيبى يا عينـــى جلاب الهوى

هنا منذ أكثر من ألف عام نشأت أسماء بنت الأمير خمارويه بن أحمد بن طولون التى عرفت باسم قطر الندى ، وتربت بين أرجاء قصر الإمارة الكبير الذى شيده جدها ابن طولون بكل الأبهة والغنى والروعة ، ورعتها مربيتها وماشطتها أم آسية . لم يجل بخاطر قطر الندى مايخبئه القدر لها من أمر زواجها بالخليفة العباسى إذلم تكن لهذا الزواج مقدمات توحى به ، ذلك أن روح العداء بين الخلفاء العباسيين وأبيها خمارويه كانت تغلب على العلاقات بينهما . لكن خمارويه لم تسكره انتصاراته المتوالية على جيوش الخلافة العباسية فى المناوشات والحروب التى نشبت بينهما ، ولذلك هفت نفسه إلى الصلح مع الخلافة التى لم تكن أقل حماسا منه على عقد الصلح . فأعلن الخليفة العباسى المعتمد موافقته على الصلح فى كتاب إلى خمارويه ضمنه اعترافه بأحقية خماروية وولده من بعده فى حكم مصر لمدة ثلاثين عاما . وقد رد خمارويه باعتراف مماثل للخلافة بالسيادة وأصبح اسم الخليفة العباسى يذكر قبل اسمه

فى الدعاء لهما على منابر مصر . لكن الخليفة توفى وبويع بعده بالخلافة ابنه أبو العباس المعتضد ، فسعى خمارويه إلى الحفاظ على العلاقات الطيبة مع الخليفة الجديد فأرسل إليه رسوله ابن الجصاص محملا بالكثير من الهدايا الفاخرة التى تعكس ثراء مصر ، وبرسالة يطلب فيها تجديد العهد له ولولده من بعده بحكم مصر ، ويعرض زواج ابنته قطر الندى من ابن الخليفة . ولاقت رسالة خمارويه ترحيبا من الخليفة فأقره على حكم مصر وقبل المصاهرة على أن تكون قطر الندى زوجة للخليفة نفسه .

تذكر عارف هذه الأحداث التاريخية وكأنه يرى أضواءها فى صفحة الظلام المحيط به . تذكر كيف أراد خمارويه توطيد علاقته بالخلافة ببغداد كى يكون فى مأمن من العزل والتهديد ، وينفرد البيت الطولونى بميزة الارتباط بالخلافة برباط قوى لا يتوفر لأى من الولايات الإسلامية الأخرى . كذلك كان الخليفة حريصا على إتمام الزواج الذى سيوفر له الأمان من جانب الدولة الطولونية القوية ويحقق له فى الوقت نفسه اعترافها بالتبعية له ، والحصول على مزيد من أموال مصر وهداياها . أى أن الهدف الأساسى من هذه المصاهرة كان سياسيا قبل أن يكون مجرد رباط أسرى بين بيتين عظيمين .

توقف عارف فى وقفته عند تساؤل تراقصت علامته فى الظلام أمامه : هل كان موقفه من قطر الندى هذا المساء موقفا سياسيا بهدف محاولة الوصول إلى أعماق العرين لكشف أسراره وهالاته ؟! أم أن العاطفة الجياشة الصادقة الصافية كانت وراء كل كلمة نطق بها لسانه وخلف كل نبضة اجتاحت قلبه ؟! وهل يمكن أن يكون الحب من أول نظرة كما يقولون ؟! وماذا سيكون موقف قطر الندى لو أدركت هدفه الآخر من زواجها ؟!

طرد علامات الاستفهام المتراقصة فى الظلام . فلا يصح له أن يسبق

الأحداث . إنه يفكر الآن كما لو كان أبوها قد وافق على زواجه منها برغم ضعف هذا الاحتمال الذى يصل إلى حد العدم . ومع ذلك تساءل : هل يمكن أن يكرر التاريخ نفسه ؟! ابتسم ساخرا من شطحاته ! إن العلاقة بين قطر الندى ابنة خمارويه وقطر الندى ابنة الكبش مثل العلاقة بين جبل يشكر وصديقه يشكر ! إن تشابه الأسماء أو الظروف لا يعنى أبدا أن التاريخ يكرر نفسه ! كما أن العداء بين أسرة الكبش وأسرة النباش أخطر وأعمق من العداء بين الخلافة العباسية فى بغداد والدولة الطولونية فى مصر ! وإذا كان التاريخ قد سجل إمكان زواج قطر الندى من الخليفة العباسى المعتضد وحدوثه بالفعل ، فإن زواج ابنة الكبش من ابن النباش من رابع المستحيلات !

ومع ذلك لم يطرد عارف الأحاسيس المثيرة الممتعة التى لا تزال تعتمل داخله بمنتهى القوة الفوارة منذ اللقاء الحالم ! إن الفتاة تختلف عن أبيها إلى درجة التناقض الحاد . لابد أن أمها كانت هكذا ولذلك لم تحتمل الحياة طويلا مع هذا الوحش . رقيقة ، ساحرة ، متدفقة العاطفة ، صافية القلب ، تملك من الحاسة السادسة ما يجعلها تفهم من تقابله لأول مرة ومن أول لحظة . فسرعان ما امتد بينهما خط من الحديث الجياش ، والإحساس المشترك كما لو كانا يعرفان بعضهما البعض منذ سنى الطفولة . إن التقدم لطلب يدها يكاد يكون أمرا مستحيلا ، ومع ذلك فقد تقبله كل منهما كما لو كان أمرا محتما . بل إنه منذ تلك اللحظة العجيبة لم تمر به لحظة شك واحدة فى أنه سيتقدم وليكن ما يكون ! فإذا كان القدر مغرما بمداعبة الإنسان أحيانا والبطش به أحيانا أخرى ، فمن حق الإنسان أن يداعب القدر ولو مرة واحدة فى حياته ، فربما كان رفيقا به أو صديقا له !

توغلت تأملات عارف فى أغوار الظلام المحيط بقبة الهواء فرأى الأمير خزرج بن أحمد بن طولون عم قطر الندى يخرج على رأس موكب كبير ضم عددا من الأمراء والقواد والأغنياء والخاصة متوجها إلى بغداد . وكان خمارويه قد أمر بإعداد جهاز عرس أسطورى تحت إشراف ابن الجصاص الخبير بالحلى والجواهر ومظاهر الأبهة المبهرة ، والذى أطلق يده فى خزانته دون حساب حتى اضطر أبو صالح الطويل القائم على أمرها إلى إبداء مخاوفه لخمارويه من خطورة التمادى فى ذلك ، لكن خمارويه رفض الاستماع إليه .

تذكر عارف فى قراءاته الواسعة فى التاريخ بعض ما كان يضمه الجهاز من قطع الأثاث المزينة بحليات ذهبية متشابكة تتدلى من فتحات تشبيكها حبات من الجوهر والأحجار النفيسة ، ومن الأوانى مائة هاون ذهبية لدق العود والطيب ، ومن الثياب الموشاة أفخر ماأنتجته دمياط من حرير ، وتانيس من دبيق . أما قصور الراحة التى أمر خمارويه بإنشائها على طول الطريق بين القطائع بمصر وبغداد بالعراق فقد جهزت بالأثاث الفخم المذهب ، على أن يكون كل من هذه القصور قطعة من قصر الإمارة الذى عاشت فيه قطر الندى حتى لاتحس فى سفرها بغربة المكان أو وحشة السفرأو طول المسافة .

ما أعجب الأمكنة التى يظنها الناس جمادات صماء فى حين أنها على استعداد لبث أسرارها لكل من يعشقها ! فهى تتنفس التاريخ فى شهيقها وزفيرها وتردد أصداء أبطاله لعاشقها لدرجة قد يراهم مرأى العين كما يقوم عارف الآن باستعراضهم . هاهو موكب العروس يخرج من قصر الإمارة الذى يطل على نفس المنظر الذى يشاهده عارف الآن ، وذلك فى طريقه إلى قصر الخلافة ببغداد . هاهى قطر الندى تجلس فى هودجها الفخم ومعها

ماشطتها أم آسية ، محاطة بالموكب الأسطورى الذى حمل وصيفاتها ، وعدد كبير من الأمراء والقواد يتقدمهم جميعا عمها خزرج بن أحمد بن طولون وعمتها العباسة وابن الجصاص المشرف على إعداد الجهاز . الموكب يسير يحف به الغلمان بثيابهم الملونة ويقف على جانبى طريق الموكب الحرس من جيش خمارويه فى حين تصدح الموسيقى بأنغام شجية ويعلو الغناء بزفاف قطر الندى عروس الخليفة :

الحنــــة يا الحنــــة   يا قطــــر النـــــدى
يا شبـاك حبيبـى يا عينـــى   جلاب   الهوى

على البعد رأى عارف الموكب وهو يصل إلى بغداد التى لبست أثوابها القشيبة لاستقبال عروس الخليفة ، وأقيمت الأفراح عبر نهر دجلة الذى تألقت ضفافه بأنوار وألوان لم تشهدها من قبل . كانت ليالى بغداد كالأحلام الحلوة وأيامها كالأوهام العذبة حتى تم زفاف قطر الندى إلى الخليفة العباسى المعتضد . لكن كان لابد للأحـلام والأوهام أن تنقشع وتتبخر عندما أفلست خزانة خمارويه نتيجة للصرف على جهاز ابنته ، ثم كان مقتله بالشام فى نفس عام زواجها ، ثم انهيار الدولة الطولونية . فعاشت قطر الندى حزينة تبكيه حتى عاجلها أجلها بعده بقليل فلحقت به وهى فى ريعان شبابها فدفنت بالرصافة فى العراق وحزن عليها زوجها المعتضد الذى لم يعمر طويلا بعدها .

أفلتت من عارف ضحكة مكتومة فى هذا الفراغ المظلم . فليس هناك أى تشابه بين الكبش وخمارويه فى علاقة كل منهما بابنته ، ومع ذلك فسوف يقوم عارف بمغامرة لم تكن تخطر على بال الخليفة المعتضد الذى جاءته قطر الندى على طبق من ذهب ! أما هو فسيقدم على خطوة تاريخية بكل المقاييس وإن كان التاريخ الآن قد أصبح مشغولا بلعبة الأمم التى تمارسها

القوتان العظميان فى كل بقعة من بقاع الأرض حتى تقوم الدول الصغيرة — نيابة عنهما — بطحن شعوبها . ومع ذلك فقد قرر عارف أن يعيد صياغة تاريخ القلعة .

تحرك عارف محاطا بأصداء الماضى التى امتزجت بطلائع المستقبل عند نقطة فى الحاضر تجسدت فيه حتى كادت أن تنفجر داخله . نظر إلى الطريق الملتوى المتعرج أمامه وقد آمن أن التاريخ لا يسجل إلا إنجازات صانعيه ، أما الذين ينتظرون حتى يصنعهم فلا مكان لهم على صفحاته الحجرية أو الورقية على حد السواء .

استرخت قطر الندى فى فراشها الوثير الذى يشبه الهودج فى حين جلست إلى جوارها تمر حنة تتمنى أن يتسلل النعاس إلى جفونها حتى تتركها لأحلامها وأوهامها . كان النوم خير ملجأ لها من الملل واليأس والضيق فأدمنته ، لكن فى تلك الليلة تألقت عيناها بوميض لم يخف على تمر حنة التى أضمرت أمرا لمع فى عينيها هى الأخرى لكن قطر الندى لم تلحظه . كانت مشغولة بالإمساك بتلابيب اللحظات الساحرة حتى لا تطويها الدقائق والساعات والأيام . كانت الثريا النحاسية المطعمة بالزجاج الملون فى منتصف السقف مطفأة ومع ذلك بدت منيرة متلألئة . كذلك دبت الحمرة فى وجنتى قطر الندى ، حمرة تجلت فى ضوء المصباح الجانبى الخافت الملون والمحاط بشبكة نحاسية مطرزة . تقلبت قطر الندى فى ثوبها الأبيض الطويل الشفاف . احتضنت الوسادة الحريرية اللامعة وغطتها بشعرها.تنهدت قائلة لتمر حنة دون أن تنظر إليها :

ــ غنِّ لى أغنية قطر الندى !

اشاحت تمر حنة بوجهها بعيدا :

ــ لاأعلم ماذا يمكن أن يحدث لو علم المعلم بما جرى الليلة ؟

استدارت دون أن تترك وسادتها :

ــ عندما يفقد الإنسان حريته فإن حياته نفسها تهون عليه !

دقت تمر حنة بكفها على صدرها الناهد الشامخ :

ــ تتلفظين الآن بكلمات لم أسمعها منك من قبل ؟!

ـــ كانت لحظات تفتحت فيها عيناى بعد طول عمى .. وانحلت فيها عقدة لسانى بعد أن ظننت أن الخرس أصبح مصيرى !

ـــ وحتى لو واتته الجرأة والطيش على التقدم لطلب يدك .. هل تظنين أن أباك سيوافق على زواجك من ابن أعداء العمر ؟!

ـــ هذه الاعتبارات ليست فى ذهنى على الإطلاق .. تكفينى هذه اللحظات الساحرة التى أتت على غير انتظار لتصبح ذخيرة وحدتى وسجنى !

صمتت تمر حنة على مضض ووجدت أن الحوار لن يزيد إلا من يقظتها فى حين أعلنت الساعة الذهبية على الصوان المقابل منتصف الليل ، وهى التى اعتادت النوم بحلول العاشرة . علا حفيف السكون إلا من دقات الساعة . لأول مرة شعرت قطر الندى بحاجة ملحة كى تخلو إلى نفسها فأغمضت عينيها متظاهرة بالنوم . ظلت تمر حنة ترقبها دون أن تحدث حركة أو صوتا ، ثم شدت عليها الغطاء ، ونهضت لتسير على أطراف أصابعها وجسمها السمهرى يتماوج تحت ثوبها الأخضر الطويل اللامع ، وبريق عينيها يومض تحت منديل رأسها المزركش بالزهور الحريرية الملونة ، والعاجز عن كبح جماح ضفيرتيها الطويلتين الغليظتين العسليتين . أطفأت المصباح النحاسى وتركت مصباحا صغيرا على شكل شمعة لم يكشف سوى خطوط الأشياء . كانت صورة عارف وحركاته وكلماته تنير وجدان قطر الندى ، وتمر حنة تتسلل خارج الغرفة .

سارت عبر ممر مضاء بمصابيح على هيئة قناديل وهى تتلفت يمنة ويسرة إلى أن بلغت غرفة فتح نصف بابها . دخلتها حيث كان الشمطلى يجلس فى عباءة بنفسجية فضفاضة يدخن النارجيلة فى عصبية تجلت فى

اهتزازة ساقه التى مدها على أريكة شرقية مقابلة لمقعده الوثير . قبل أن تجلس على الأريكة ملتصقة بساقه سألها وهو يتفحص موجات جسدها تحت ردائها ، عبر سحابات الدخان المتصاعدة من فمه وأنفه ، والمثيرة بعطرها أحاسيس النشوة والتجلى :

ـــ لماذا تأخرت الليلة ؟!

أجابت بابتسامة هامسة تقطر إغراء ونداء :

ـــ لم تنم سوى الآن !

ـــ ولماذا هذه الليلة بالذات ؟! هل كانت قلقة على اختفاء أبيها ؟!

أمسكت تمرحنة بساقه لتدلكها فى حنان ، فوضع مبسم النارجيلة على طبقها النحاسى ثم جذبها حتى أجلسها على ساقيه . تجولت يمناه فى صدرها لكنها سألته هامسة :

ـــ هل أغلق الباب ؟! لن يعود المعلم قبل غد على أقل تقدير !!

ـــ الباب المفتوح يمكننا من سماع دبيب النملة خارجه !

أطبق على شفتيها بفمه لكنها تخلصت منه :

ـــ لم تسمع إجابتى بعد عن سؤالك !

تساءل كالحالم الواقع تحت تأثير مخدر :

ـــ أى سؤال ؟

ـــ عن تأخر قطر الندى فى النوم وقلقها على أبيها ؟!

ـــ شىء طبيعى للغاية أن تقلق الابنة على أبيها !

ـــ لم يكن الأمر هكذا على الإطلاق !

حاول الشمطلى التحكم فى حركة لسانه ومفاصله :

ـــ أرى فى عينيك شيئا غامضا !

ــ شيء لا يمكن أن يخطر على بالك !

انداحت دغدغة المخدر من تلافيف مخه ، وانحسرت الرغبة فى عروقه :

ــ لا تضيعى الليلة فى الفوازير !

ــ هذا المساء .. جاء عارف النباش وتبادل حديثا مذهلا مع قطر الندى أثناء جلوسها عند المشربية !

انتفض الشمطلى لدرجة جعلت تمرحنة تقفز إلى جلستها على الأريكة التى تراجعت عنها ساقه :

ــ غير معقول .. يتحدانا فى الصباح علانية أمام الشباب فى المقهى وفى المساء يأتى ليتبادل الحديث مع قطر الندى ؟!!

أمسك ذراعها بقبضة من حديد آلمتها :

ــ ماذا قال لها ؟! وكيف سمحت له بمثل هذا الحديث ؟!

تخلصت من أصابعه التى حبست الدماء فى عروق ذراعها :

ــ حاولت قدر إمكانى .. لكننى فى النهاية مجرد جارية !

خرجت كلماته كطلقات مسدس مكتوم الصوت :

ــ ماذا دار بينهما ؟!

تظاهرت باللامبالاة برغم عينيها المشحونتين بحب الاستطلاع والتشفى :

ــ أبداً .. قال لها إنه سيتقدم لطلب يدها !

ــ بهذه البساطة ؟!

ــ الأخطر من هذا .. أن الفرحة كادت أن تقتلها !!

ــ لا يهم ماجرى لها .. وإنما المهم ما سوف يجرى له !! إنه يسعى لحتفه بظلفه !

ـــ هذا لو كان صادقا فيما قال ؟!

استرخى قليلا فى جلسته وإن ظلت عيناه تقدحان شرراً :

ـــ سواء أكان صادقا أم كاذبا . فقد منحنى سلاحا لأقضى به عليه ؟! لن يجد المعلم بعد ذلك وسيلة يتعامل بها معه سوى العنف ! . . . . .. فلا يمكن أن يصل به التهور إلى هذا الحد دون إيقافه وبأسرع ما يمكن !

ابتسمت تمر حنة فى دهاء يقطر إغراءً :

ـــ ألا أستحق مكافأة على هذه المعلومات ؟!

ـــ تعلمين جيدا أننى لم أتأخر عن مكافأتك عن أى خبر قمت بنقله !

تأكدت من بلوغه قمة التوتر والانشغال :

ـــ هل ستضيع الليلة فى الحديث عن هذا المعتوه ؟!

عادت إلى ابتسامتها الوحشية الجائعة وهى تمسك بركبته ، لكنه أشاح بوجهه بعيدا :

ـــ لابد أن نتخلص من هذا الصداع أولا .. حتى يصفو المزاج !

كانت تمر حنة على وشك الاستمرار فى مداعباتها لولا أنهما سمعا صوت محرك سيارة تقف ، ثم باب الجراج وهو يفتح لتدخل فيه ، ثم يغلق ثانية ليسود صمت قاتل جعل الشمطلى يهمس :

ـــ إنه المعلم ! اذهبى فورا إلى غرفتك !

ـــ عجبا ! لماذا جاء مبكرا هكذا ؟!

ـــ لا تضيعى وقتا !

انتفضت تمر حنة واقفة ثم انطلقت بجسدها السمهرى المتماوج تحت ثوبها الأخضر الطويل اللامع حتى اختفت . تحسس الشمطلى رأسه فتذكر أنه وضع العمامة على مقعد مجاور . وضعها على رأسه دون أن يراعى هندامها

وأسرع خارجا عبر الممر ، وهابطا إلى القاعة الأرضية ذات الفسقية الرخامية ، والثريات النحاسية التى لم يتبق منها سوى أنوارها الزرقاء . دار حول الفسقية كما لو كان فى نوبة حراسة فى حين فتح الباب فى هدوء ودخل الكبش بقامته الفارعة وعباءته المهيبة سائلا الشمطلى :

ـــ أين الرجال ؟! لا أحد يجلس بالخارج !

تلعثم قليلا لكنه استعاد رباط جأشه :

ـــ أرسلتهم للتفتيش على حراسة المطحن والمغلق والمسبك .. فى حين باشرت أنا نوبة الحراسة الليلية هنا !

صعد الكبش على درجات السلم الخشبى القديم فأنت تحت قدميه الكبيرتين فى حذائه الأسود اللامع ، وتحت دقات عصاه المنتظمة ، حتى بلغ غرفته وعطر مخدر مثير يفوح من عباءته . جلس وأمامه الشمطلى الذى ركز عينيه على السقف المنقوش بزخارف دقيقة ، أغصان متشابكة ، مطلية بالذهب ، مطعمة بالصدف حول نجوم تناثرت بعيدا فى سماء مظلمة . تساءل :

ـــ جئت يا معلم مبكرا .. فى حين أن رجالنا أذاعوا أنك ستبقى يومين أو ثلاثة ؟!

مسح الكبش خاتم الياقوت الأحمر بكم عباءته فسطع برغم الضوء الخافت الذى ساد الغرفة :

ـــ المرة الأولى والأخيرة .. يا شمطلى .. ليكن فى علمك أنه لم ولن يوجد من يحاول فرض وصايته علىّ .. فأنا فقط الذى أحدد مكان وزمان تحركاتى الخفية والظاهرة !

اهتز الشمطلى عندما امتزج وميض عينى المعلم بوميض خاتمه الياقوتى

الأحمر فتلعثم :

ــ إننا لا ننفذ سوى تعليماتك يا معلم ! كل هدفى ألا يتعارض ما نقوله مع ما تفعله ! فعدد المتربصين بنا فى تزايد مستمر نتيجة للإثارة المستمرة التى يفتعلها عارف النباش !

خلع الكبش عمامته ووضعها على ركبته إلى جوار عصاه التى استرخت بين ساقيه :

ــ ماذا فعل اليوم فى المقهى ؟!

ــ إنه مستمر فى تحديه العلنى لنا .. لكن الأخطر من هذا أنه جن حتى أنه جاء مغرب اليوم كى يقف تحت مشربية الست قطر الندى ويقول لها إنه سيتقدم اليك لطلب يدها !

ظن الشمطلى أنه ألقى بقنبلة شديدة الانفجار ، فقد اتسعت حدقتا المعلم بلمعان غريب غامض عميق ثم تساءل :

ــ ولماذا لم تبلغك تمر حنة حتى تعلمه الأدب ؟!

ــ عندما جاءت لتبلغنى أسرعت كصخرة على منحدر جبلى .. لكن الجبان كان قد لاذ بالفرار !

أمسك المعلم بعصاه ودق بها السجادة الوثيرة فى صوت مكتوم :

ــ لو كان الرجال هنا لما جرؤ على الاقتراب من القصر !

قالها بلهجة لم تثر الخوف فى قلب الشمطلى على عكس ما توقع . نهض المعلم وخلع عباءته . استرخى بجلبابه الحريرى اللامع الأبيض على مقعده . أسرع الشمطلى فعلق العباءة والعمامة والعصا على مشجب ركنى منقوش بالصدف والفيروز . عاد إلى الجلوس مذهولا لعدم ذهول المعلم الذى بدا على وجهه التفكير العميق محاولا تبين ملامح شىء لم يتضح بعد . سأل نفسه

فيما يشبه الهمس :
ــ وهل يعقل أن يدخل العرين بقدميه ؟!
سمح الشمطلى لنفسه بالإجابة على سؤال لم يوجه إليه :
ــ كل شباب القلعة يتمنى الست قطر الندى .. فليست هناك من هى فى جمالها وثرائها وجاهها !
ــ أخشى أن تكون له أهداف أخرى .. فهو شاب غير عادى !
ــ لا أعتقد أن الطيش سيؤدى به إلى هذه الخطوة !!
ــ إن من يتجرأ على مخاطبة ابنتى بهذا الشكل .. يمكنه الإقدام على مثل هذه الخطوة المجنونة !
أمسك الشمطلى بصفاء ذهنه حتى لا يتشتت :
ــ وماذا يمكن أن يحدث لو فعلها ؟!
ــ ستضطرنى فعلته هذه إلى إعادة كل حساباتى !
لم يسترح الشمطلى لروح العنف الذى يبدو أنه تخلى نهائيا عن المعلم فى سنى كهولته :
ــ لا بد من تلقينه درس العمر حتى يكون عبرة لغيره من الشباب !
تثاءب المعلم مربتا على فمه المفتوح بكفه ذات الخاتم الياقوتى :
ــ سألقنه درس العمر فعلا .. ولكن بطريقتى أنا ! سأحيل مبادرته الجريئة إلى وهم كبير يعيش فيه عمره كله !
نضح اليأس على نبرات الشمطلى برغم تظاهره باللامبالاة :
ــ كنت أظن أنه لن يعيش !
ــ الحياة فى وهم كبير لا تختلف كثيرا عن الموت ؟!
استعاد الشمطلى دهاءه :

— لكنه سيرث كل شىء !

— ومن قال لك إننى قبلته زوجا لا بنتى ؟!

كانت نظرات الشمطلى زاخرة بالتعبد والتقديس :

— إننى أخاف عليك يا معلم وعلى الست الصغيرة مثل عينى !

لم يتجاوب الكبش مع عاطفته المتدفقة :

— لا تظن أن عارف النباش أو غير عارف النباش يستطيع خداعى أو التأثير على ما يدور فى رأسى .. فلن ينتزع مخلوق من يدى زمام المبادرة !! أما فيما يتصل بموضوع قطر الندى على وجه الخصوص .. فأريدك أن تحتفظ بنصائحك لنفسك !

لم يتوقع الشمطلى أن يهاجمه الكبش بهذا العنف المفاجىء :

— آسف يا معلم .. فأنا أتكلم بحسن نية وبدافع من حبى وإخلاصى :

أشاح المعلم بوجهه بعيدا فى حين لم يطرف للشمطلى جفن :

— لا أحب الثرثرة وخاصة فى هذه الساعة المتأخرة من الليل . . . .. أريد منك أن تنبه على الرجال ألا يتركوا الحراسة ليلا مرة أخرى !

نادراً ما أنهى المعلم مقابلاته بهذا الشكل ، لكن الشمطلى نهض فى خنوع شديد وقد أحنى رأسه فى صوت خفيض :

— تحت أمرك .. أية أوامر أخرى !!

— سآوى إلى فراشى الآن !

— تصبح على خير !

قالها الشمطلى منسحباً بظهره حتى باب الغرفة ثم استدار خارجاً . تمطى الكبش فى مقعده الوثير . عندما بلغ البيت كان النعاس يلاطفه ، لكنه بعد استماعه إلى ما جرى بلغ قمة يقظته برغم الإجهاد السارى فى جسمه .

نهض وفتح نافذته المصمصة على طراز المشربية فوجد قبة السماء وقد ضمت تحت جناحيها نجوماً متقاربة ومتباعدة . أما القمر فقد داعب القمم البارزة من المقطم ودار حول قباب قلعة الجبل ومآذنها .. ابتسم الكبش مستمعاً إلى صوت رن فى أعماقه :

ـــ هذا الشبل من ذاك الأسد .. لكن الشبل يمكن ترويضه !

لم يعد للقلعة حديث سوى الثرثرة حول ما قيل عن عارف النباش ونيته فى التقدم لطلب يد قطر الندى . فقد انقسم الأهالى بين مصدق ومكذب ، بين مؤيد ورافض ، بين جاد وساخر . كان العجائز وكبار العاملين فى مصانع الكبش وشركاته أكثر أهالى القلعة تصديقاً وتأييداً لهذه الخطوة التى تمنوا جميعاً أن تتم على خير إذا كان مكتوباً لها أن تتم . فقد توقع بعضهم أن يتقاعس عارف عن اتخاذها فى آخر لحظة ، فهى خطوة ليست سهلة بأية حال من الأحوال . لكنهم آمنوا فى النهاية بأن الصلح خير ، وليس هناك شىء أفضل من السلام الذى سيضع حداً للشقاق الذى أحال القلعة إلى بركان على وشك الانفجار فى أية لحظة . ولذلك أخذوا الأمر بمنتهى الجدية ، بل وحاولوا اكتساب المترددين إلى جانبهم ، ليقفوا جميعاً خلف عارف فى خطوته الجريئة المحتملة .

أما الشباب المؤمن إيماناً لا يتزعزع بعارف فقد رفض تصديق ما يقال ، بل واعتبره مجرد شائعات مغرضة هدفها تشويه الهالة الثورية لعارف . وقرر سؤاله فى ندوة الجمعة القادمة وضعاً للنقط على الحروف ، فى حين أن الشباب الذى كانت الغيرة تلسعه كلما رأى عارفاً محاطاً بقلوب شباب القلعة ، أعلن رفضه لهذه الخطوة واتهمه الانهزامية وشحن الشباب بأفكار ثورية تقدمية فى حين ينطق سلوكه العملى بآيات الرجعية الاستغلالية . وامتزج الرفض بالسخرية فقالوا إن قلعة الثائر الصامد انهارت أمام أول سهام انطلقت من عينى قطر الندى . لكن قليلين جداً من الشباب تأكدوا من أن

عارفاً قرر الإقدام على خطوة مذهلة لغزو البيت الحصين ، وأن قطر الندى ليست غايته بل هى مجرد وسيلة للغاية الكبرى المتمثلة فى المعلم الكبش ، حتى ينزع عنه الهالة الغامضة المرعبة لكل الأهالى . لكنهم لم يصرحوا برأيهم هذا لأحد ، فقد كان مد الأمواج المتلاطمة أقوى منهم بكثير ، ومع ذلك توقعوا أياماً مثيرة قادمة . وهو التوقع الذى سيطر على كل الاتجاهات : المصدقة والمكذبة ، المؤيدة والرافضة ، الجادة والساخرة على حد السواء .

أما يشكر ومصطفى فلم يصدقا شيئا ، ولم يستطيعا الانتظار حتى ندوة الجمعة . ذلك أنه يجب حسم هذه الشائعات وتكذيبها بأسرع ما يمكن قبل أن يستفحل الأمر . وكان أغلب ظنهما أن هذه الشائعات التى تفجرت فجأة وبسرعة البرق ، لا يمكن أن يكون مصدرها سوى بيت الكبش نفسه خاصة بعد المواجهة الحاسمة التى تمت فى ندوة الجمعة الماضية ، إذ يبدو أن الكبش قرر أن يحارب عارفا فى عقر داره وأن يسحب من تحت قدميه الشعبية التى يتمتع بها بين الأهالى عامة والشباب خاصة . صحيح أنه قال لهما يوم الجمعة الماضية وهم فى طريقهم إلى مسجد سنجر الجاولى إنه لا بد من الوصول إلى أعماق قصره وكشف لعبة السرداب والخزانة ، وأن أى عمل كبير فى حياة الإنسان يبدو مستحيلا لأول وهلة ، لكن مع التخطيط والدراسة الواعية يبدو ممكنا . ومع ذلك فلا بد أن يكون عارف قد اقتنع برأى يشكر الذى يفرق بين الجرأة والتهور ، برغم أن الجميع يتهمونه بأنه أكثر تهورا من عارف . لذلك لم يأخذ يشكر ومصطفى كلامه على محمل الجد حتى لطمت الشائعات آذانهما فهرعا إلى بيته لمواجهة الموقف الجديد .

هبطا على درجات سلم الكبش الحجرية العريضة المتآكلة بخطوات قلقة مترددة دون أن يتبادلا كلمة واحدة . كانت شمس العصر لا تزال تغمر أزقة

القلعة برغم ظلال البيوت التى امتدت فى محاولة لتلطيف الجو . أخرج يشكر منديله الأبيض من جيبه ليمسح ومضات العرق حول عينيه الخضراوين الواسعتين ، وعلى مؤخرة الرأس التى زحف عليها الصلع ، فى حين أعاد مصطفى تثبيت نظارته السميكة الداكنة على أعلى أنفه .

دخلا البيت العريق صاعدين على درجات السلم الرطب المعتم ، وأمام الباب تحسس يشكر زر الجرس ليضغط عليه وسرعان ما يفتح و ظهر خلفه بثينة الأخت الكبرى لعارف فى ردائها البنى الوقور ، مرحبة بهما فى ابتسامة ذكرت يشكر بإشراقة وجه أبيها :

ـــ جئتما فى وقت مناسب .. فقد أصيب عارف بمس من الجنون !

تساءل يشكر بعفوية بالغة وهو يسبق مصطفى إلى الدخول :

ـــ إذن .. ما سمعناه لم يكن مجرد شائعات ؟!

أغلقت بثينة الباب خلفهما فى هدوء :

ـــ اتصل تليفونيا بالكبش طالبا تحديد ميعاد للقاء فوعده بالرد عليه بعد دراسة وتحديد الوقت المناسب لهذا اللقاء !

لطم يشكر كفا بكف دون وعى منه :

ـــ لقد فعلها .. إنها مصيبة فعلا !!

سبقتهما بثينة بجسمها البدين إلى غرفة المكتبة حيث اجتمعت العائلة بكامل هيئتها باستثناء أولاد بثينة الخمسة الذين سمع دبيب أقدامهم الثقيل وهم يجرون فى الشقة العليا فى صخب اخترق آذان الجالسين فى قلق وتوتر بالغين . كان عبد العليم زوج بثينة يجلس فى مقعد عارف خلف المكتب ، فى حين جلس عارف أمام المكتب فى مواجهة أمه التى أطرقت برأسها فى طرحتها البيضاء ووجهها الشاحب وعينيها الزائغتين .

ألقى يشكر ومصطفى بالتحية ثم قاما بالسلام بالأيدى وجلسا فى مواجهة المكتب ، فى حين جلست بثينة بالقرب من زوجها . تبادل يشكر ومصطفى مع عارف نظرات صامتة قد تكون زاخرة بالمعانى أو خالية منها تماما ، لكن الصمت المشحون المتفجر لم يقطعه سوى عبد العليم الذى تكلم بهدوء كما لو كان يوضح نقطة غمضت على تلاميذه أو تلميذاته فى الفصل :

ــ سوف نحكم يشكر ومصطفى فى الموضوع .. ونحن راضون بالحكم الذى يمكن أن يصلا إليه !

نقر عارف بأصابعه المشدودة على زجاج المكتب :

ــ التحكيم ممكن فى خطوة يمكن الرجوع فيها .. هل تظنون أننى من الجبن بحيث أتراجع إذا قرر الكبش لقائى ؟!

طرد مصطفى حشرجة فى حلقه حاولت إعاقة كلماته الرزينة :

ــ ومن قال إن اللقاء سيتم ؟! لو كان الكبش جادا لحدده فى التو واللحظة.. وفى اعتقادى أنه لا يمكن أن يسمح لغريب بدخول القصر .. خاصة إذا كان عارف هو الغريب ..

تضرعت الأم ناظرة إلى السقف :

ــ من فمك لباب السماء يا مصطفى .. لا أحتمل فقده بعد أبيه !

دقت بثينة على صدرها مع شهقة خفيفة :

ــ بعد الشر يا ماما !! لا تكونى بهذا التشاؤم !! فالموضوع لم يخرج عن نطاق الكلام والثرثرة !

أعجب عبد العليم بحكمة زوجته :

ــ إن الشائعات التى تملأ القلعة خير ضمان لسلامة عارف .. . . .

.. فالكبش لن يستطيع أن يمسه بعد أن دخل معه تحت دائرة ضوء واحدة !
هز يشكر ساقه اليمنى فى عصبية فوق اليسرى :
ــ ولنفرض أن الكبش وافق على زواجك من ابنته .. هل يمكن أن يتم الموضوع بالبساطة التى تتصورها وكأن الماضى لم يكن ؟!.. الماضى الملىء بالصراع إلى درجة جرائم القتل الغامضة !
التفت عارف بحدة صوب يشكر فبدا احمرار خفيف فى حدقتيه :
ــ إننى أعرف أبعاد ما أقدمت عليه تماما !!
أراد مصطفى أن يخفف من حدة تصميمه :
ــ وهل تعتقد أن هذا الموضوع سيمر بسلام فى ندوة الجمعة القادمة ؟! فالشباب ليس له حديث غيره ؟!
صفعه عارف بإجابته غير المتوقعة :
ــ سأتوقف عن حضور الندوة فى الوقت الحالى !
لم يصدق يشكر أذنيه فالتصاعد مستمر :
ــ بماذا نفسر غيابك لرواد المقهى ؟! هل نقول لهم إن العريس ذهب لقضاء شهر العسل فى قصر السلطان ؟!
لم يعبأ عارف بسخرية يشكر :
ــ وما الذى فعله شباب القلعة نتيجة لندوتنا التى استمرت أكثر من عامين الآن ؟ إنهم ينصتون إلينا فى شوق بالغ ويؤيدون أفكارنا بحماس منقطع النظير .. وبمجرد أن تنفض الندوة يعود كل منهم إلى سيرته الأولى .. للأسف .. لسنا فى حاجة إلى إرشاد وتوعية .. فالكل يعرف ويفرق بين الأصيل والمزيف .. بين الشريف والملوث .. لكن كل شىء يتوقف عند حدود المعرفة والثرثرة والجدل حوله !! نحن الآن فى حاجة إلى عمل

حاسم .. إلى موقف فاصل .. إلى قدوة حسنة ! كفانا ثرثرة عقيمة !

لم يكتم يشكر ضحكة ساخرة بدأ بها كلماته :

ــ يا لها من قدوة حسنة عندما تتزوج من ابنة الرجل الذى اتهم من الجميع بقتل أبيك !!

حاول مصطفى تلطيف الجو :

ــ يشكر يخاف عليك من الكلام الذى سيتقول به الناس عليك !

ــ لو التفت إلى ما سيقوله الآخرون فلن أفعل شيئا !

ألقى يشكر بآخر ما فى جعبته :

ــ سيقولون إنك خائن لقضيتهم !

لم يهتز عارف للأهانة المباشرة :

ــ لقد شبعنا من استخدام هذه الألفاظ الضخمة .. وآن الأوان للبحث عن صناعة لنا غير الكلام .. بعد أن فقدت كل الألفاظ معانيها !!

وضع عبد العليم رأسه بين كفيه فوق المكتب :

ــ إننى ألتمس العذر لعارف .. فجمال قطر الندى لا يقاوم وأخلاقها لا تمت لأبيها بصلة .. رقة ودماثة وأدب .. كانت التلميذة المفضلة عندى على مدى ثلاث سنوات .. ولو سمح لها بمواصلة تعليمها لكانت الآن فى طليعة المتفوقات المتقدمات للالتحاق بالجامعة !

خرجت الأم عن صمتها الكئيب :

ــ حتى أنت يا عبد العليم تشجعه على هذا الجنون ؟!

استرخى عبد العليم فى مقعده بجلبابه الأبيض :

ــ كنت تخافين عليه من تحدياته للكبش .. والآن تخافين عليه من صداقته له .. بل ومن نسبه المحتمل له !!

ـــ عارف طفل نقى طائش .. يمكن أن يندفع إلى النار برجليه .. والكبش داهية لا قبل لنا به !

لم يرفع عارف عينيه عن السجادة تحت قدميه وإن كان حانقا :

ـــ سأظل طول عمرى طفلا فى نظرك !

ابتسمت بثينة لعل الحوار يغير اتجاه دفته :

ـــ إذا تزوج عارف من قطر الندى .. فسوف يصبح مثل ابنه تماما .. أى أن كل مخاوفك ستصبح لا معنى لها !

تنهدت الأم وكأنها تنتزع نفسها من هوة سحيقة :

ـــ ابعد عن الشر وغن له !

استأنف عارف تحديه الصامد :

ـــ إذا ابتعدنا عن الشر .. فلن يبتعد عنا ولن يتركنا فى حالنا !

خرج مصطفى عن صمته اليقظ :

ـــ وهل تظن أن بطانة الكبش ستتركك فى حالك إذا دخلت البيت ؟

ـــ فكرت فى كل هذه الاحتمالات ؟!

استأنف يشكر هجومه المتسائل :

ـــ وهل تظن أن الكبش عاجز عن إدراك دوافعك الحقيقيةلتقدمك لطلب يد ابنته ؟!

ـــ كل هذه الاحتمالات فى اعتبارى !!

سمحت بثينة لنفسها بالتدخل فى الحوار :

ـــ قطر الندى جميلة وساحرة وتشكل دافعا كافيا وحقيقيا لأى شاب كى يتقدم ويفوز بها !

علق يشكر فى يأس لأول مرة :

ــ لكن ليست بالنسبة لعارف النباش !

لم يخف عارف مسحة من الرقة غلفت نبراته :

ــ إنها تختلف عن أبيها اختلاف السماء عن الأرض !

ابتسمت بثينة ابتسامة تحولت إلى ضحكة قصيرة :

ــ ألم أقل لكم إنه وقع فى غرامها حتى أذنيه ؟!

لم تستسلم الأم :

ــ ولنفرض أنها بهذه الصفات الملائكية.. هل يمكنك إخراجها عن طوع أبيها ؟! ستظل تحت رحمته إلى الأبد !

ــ ستكون زوجتى أولا .. وابنته ثانيا !

ثبت مصطفى نظارته على أعلى أنفه :

ــ إنك تتكلم كما لو كان زفافها إليك غداً ؟!

ــ كل كلامى قائم على احتمالات يمكن ألا تحدث على الإطلاق !

عاد عبد العليم إلى انحناءته على المكتب :

ــ إذا لم تكن قطر الندى هدفك .. فحرام أن تحطم قلبها .. يكفيها سجنها المؤبد !

ــ لا أكتمك أنها بهرتنى بجمالها ورقتها بل خوفها علىّ عندما عرفت أننى عارف النباش !

ترك يشكر اليأس للسخرية :

ــ يبدو أننا سنشهد زفافا يعيد إلى الأذهان زفاف قطر الندى إلى الخليفة العباسى المعتضد !

أفلتت من عارف ابتسامة لأول مرة :

ــ لا تنس أن زواج قطر الندى كان سببا فى انهيار أبيها خمارويه ومقتله فى

الشام فى نفس عام زواجها !

بادله يشكر نفس التحدى :

ــ ولا تنس أيضا أن قطر الندى ماتت بعد ذلك حزنا على أبيها ثم لحق زوجها بها !

قام مصطفى بدوره المعتاد :

ــ لا أعتقد أن التاريخ يعيد نفسه بهذه البساطة ! لكل عصر ظروفه وملابساته الخاصة به !

كانت الأم على وشك ان تقول شيئا لولا أن جرس التليفون القابع على المكتب رن أعلى من المعتاد ، وإذ بعارف يرفع السماعة بأنفاس لاهثة وعيون الجميع عليه :

ــ ألو .. نعم .. أنا عارف النباش .. وهو كذلك .. شكرا .. مع السلامة !

وضع عارف السماعة وهو ينظر إلى ساعة يده . رفع عينيه فقرأ فى عيون الجالسين استفسارات لا حصر لها . كبت أمواج الإثارة الصاخبة داخله وقال بهدوء متماسك :

ــ اتصل بيت الكبش الآن وأخبرونى أن اللقاء تحدد مساء اليوم فى الساعة التاسعة !

دقت الأم بكفها على صدرها :

ــ ما هذا الذى يجرى فى هذه الأيام الغريبة ؟!

نهض عارف مربتا على كتف أمه فى حنان دافق :

ــ لا تخافى علىّ يا أمى فأنا لست بالطيش الذى تتصورينه !

دون أن تنظر إليه خرج صوتها كسيرا :

ــ هكذا قال لى أبوك .. ثم فقدته فى لحظة غادرة من الزمن !

حاول عارف التخفيف من الجو المأسوى الذى أشاعته أمه . ابتسم ثم اصطنع ضحكة لم يشاركه فيها أحد :

ــ عن إذنكم .. فلا يعقل أن أذهب بالبيجاما !

خرج من الغرفة الغارقة فى صمت كئيب موحش مشحون بالقلق والتوتر والتوجس والخوف والترقب والإحباط . فى تلك اللحظة شعر أنه يحمل قدره على يده ، ورسالته فى قلبه . الرسالة التى يجب أن تصبح حقيقة ملموسة فى حياة سكان القلعة ، وإلا ما قيمتها ؟!

دخل غرفة نومه وأغلقها خلفه . نظر فى مرآة دولاب ملابسه وابتسم . لأول مرة لاحظ وسامته وملاحة وجهه ، بشرته السمراء التى توحى بالدفء والحيوية والانطلاق ، جبهته العريضة ، وعينيه العسليتين الواسعتين ، وأنفه الدقيق ، وشفتيه الغليظتين ، وشعره الفاحم الناعم اللامع .

امتزجت فى عينيه ملامحه بملامح قطر الندى كما رآها فى تلك الأمسية الحالمة ، فلم يعرف إذا كان ما يراه فى المرآة وجهه أو وجهها ؟! أسرع فألقى بالبيجاما على السرير وشرع يرتدى أبهى حلله برغم حرارة الجو التى لم يشعر بها وإن تألقت بعض حبات العرق على جبينه وصوت داخله يكاد يسمعه بأذنيه :

ــ الإنسان يعيش مرة واحدة .. وعليه أن يعيشها كما يحب وكما يجب . أما هؤلاء الذين يحرصون على طول أعمارهم ولا يهتمون بمعناها ، فإن وجودهم على وجه هذه الأرض وهم كبير وإن كانوا يظنون غير هذا . لقد غادر أبوه هذه الأرض فى لحظة غادرة كما تقول أمه ، لكن أهالى القلعة يتنفسون وجوده وفكره ومواقفه فى يقظتهم ومنامهم ، وكثيراما قال له عندما شب عن الطوق إن الانسان ذكرى قبل أن يكون مجرد جسد يتحرك بين أجساد . ولقد قرر أن يواصل رسالة أبيه وليكن ما يكون !

دار الشمطلى بمبخرة نحاسية لامعة فى الغرفة العلوية المكسوة بالقاشانى الدقيق الملون كالفسيفساء ، وحول أوانى الماء الرخامية فى الأركان ، والمقاعد العالية المطعمة بالصدف ، ثم أحكم إغلاق المشربية الجميلة التى تكاد تغطى الجدار كله فاختفى ضوء القمر الذى تلصص منها فى حياء ناعم ، لدرجة أنه افترش جزءا من السجادة الفارسية العريقة . بعد غياب القمر لم تتألق سوى أضواء القناديل الخافتة فى الأركان ، والتى ضاعف من خفوتها طيات البخور المعطر لدرجة التخدير والانتشاء والاختناق .

تجسدت فى ملامح الشمطلى كآبة اختفت تحتها صلابته المعهودة . ظل يدور بالمبخرة فى عصبية واضحة ، وتقطيبة لم تفارق وجهه . سعل بشدة وهو يهبط على درجات السلم الخشبى القديم مصيخا السمع لأصوات بعيدة قادمة عبر القاعة الأرضية ذات الفسقية الرخامية والثريات النحاسية . دار حول الفسقية تاركا المبخرة إلى جوارها ، خرج فوجد عند الباب المقوس من أعلى رجاله وهم يحيطون بشاب وسطهم فعرف أنه وصل فى ميعاده تماما . عبر الحديقة الجميلة في حين كانت نافورتها المرصعة بالرخام الملون تطلق مياهها التى امتزجت بأريج الفل والياسمين . توقف الرجال عن الكلام وأفسحوا مكانا لرئيسهم الذى أغاظته أناقة الشاب فى حلته الكحلية ورباط عنقه الأحمر فوق قميصه الناصع البياض ، وتحت وجهه الجذاب الذى يمزج الثقة بالتحدى :

ــ جئت فى ميعادك .. أهلا وسهلا !

لم يسترح عارف لترحيب الشمطلى الذى لم يحمل فى طياته أى قبول ، برغم أنه توقع كل الاحتمالات . لكن يبدو أن وقع الواقع يختلف عن توقعه .

أجاب عارف مستعينا بدهاء لابد أن يمارسه من الآن فصاعدا :

ــ أهلا بك !!

سار الاثنان فى صمت لم يقطعه سوى نقيق بعض الضفادع البعيدة عبرا الفناء ثم القاعة الأرضية دون أن ينظر عارف حوله وإن كان على وشك الاحتراق بحب الاستطلاع . صعدا على السلم الخشبى فتسللت طلائع البخور المعطر إلى أنفه فتأكد أنه مقبل على تجربة مثيرة بكل ما تحمله الإثارة من معنى ، تجربة يمكن أن يقدم حياته ثمنا لها بكل الرضا . دخلا الغرفة العلوية حيث توقف الشمطلى مشيرا إلى أحد المقاعد العالية المطعمة بالصدف :

ــ تفضل هنا !

وقبل أن يرد عارف كان الشمطلى قد اختفى ولم يسمع سوى دبيب أقدامه على السلم الخشبى وسط السكون الجاثم على الأشياء . جلس عارف مقاوما البخور المعطر المخدر الذى رأى فيه جزءا من المسرحية الحية التى بصدد الخوض فيها . دار بعينيه متأملا الغرفة التى نقلته عبر القرون إلى عصر لم يتبين ملامحه تماما على خريطة التاريخ الخبير بها . بهره السقف المنقوش بزخارف دقيقة ، وأغصان متشابكة ، مطلية بالذهب ، مطعمة بالصدف حول نجوم تناثرت بعيدا فى سماء مظلمة .

لم يكن ليتصور هذا الجو ، مهما ترك نفسه على أجنحة الخيال وشطحاته ، ومهما سمع من حكماء القلعة الذين كان الكبش يستدعيهم من حين لآخر كلما جد جديد ، والذين طالما ثرثروا حول الذين لا اسم لهم ، ولا يراهم سوى الكبش نفسه ، عندما يزورونه فى غرفة السرداب التى تقع فى أعماقها خزانة السر الرهيب . ومع ذلك قال الحكماء إنهم سمعوا

أصواتهم ودبيب أقدامهم الذى كان يعلو وينخفض فى رتابة رهيبة ألصقتهم بمقاعدهم .

وسط خضم تأملاته انتبه عارف إلى أنها ليست مجرد شطحات ، بل روائح وأصوات حقيقية قادمة من فتحة السلم الخشبى فى رتابة رهيبة . إذن .. ما قيل لم يكن مجرد أوهام بل حقائق راسخة يمكن أن تلتقطها الأنف والأذنان ! تماسك عارف حتى لا يسلم إرادته لموجات الإثارة التى يمكن أن تغرقها تماما بين طياتها ودفقاتها ، واعتبر ما يدور مجرد طقوس للترحيب به . وضع ساقا على ساق متجاهلا دبيب الأقدام الرتيب ، لكنه شعر أن المعلم تأخر فى مقابلته وإن لم يكن مر على وصوله سوى لحظات . ظل ينظر إلى ساعته حتى خفت الدبيب ثم تلاشى . كذلك كان قد اعتاد البخور الذى تراجعت طياته الضبابية وإن دمعت عيناه . سمع دبيبا من نوع آخر تصاعد على درجات السلم الخشبى . نظر تجاهه فرأى المعلم الكبش بقامته المديدة وعصاه الثقيلة الغليظة وهو يبرز من فتحته . سار فى مهابة غامضة إلى مقعده العالى المواجه لمقعد عارف الذى انتفض واقفا مادا يده بالسلام ، فأخرج المعلم يده الغليظة من كم عباءته الفضفاضة وشد على يده بقوة متعمدة :

ــ أهلا وسهلا .. تفضل !

لم يجلس عارف إلا بعد أن تربع المعلم على مقعده . كان وميض عينيه أسطع من ضوء القناديل فى الأركان ، والخاتم الياقوتى الأحمر فى إصبعه . خرج صوته مجلجلا برنين خفيض اخترق السكون :

ــ عندما طلبت المقابلة لم أسألك عن السبب .. فبيتى مفتوح للجميع والحديث فيه حديث ذو شجون .. حديث رب العائلة مع كل أبنائه دون

استثناء !

لاحظ عارف ضغطه على لفظى « دون استثناء » . تردد قليلا ثم أزاح حشرجة طارئة فى حلقه وقال دون أن يطرف له جفن :

ـــ كنت أظن أن سيادتك على علم بالموضوع الذى أتيت من أجله ؟!

ـــ ومن أين لى هذا العلم وصاحبه لم يخبرنى بشىء عنه !!

وجد عارف نفسه لأول مرة وجها لوجه أمام دهاء الكبش فتأكد أن مهمته لن تكون يسيرة أبدا ، ومع ذلك قرر أن يتسلح بالشجاعة والصراحة فليس هناك ما يخاف أو يخجل منه :

ـــ الموضوع باختصار أننى فكرت فى نيل شرف ابنتكم الآنسة قطر الندى !

قالها عارف دفعة واحدة دون أن يلتقط نفسا واحدا . لكن ملامح الكبش ظلت جامدة كما هى ، فلم يكلف نفسه مجرد اصطناع الدهشة :

ـــ وما الذى جعلك تفكر فى هذا الموضوع ؟!

تلعثم قليلا لكنه تقدم بخطى واثقة ونبرات واضحة :

ـــ أى شاب فى القلعة يتمنى هذا الشرف !

ـــ وهل يتمنى أى شاب الزواج من فتاة لم تقع عليها عيناه ؟! ولم يعرف عنها شيئا على الإطلاق ؟!

إنه يقوده إلى المنطقة الوعرة الزلقة لكنه سيسير معه :

ـــ رأيتها ذات مغرب تجلس فى مشربيتها .. فدفعنى طموحى بل وغرورى إلى طلب يدها !

ـــ وهل اقتصر الأمر على مجرد الرؤية ؟!

تحول الحوار إلى سين وجيم لكن كان عليه أن يتوقع أى شىء :

ـــ كان قصدى شريفا .. فعرفتها بنفسى وأخبرتها بقصدى !

ـــ وهل هذه طريقة تناسب كريمات العائلات العريقة الأصيلة ؟!

ـــ هذا ما وقع تماما .. وإذا رأيت فيه سيادتك ما يمس فأنا آسف !

اعتدل الكبش فى جلسته مسندا عصاه إلى ذراع مقعده . تأكد أنه شاب يتمتع بدهاء لم يتوفر لأبيه الأرعن ، ولا يعقل أن يكون قد جاء لمجرد طلب يد ابنته . لا بد أن له أهدافا أخرى قد يكون منها الانتقام لمصرع أبيه . وطالما أنه دخل القصر برجليه فلا بد أن يكون على مستوى هذه الجرأة البالغة . سر الكبش فى داخله عندما وجد من يواجهه بهذا الأسلوب أخيرا ، فلذة الحياة فى قهر تحدياتها المتواصلة ، وطعمها يتلاشى تماما عندما تستسلم الأطراف الأخرى وتؤثر السلامة على المقاومة . قطع الصمت فجأة وهو يتفحصه بعينى الصقر :

ـــ وماذا عن العداء الذى دام بيننا وبينكم أجيالا ؟! والذى دفعك إلى إقامة ندوة صباح كل جمعة لتأليب شباب القلعة مع علمك بأن عائلة الكبش وقلعة الكبش هما شىء واحد ؟!

لم يشأ عارف أن يقول له إن للإنسان مطلق الحرية فى أن يطلق على نفسه ما شاء له من أسماء وألقاب ، لكن الصراحة هنا لا تفيد :

ـــ اقتنعت أخيراً أنه لا شىء أفضل من السلام !

ـــ وما الدافع وراء هذا التحول المفاجىء ؟!

استمرأ عارف لعبة الدهاء القائم على علمه ووعيه ودراسته :

ـــ عندما رأيت قطر الندى آمنت بأن هذه المخلوقة الرقيقة لا يمكن أن تنشأ فى أسرة عنيفة مرعبة كما حاولت الشائعات المغرضة أن تشوه صورتها .. وليس من سمع كمن رأى !

ابتسم عارف بحذر عندما نطق الجملة الأخيرة ، ففوجىء بالكبش يفتر عن أنيابه وهو الذى لم يتخيله أحد من قبل مبتسما :

ـ يبدو أن سر ابنتى باتع أيضا ؟!

فكر عارف فى إجابة مناسبة يملأ بها فراغ السكون ، لكن الشمطلى أخرجه من حيرته بدخوله حاملا صينية نحاسية حمراء فوقها كوبان من البللور الذى ينم عن شراب أصفر شفاف . وضعها على مائدة صغيرة بينهما وهو ينظر إلى المعلم من طرف خفى لعله يستشف شيئا لكنه صدم بملامح الكبش التى عادت إلى جمودها . خرج فى صمت فى حين مد المعلم يده ممسكا بأحد الكوبين متفحصا نظرات عارف :

ـ تفضل .. اشرب ..

تردد عارف قليلا دون كلمة فقال المعلم :

ـ ألا تحب شراب اللوز ؟! لا تخف !! لم نضع لك شيئا فيه !!

فكر عارف بسرعة البرق .. لا يعقل أن يقضى عليه الكبش فى بيته بالسم فهو ليس بهذه السذاجة . ابتسم فى حرج :

ـ العفو يا فندم أرجو أن يكون عهد سوء الظن قد انتهى إلى غير رجعة ! وزيارتى هذه أكبر دليل على هذا !

ثم تناول الكوب فشرب نصفه مستمتعا بمذاقه الثلجى ، فى حين كان المعلم قد أتى على كوبه متحسسا شاربه العريض المدبب عند طرفيه . انتظر حتى أعاد عارف الكوب إلى شفتيه فنطق بكلمات كالرصاص :

ـ أرحب بك زوجا لابنتى !

كان عارف على وشك أن يسكب الشراب على حلته لولا أنه تمالك نفسه وأعاد الكوب الى الصينية :

ـــ هذا أعظم خبر سمعته فى حياتى !!

استدرك المعلم بالوقار نفسه :

ـــ لكن بشرط ؟!

ـــ تحت أمر سيادتك !

ـــ أن تعيش معها فى السراى ؟!

هذا الشرط يقربه أكثر من أسراره . لكن ماذا سيقول الأصدقاء الذين ربما تحولوا إلى خصوم ؟!قال :

ـــ إنه شرف كبير لى ! لكن ماذا عن مكتبتى التى اعتمد عليها فى محاضراتى ودراستى للماجستير ؟!

ـــ ليست مشكلة ! انقلها إلى هنا !!

ـــ إنها مكتبة أبى ولا أملك حرية التصرف فيها إلى هذا الحد !

قالت عيناه شيئا حاول عارف أن يفهمه :

ـــ تتكلم كما لو كان قد ترك لك ثروة ثمينة !

تفادى عارف المنزلق بمهارة تعجب لها نفسه :

ـــ إنها توفر علىّ ثمن المراجع والكتب الذى ارتفع كثيرا فى الفترة الأخيرة ! وعلى كل حال سأستعير الكتب اللازمة لحين الانتهاء منها وإعادتها... خاصة وأن أمى سيدة مسنة ولا بد من السؤال عنها يوميا !

نهض الكبش من مكانه وفتح ضلف المشربية فتدفق نور القمر ومعه نسمة رقيقة عليلة طاردت فلول البخور الذى لم يعد يتسلل إلى أنف عارف . قال المعلم وهو يمسح بعينيه المنخفض الكبير بين قلعة الكبش وقلعة الجبل :

ـــ هذا حقك بطبيعة الحال !

وقف عارف بدوره . فلا يصح الجلوس والمعلم واقف ، استدار المعلم

وأشار له بالاقتراب . نفذ الأمر حتى وقف إلى جواره حيث مد ذراعه على كتفه :

ـــ لا أشبع من هذا المنظر ! فالقاهرة كلها عند قدميك !

لم يعرف عارف من قبل أن الكبش أدمن السطوة والسلطة والسيادة إلى هذا الحد ، ومع ذلك تجاوب معه :

ـــ إنه منظر يحمل تاريخاً عريقاً يزيد على ألف عام !

ـــ سيأتى اليوم الذى سأحكى فيه تاريخ عائلتنا الذى يرجع إلى أحمد بن طولون .. وعليك أن تسجل هذا التاريخ الذى لم يعرف أسراره أحد بعد !! فما تحويه مكتبة أبيك لا يصل إلى ربع ما يحويه رأسى !

لم يرد عارف الذى لم يجد كلمات مناسبة . رفع المعلم ذراعه من على كتفه واتكأ بمرفقيه على حافة المشربية . سبل عينيه فى الأشعة الفضية وخرج صوته كالحالم الغارق في بحيرة من النشوة :

ـــ بهذا تكون أسعد شباب القلعة حظاً .. فإنك لم تفز بابنتى فقط بل أصبحت مؤرخ عائلتنا أيضاً !

ساد الصمت والظلال فقدح عارف زناد فكره بحثاً عن أفكار أو حتى كلمات حتى لا يثير أى شك :

ـــ أرجو أن أكون على مستوى المسؤولية !

شعر عارف بمنتهى الصدق فى قولته ، وإن كان يعنى مسؤولية غير تلك التى فهمها الكبش الذى واجهه فجأة فى تساؤل صاعق :

ـــ هل تود رؤية خطيبتك الآن ؟!

قاوم عارف السحر الذى بدأ يأخذ بتلابيبه :

ـــ لا أعرف ماذا أقول لحضرتك ؟! فيكفينى الشرف الذى غمرتنى به

هذه الليلة !

ـــ لا أحب اللف والدوران !! عندما تريد شيئاً قل ولا تخف ! لا أخفى عليك إعجابى بجرأتك عندما صارحتها برغبتك فى طلب يدها !

قرر عارف أن يسبح معه فى هذه الأغوار المظلمة :

ـــ كل شيء قسمة ونصيب !

استدار المعلم ودق بعصا ذات كرة خشبية قرصاً نحاسياً لامعاً معلقاً بسلسلة فضية فوق مائدة صدفية عالية ، فأحدث رنيناً جليلًا حضر على أثره الشمطلى ووجهه لا يزال ينطق بحب الاستطلاع القاتل :

قل لثمر حنة أن تعد قطر الندى لمقابلتى هنا !

قاوم الشمطلى ضغوطاً حانقة نهشته من الداخل :

ـــ ربما تكون قد نامت الآن !

ـــ نفذ ما أمرتك به !

استسلم الشمطلى للطعنة الحادة ، ومع ذلك نظر إلى عارف والشرر يتطاير من عينيه . انحنى :

ـــ أمر سيادتك :

واستدار خارجاً . شعر عارف بقلبه يكاد يقفز من بين ضلوعه ، عجيب أمره ! لم يعد يهاب وجوده مع الكبش ، وعندما أصبحت قطر الندى على الأبواب اجتاحته رهبة لم يمر بها من قبل !! هل يمكن أن تملك هذه المخلوقة الحالمة الرقيقة التى تكاد تذوب مع هبات النسيم ، قوة تزيد فى طغيانها على قوة أبيها وجبروته ؟! لا يصح أن يترك نفسه نهباً لهذه الرهبة وإلا تكسرت الدفة فى يده وسط هذه الأغوار المظلمة ! لكنه تأكد فى اللحظة ذاتها أنه يحبها فعلًا ، وأنه مقبل على امتحان لابد أن يجتازه بتفوق ، وهو الذى لم يعرف

فى حياته الفشل من قبل !

عاد المعلم إلى مقعده العالى وهو يتأمل عارفا فى شروده . لكن سرعان ما استكان عارف إلى مقعده المواجه يحاول قدر إمكانه جمع شتات تفكيره الذى يبدو أنه كان هدفاً لهجمات الكبش المتتالية :

ـــ قطر الندى أمانة بين يديك يا عارف .. إنها كل ما أملك فى هذه الدنيا .. ومن نسلها سيستمر اسم الكبش على وجه هذه الأرض !

ذهل عارف ، ذلك أن البشر على مر العصور اتفقوا على أن تسمية الأبناء بأسماء آبائهم موضوع لا يقبل الجدل ، إلا فى بعض مناطق الإسكيمو . فهل تنتمى قلعة الكبش إلى القطب الجنوبى أم القطب الشمالى ؟!!

ـــ أراك شارداً ؟!

استدرك عارف فى لهفة لاهثة :

ـــ قطر الندى أمانة فى عينى .. وسأحميها بروحى !

ـــ أريد أن أسألك سؤالًا صريحاً .. على أن تجيبنى عليه بالصراحة نفسها !

انتصب عارف فى مقعده وكله آذان مصغية وذهن متوقد :

ـــ تفضل !

ـــ هل رأيت فى سلوكى ذلك الوحش الذى كنت تظنه فى حديثك الأسبوعى إلى شباب القلعة ؟!

كان التيار جارفاً لكن عارفاً جاراه مؤقتاً :

ـــ ليس من سمع كمن رأى !!

ـــ إذن .. أطلب منك أن تنقل لأصدقائك صورتى الحقيقية التى رأيتها بنفسك .. فكم ظلمت بتشويه صورتى !!

تهدج صوت الكبش فهو يرى كم هو مظلوم من الناس ! أما ما فعله ويفعله من استغلال وبطش وإجرام فليس من الظلم فى شىء . استعاد عارف زمام دهائه :

— بحلول السلام ستتكفل الأيام بمداواة الجراح والآلام !

ابتسم الكبش لثانى مرة فى تلك الليلة المشهودة :

— تتكلم بنفس الزجل الذى يتغنى به راوى القلعة ؟!

بادله عارف الابتسامة وهو يبحث عن كلمات مناسبة ، لكن قطر الندى جنبته جهد البحث بدخولها فى رداء وردى يخفى قدميها ويلامس السجادة ، فى حين تركت شعرها الأسود اللامع الناعم الطويل ينهمر حول أذنيها وعنقها وفوق كتفيها حتى وسطها . أما وجهها فامتزج بضوء القمر وأنوار القناديل فزاد من بريق عينيها المشعتين بوميض نابع من عالم الأساطير ودنيا الحوريات .

انتفض عارف واقفاً فى ارتباك لم ينجح فى إخفائه . انحنت قطر الندى فقبلت يد أبيها الذى قبل وجنتيها بدوره ثم نهض وقدم عارفاً إليها واضعاً يده على كتفه :

— عارف النباش .. جاء يطلبك منى .. فأردت أن أعرف رأيك !

لم تمد قطر الندى يدها بل تركت جفونها تغطى عينيها اللتين لم ترتفعا ، وتلعثمت فى صوت خفيض لا يكاد يفصح عن نبراته :

— الرأى .. رأيك .. يا بابا !

ربت الكبش على شعرها الذى افترش ظهرها وأجلسها إلى جواره فى حين جلس عارف أمامها وقد عجز عن إبعاد عينيه عنها . ران الصمت وصدح السكون بجيشان هادر . فتش عارف عن كلمات هنا وهناك — وهو الذى

يجيد صياغة الأفكار وصناعة الكلمات ــ فلم يجد سوى :

ــ إنه لشرف عظيم لم أكن أحلم به أن أقابل الآنسة قطر الندى !

خرجت من بين شفتيها الشاحبتين بلون الورود فى ضوء القمر :

ــ شكراً !

عاد الصمت ليبسط سلطانه مرة أخرى . فليس الكبش وحده صاحب السلطان . تنقل بعينى الصقر بينهما مربتاً على شاربه العريض وكأنه يريد أن ينطق الصمت بالكلمات المحتبسة فى القلوب . لكن عارفاً آثر أن يترك له الكرة هذه المرة ، فالصمت وتفادى النظرات خير غطاء لإخفاء الأعماق الهادرة بلا أصوات . وبالفعل افتعل المعلم روح الدعابة :

ــ يبدو أن تبادل الحديث لا يحلو لكما إلا فى غيبتى ؟!

شحنهما بالحرج فطفح على وجهيهما بحمرة جرفت أمامها شحوب قطر الندى ، وألجمت لسانيهما لكن عارفاً أراد أن يثبت لقطر الندى أنه رجل الموقف :

ــ أنت الخير والبركة يا معلم !

تظاهر المعلم بالشروع فى النهوض فأمسك بعصاه :

ــ هل أترك الغرفة حتى يحلو لكما الحديث ؟!

بتلقائية غريزية أمسكت قطر الندى بيد أبيها وقالت كلمات مدغومة غير واضحة لكنها كانت مفهومة تماماً فاسترخى فى مقعده مرة أخرى ، فى حين انحسرت موجات الحرج التى أغرقت عارفاً فنضحت على وجهه بحبات متألقة من العرق لم يشأ أن يمسحها . استأنف المعلم اجتياحه مستمتعاً بسطوته عليهما :

ــ حديث القلوب والنظرات أروع وأعمق من حديث الألسنة

والكلمات !

لا يعقل أن يمارس المعلم جبروته عليه بهذا الشكل ، فقرر أن يقف موقف الند للند :

ـــ أروع شيء فى الوجود أن تعبر الألسنة عما يجيش بالقلوب بكلمات صافية صادقة لوجه الله !

أراد الكبش أن يهاجمه من حيث لا يتوقع :

ـــ متى تقترح أن يعقد القران ؟!

ـــ الأمر لسيادتك أولًا وأخيراً !

ـــ أرى أن يعقد فى آخر خميس من الشهر القادم ! لن يستغرق ثوب الزفاف وقتا طويلًا . كما أنك لن تفعل شيئاً سوى أن تنتقل لتعيش هنا !

ـــ تحت أمرك فى كل ما تقول وما تأمر به !

ركز المعلم وميض عينيه على وجهه حتى يتبين مدى صدقه أو كذبه ، لكن عارفاً نهض مستأذناً حتى يستطيع أن يخلو إلى نفسه ، وأن يستعيد قواه التى أنهكها اللقاء المشحون المتفجر فى سكون .

نهض المعلم بدوره ومعه قطر الندى :

ـــ كنت أود أن نتناول العشاء سوياً !

لم يرفع عارف عينيه :

ـــ لا أطمع فى كرم أعظم من الذى حصلت عليه هذه الليلة !

مد يده بالسلام فضغط عليها المعلم بقوة يده الضخمة فومض خاتمه الياقوتى الأحمر ، ثم صافح قطر الندى فشعر بارتعاشة كفها الرقيقة المشبعة بندى عرقها داخل كفه التى لم تحتمل الشحنة التى انتقلت إليها مع نظرات المعلم الصاعقة ، فسحبها وسار بظهره بضعة خطوات لكنه توقف على الصوت الجهورى :

ــ لحظة .. سأستدعى الشمطلى ليصحبك إلى الباب !

نفذ الأمر صاغرا فى حين دق المعلم القرص النحاسى اللامع . وبمجرد تلاشى رنينه ظهرت رأس الشمطلى من فتحة السلم وكأنه كان مرابطا طوال الوقت عندها . وقف أمامهم فى شبه انحناءة :

ــ مع الأستاذ عارف حتى الباب !

دون أن يفتح فمه نظر إلى عارف الذى سار إلى جواره حتى هبطا سويا .

لم ينظر عارف إليه لكنه شعر أن حب الاستطلاع يكاد يقتله قلقا وهو يختلس النظرات الزائغة حتى وصل إلى الباب الخارجى حيث انضم إلى رجاله .

ترك عارف نفسه لأقدامه كى تحدد وجهته . لم يكن يعرف ماذا يقول عن من ولمن ؟! ماذا يفعل ؟! وكيف يفكر ؟! وأين سترسو به الرياح التى أثارها الليلة ولن تهدأ إلا بسحق أحد الطرفين ؟! لكنه كان متأكدا من شىء واحد : أنه وضع قدمه على الطريق بلا عودة !

لم يدر سكان القلعة ما الذى دار فى الأيام الأخيرة ؟! اجتازوا مرحلة التصديق والتكذيب ، التأييد والرفض ، الجدية والسخرية إلى منطقة الذهول والمتابعة بأفواه فاغرة ! كان تسلسل الأحداث سريعا لا هثا بحيث لم يترك وقتا للتقويم والحديث عن القضية التى حملها عارف ورفاقه على عاتقهم فى الفترة الأخيرة ، ومستقبلها فى ضوء التطورات التى لم تخطر على بال . فقد تحول عارف فى نظرهم من مفكر ثائر ضد الطغيان والذل إلى بطل لمسلسل مثير يحمل فى كل يوم جديد مفاجأة مذهلة . نسوا قضيتهم تماما بعد أن أصبح عارف هو القضية نفسها بعد أن تحدد ميعاد الزفاف ولم يعد الأمر مجرد تكهنات أو تخمينات .

أما عارف فكانت الأمواج أعنف من أن يخوض فيها سواء على مستوى الأسرة أو على مستوى القلعة . حتى ندوة الجمعة امتنع عن حضورها هربا من المواجهة التى يمكن أن تفجر حساسيات لا لزوم لها ، وقد تضعه فى موقف لا يحسد عليه . لذلك آثر أن يقضى طوال النهار فى مكتبة الجامعة دارسا للمراجع التى تدور حول قلعة الكبش كموضوع لرسالته للماجستير ، أو فى دار الكتب فى باب الخلق . ثم يعود بعد حلول الظلام إلى بيته الصامت حيث أمه التى لم تعد لديها كلمات سوى الدعاء لله كى يحفظه من كل سوء . وإذا قابل أحدا فى الطريق فإن السلام بإيماءة أو كلمة عابرة تعقبها خطوات سريعة وسط ذهول الآخر الذى يود معرفة آخر الأخبار .

وكان عارف قد فكر فى تفصيل حلة خاصة بالزفاف على أن يصطحب

أخته بثينة لشراء قماشها ، لكنه عدل عن الفكرة بعد أن وجد قوامه الفارع يناسب الحلل الجاهزة . وفى جولة واحدة على بعض المحال مع صديقه مصطفى اشترى الحلة والحذاء والقميص ورباط العنق والملابس المنزلية أيضا . وكان يشكر قد رفض اصطحابهما حتى لا يراه أحد معهما . فلا يعقل أن يأتى عارف بفعلة مثل هذه ثم يمشى فى ركابه بعد ذلك ! فمهما كان هدفه شريفا وجريئا فلابد أن يقال عنه إنه باع نفسه للكبش ! وربما كان بالفعل انتهازيا يرغب فى ركوب الموجة بعد أن فشل فى التصدى لها ! خاصة وأن الشمطلى ورجاله أشاعوا فى المقهى وبين السكان أن عارفا قبل حذاء الكبش مستغفرا نادما عما ارتكبه من طيش ، وظل يبكى حتى عفا عنه بل وتجلى كرمه حينما تنازل ووافق على زواجه من ابنته .

أما الشمطلى فلم يفصح لرجاله عما يجيش بداخله ، وإن كان قد شعر بأن الجبهة الجديدة التى فتحها عارف سوف تستنفد معظم جهده ووقته . هل يعقل أن يأتى هذا الصبى الذى طالما أهان الكبش وشوه صورته ، كى يستولى على الجمل بما حمل ؟! فى حين أنه أفنى عمره فى خدمة المعلم وفى تنفيذ مخططاته للتخلص من أعدائه وفى مقدمتهم النباش ، ثم يكافأ بالخروج من المولد بلا حمص ؟! كم عرض حياته للخطر من أجله ، وقام بدور خادمه وسائقه وحارسه وساعده الأيمن فى كل العمليات الكبيرة !! وبعد هذا كله ينهره ويأمره بأن يحتفظ بنصائحه لنفسه ؟! هل يعقل أن يلقن الكبش عارفا درس العمر بأن يصبح زوج ابنته ؟! أى فى مكانة ابنه الذى حرم من إنجابه ؟! إنه ليس بالكرم الذى يدفعه إلى التفريط بهذا الشكل فى مملكته وخاصة فى قطر الندى قرة عينه ؟! ولمن ؟ لابن عدوه الذى قضى عمره فى حربه ؟! هل طعن فى السن بحيث فضل احتواء الصبى تحت جناحيه على أن

يواجهه فيبدو صغيرا عاجزا ؟! هل يدبر للصبى مكيدة يتخلص بها منه ؟!
لكنه سيصبح زوج ابنته وسيبذل كل ما فى وسعه كى يربطها به قلبا وقالبا !
فكيف يكسر الكبش قلب ابنته بالقضاء على زوجها ؟! زوجها الذى لا بد
أن يتمتع بنفس حقوق السيادة خاصة بعد رحيل المعلم ؟! زوجها الذى
لا بد أنه يخطط لخلافة المعلم ؟! زوجها الذى لا بد أنه سيتخلص منه ومن
رجاله حتى تكتمل له أسباب السيادة ؟! إن ما حدث أمر فى منتهى الخطورة
ولا يمكن أن يمر مر الكرام ! فلا بد أن يتحول الكبش وعارف إلى جبهة
واحدة ، ولا بد أن يطعنه عارف عند المعلم حتى يطرده فى النهاية ! فالهمس
فى الآذان أعلى ضجيجا من قصف الرعد فى الليلة الظلماء ! لو تزوج
قطر الندى أى شاب من أثرياء القلعة لما كان هناك ما يقلقه ، لكن عارف
النباش بالذات ؟! هذا لم يكن فى حسبانه على الإطلاق ، وهذا أيضا
ما سوف يحسب له ألف حساب من الآن حتى تنقشع الغمة ! ومهما
تراقصت أمام عينيه آلاف من علامات الاستفهام فسيظل يبحث عن
إجابات لها حتى لو دفع حياته ثمنا لها ! فلا يعقل أن تنقلب الموازين رأسا على
عقب هكذا بين يوم وليلة ! ولا يعقل أيضا أن يفشى أسرار المعلم على سبيل
الانتقام ، لأنه بهذا سينتقم من نفسه لوجوده معه فى قارب واحد . ستظل
أسراره فى بئر لا بد أن يغرق فيها عارفا فى النهاية ! فلم يعد الصراع مجرد مواجهة
كلامية فى المقهى أو إشاعات يتناقلها الأهالى ، بل صراع القاتل والمقتول .

أما تمر حنة فلم تذكر عارفاً أمام قطر الندى إلا بالخير كله ، مما أثلج
صدرها وضاعف من تعلقها به ، وإن ظلت متحفظة فى ثقتها بوصيفتها
التى بدت شعلة من النشاط والحيوية فى سبيل إتمام جهاز العروس فى الوقت
المحدد . فقد شعرت قطر الندى بأن سلوك تمر حنة المبالغ فى الافتعال

والتصنع فى أحيان كثيرة يخفى وراءه شيئاً غامضاً . وبرغم ذكائها ولماحيتها فقد استهانت بذكاء سيدتها التى ظنتها مجرد فتاة سلبية حالمة لا تفعل شيئاً سوى انتظار ما سوف يحدث لها .

وإذا كان الجميع قد اختلفوا فى نظرتهم إلى الحدث الكبير ، فإنه شكل بؤرة جذب لهم بطريقة أو بأخرى . خاصة عند وقوعه فى الليلة التاريخية التى ازدانت فيها السراى بحلل من الأضواء والألوان المتلألئة لم تشهد لها القلعة مثيلا من قبل . انتاب الجميع إحساس العيد برغم عدم ارتياح معظمهم لهذه المناسبة الغريبة ، ومع ذلك أقبلوا على السرادق الضخم الذى كاد أن يلتف حول السراى من كل جوانبها ، وداخله مدت الموائد التى حملت من أطايب الطعام ما لم يره كثير من الأهالى من قبل .

أما رئيس مجلس الحى فكان قد أرسل عربات القمامة التى طهرت المنطقة المحيطة بالسراى من كل ما يشوه جمالها ، وبعودة العربات المحملة بالقمامة التى قد يبلغ عمرها سنوات ، حلت محلها سيارات الرش التى تمكنت من ترويض الرمال والأتربة لأول مرة بعد أن ظلت ثائرة فى العيون سنوات لا يمكن حصرها . وبذهاب سيارات الرش دخلت عربات محملة بنشارة الخشب التى فرشت الطرقات المجاورة . أما أرض السرادق فقد غطيت بسجاجيد وموائد ومقاعد قام بتوريدها أكثر من محل للفراشة من السيدة زينب ولاظوغلى والقلعة . أما بالنسبة للزينات الكهربية فقد تفضل السيد رئيس الحى مشكوراً وأعار القلعة مولداً حتى لا ينقطع التيار نتيجة للضغوط المتزايدة فى ليلة ستستهلك فيها القلعة من الكهرباء ما لم تستهلكه فى شهر .

استيقظ أهالى القلعة صباح يوم الزفاف فى صمت غريب ساد الطرقات

والمحال والبيوت ، إذ يبدو أن الضجيج كان محبوساً داخل النفوس التي انشغلت بأفكارها الخاصة وخواطرها المشوشة . لم يذهب بعضهم إلى عمله في ذلك اليوم وآثر متابعة التجهيزات الأسطورية للزفاف عن بعد ، في حين ذهب البعض الآخر إلى الشمطلي يعرضون عليه خدماتهم الجليلة ، فالفرح فرح القلعة كلها . أما الذين ذهبوا إلى أعمالهم فقد عادوا مبكرين على غير عادتهم حتى يناموا فترة الظهيرة استعدادا للسهرة الكبرى ، في حين أغلقت مصانع الكبش أبوابها وفي مقدمتها المسبك والمطحن والمغلة لمساهمة معظم العاملين في الإعداد للزفاف . وكان بعض العمال قد حاول التملص من المشاركة في هذه الضجة لكن مديريهم هددوهم بإبلاغ رجال الشمطلي ، فتعاونوا صاغرين خوفا على قوت العيال .

عند الظهيرة دارت إحدى سيارات المعلم تعلن بمكبر الصوت في طرقات القلعة دعوة جميع الأهالي لحضور زفاف قطر الندى إلى عارف النباش . ولم يكن الصوت غريباً على الآذان ، فقد كان صوت الشمطلي وإن اعترته بحة غريبة وتوتر أكثر غرابة . كما أنه تسبب في إزعاج وإيقاظ الذين أملوا في غفوة الظهيرة استعداداً للسهرة .

وقبل حلول المغرب دارت فرق موسيقى الأفراح النحاسية في الطرقات محاطة بالصبية والأطفال الذين غادروا منازلهم منذ الصباح وراء عربات الرش ولم يعودوا إليها حتى الآن . ولم يتبق عازف واحد جالسا في ذلك اليوم على مقهى الفنانين المشهور بمقهى التجارة في شارع محمد علي دون عمل . كذلك انتهز الدراويش الفرصة وجابوا الطرقات المحيطة بالسراي متغنين بجمال قطر الندى وأصلها العريق وجدها الأكبر أحمد بن طولون . ولم تفت الفرصة الحواة وعازفي البيانولا والبهلوانات الذين افترشوا مفارق الطرق وسط

دوائر من البشر انشقت عنها الأرض .

وفى المساء توافد الأهالى حول السرادق يرقبون الموقف عن كثب وعندما لم يمنعهم أحد من الدخول طفح بهم المكان فى دقائق ، ومن تأخر وفاتته الفرصة افترش الطرقات المؤدية إلى السرادق ، لم يزعجه سوى السيارات المغادرة للسراى أو القادمة إليها . ولمح بعضهم سيارة سوداء تقل عارفا وأمه وأخته بثينة وزوجها الأستاذ عبد العليم برغم زجاجها الأخضر الداكن الذى لا يكشف بوضوح عمن بداخلها . وسرعان ما انحرفت السيارة فى اتجاه البوابة الخارجية للسراى . أسرع فهد ففتح بابها الذى هبط منه عارف فى أوج أناقته وسحره ثم أمه التى لم تتخل عن ردائها الأسود وبثينة التى ارتدت ثوبا أخضر زاد من بدانتها . وأسرع عبد العليم بمغادرة مقعده إلى جوار السائق مرتديا حلة زفافه التى لم يجد فى دولابه أفضل منها لحضور الحفل . حاولت بثينة التخفيف من كآبة الأم الواضحة وهم يسيرون حول نافورة الفناء الداخلى الذى غطى بسرداق آخر :

ـــ لم يجدوا أجمل من أولادى كى يقوموا بدور إشبين الزواج !!

لم ترد الأم فملأ عبد العليم فراغ الصمت :

ـــ إنها خدمة جليلة أن نستريح من ضجيجهم طوال اليوم !!

لم تعلق الأم فقالت بثينة :

ـــ نرجو ألا يكونوا قد أزعجوا العروس ؟!

سأل عارف عبد العليم فى استياء :

ـــ ألم يمر يشكر أو مصطفى عليكم اليوم ؟!

ـــ مر مصطفى للتهنئة ووعد بحضور الزفاف .. أما يشكر فلم نره !

دخلوا القاعة الأرضية ذات الفسقية الرخامية النادرة وقد تلألأت بثريات

جديدة إضافية حتى تحولت إلى شمس متوهجة . جلسوا فى ركن منها ، فى حين بدت الكوشة الحالمة فى الركن المقابل . وكان البعض يجلس أو يثرثر أو يتحرك هنا وهناك . ثم ران الصمت بهبوط المعلم إلى القاعة وذهابه إلى أسرة العريس حيث سلم عليهم مرحبا بهم وخاصة بالأم التى لم تستطع التخلص من كآبتها الطاغية :

ــ أهلا بك يا معلم !!

ــ ألف مبروك !

ــ الله يبارك فيك !

حاول المعلم إشاعة البهجة فداعب عبد العليم :

ــ لا تتصور مدى سعادة قطر الندى بأطفالك ..لدرجة أنها لم تتركهم لحظة واحدة منذ وصولهم فى الصباح !!

ابتسم عبد العليم فى فخر لم ينكره :

ــ أدام الله السعادة على الجميع !

كان الشمطلى خلف المعلم يراقب الموقف عن كثب برغم أنه لم يلتقط كلمة واحدة مما قيل . كانت نظراته كالصواعق المحرقة على وجه عارف الذى تفاداه بعد أن تأكد أنه أكثر خطرا عليه من الكبش نفسه . استأذن المعلم الذى عاد إلى الصعود وفى أعقابه الشمطلى !

عاد الصمت مرة أخرى وإن كانت ضوضاء الأهالى الآتية من الخارج قد امتزجت بهدير المولد الكهربى برغم بعده . ومع ذلك لم يطغ على الهدير داخل الأم التى طاردتها صورة زوجها وقد عادوا به فى ذلك اليوم المشئوم من مشرحة زينهم بعد أن قضى ليلته هناك جثة هامدة ، كانوا قد وجدوها ملقاة فى شارع مجرى العيون وسط بركة من دماء . هل كتب عليها الكبش كقدر

يطاردها فى زوجها تم فى ابنها من بعده ؟! لم تجد إجابة مُقنعة وهى تختلس النظر من حين لآخر إلى ابنها لعلها ترى ما يمكن أن يكذب خواطرها وظنونها وهواجسها السوداء التى لم يخفف من وطأتها سوى دخول مصطفى الذى سلم عليهم وقبل ابنها مهنئا ثم جلس إلى جواره . وكانت سعادة عارف بصديقه لا توصف . سأله عن يشكر لكن مصطفى لم يره منذ يومين .

سرعان ما امتلأت القاعة عن آخرها . دخل أربعة رجال يحملون كعكة الزفاف العالية من ثلاثة طوابق ، ووضعوها على المائدة الطويلة الملاصقة للفسقية الرخامية . ثم وقفوا حولها بزيهم المملوكى وكأنهم يحرسونها . هبط الشمطلى ليسر فى أذن عارف ببعض كلمات مقتضبة نظر عارف على أثرها إلى كل من عبد العليم ومصطفى اللذين فهما قصده ، فساروا خلف الشمطلى صعودا إلى الطابق الأعلى . اجتاحت الأم موجة عاتية من الكآبة فصلت فى صمت إلى الله أن ينجى ابنها من مصير أبيه .

لم يكن قيظ اليوم شديدا ، ولذلك هبت نسمات لطيفة مع مغيب الشمس . وبرغم المشربيات المفتوحة والمراوح الكهربية الدائرة فى كل اتجاه تألقت حبات العرق على الجباه ، تمسحها المناديل البيضاء من حين لآخر ، ثم يستأنف المدعوون تأمل الآخرين بعيون حادة أو شاردة مع ثرثرة لم يهتم أحد بتبين معالمها .

وفجأة دوت الدفوف والطبول فى الدور العلوى بدقات تكاد تهز السلم الخشبى الذى أوشك أن ينهار تحت الأقدام المتتابعة للعوالم وحملة المشاعل فى زيهم المملوكى والذين كانوا أول من هبط إلى القاعة فى صفين متبوعين بالعوالم اللاتى يتمايلن يمنة ويسرة بأجساد بدينة شبه عارية ينضح منها العرق وتلهث منها الصدور وترتعش منها الأرداف . وفى نهاية الصفين تهادت تمر حنة فى رداء

وردى طويل لامع كشف عن تماوجات جسدها السمهرى ، ومنديل رأس من نفس اللون لكنه مطرز بحلقات ذهبية وفضية تكاد تحدث رنينا عند مداعباتها لبدايات ضفيرتيها الطويلتين الغليظتين العسليتين المرتعشتين مع إيقاعات الدفوف ، وهى تنثر بلورات الملح والعملات الفضية والنحاسية يمنة ويسرة .

خلف تمر حنة ظهر أطفال عبد العليم كالورود الصغيرة : صبيّان أكبرهما عشر سنوات ، والثانى خمس سنوات يرتديان حلتين سوداوين للسهرة فوق قميصين ناصعى البياض ، أما البنات فقد ارتدين فساتين وردية وفوق رءوسهن أكاليل من الزهور الدقيقة . وكانت كبراهن لا تزيد على الثامنة . أخذ الأطفال ينثرون أوراق الورد التى فاحت بشذاها بين الأجساد شبه المتلاصقة والوجوه المبهورة بمتابعة الموكب . وكان الأطفال فى قمة سعادتهم بملابسهم التى اشتراها لهم المعلم خصيصا لزفاف ابنته ، وبسلاسلهم الفضية المليئة بأوراق الورد البيضاء والحمراء والوردية ، وبشموعهم البيضاء الضخمة المتألقة .

ثم ظهرت قطر الندى بهجة ورواء وبهاء ، ذراعها فى ذراع عارف . انسابت طرحتها البيضاء إطارا لخصلات شعرها الأسود الطويل اللامع المنهمر على كتفيها . ازداد جسدها الرقيق نحافة داخل ثوبها الحريرى الأبيض المطرز بورود صغيرة وكبيرة من نفس لونه . أطل وجهها كالبدر فى استدارته . ومضت عيناها دون أن تتحولا عن الموكب . برز أنفها كلحن ساحر . استدارت شفتاها الرقيقتان كخاتم سليمان . حمل أطفال آخرون ذيل الطرحة .

شدت العيون كلها بخيوط خفية إلى النجمين المتألقين فى سماء القلعة ، وهما يذهبان لقطع كعكة الزفاف وسط وميض آلات التصوير وعزف الفرقة

الموسيقية التى انتحت ركنا بعد صمت الدفوف والطبول وانسحاب حملة المشاعل والعوالم . طغى لحن :

الحنـــــة يا الحنـــــة   يا قطـــــر النـــــدى

يا شبـاك حبيبى يا عينـــى   جلاب الهـــــــوى

بأصوات الجوقة على الضحكات والتعليقات ، فى حين أسرع عبد العليم ومصطفى للانضمام إلى بثينة والأم التى ترقرقت فى عينيها الدموع التى مسحتها مراراً .أما المعلم الكبش فوقف خلف ابنته يراقب الجميع بعينى الصقر وهو يتلقى التهانى ويرد على التحيات الحارة ، فى حين لم يطرف للشمطاء جفن .

انهال الواقفون حول المائدة على كعكة الزفاف بعد قطعها لدرجة أن بعض الأيادى لسعتها الشموع الضخمة المتناثرة حولها ، فى حين تراجع العروسان للجلوس على مقعديهما المذهبين تحت كوشة الفل والياسمين والتمر حنة . وبعد أن أتى جميع الحاضرين على الأخضر واليابس فوق الموائد ، سواءتلك التى مدت فى القاعة أو فى الفناء أو فى السرادق المحيط بالسراى ، قام الخدم والحشم المماليك بإزالة آثار المعركة ، واسترخى المدعوون فى مقاعدهم للاستماع إلى المطرب الشهير الذى جاء خصيصا للاشتراك فى إحياء الحفل الكبير .

وتوالت فقرات الحفل ما بين طرب ورقص وفكاهة حتى جاءت الفقرة التى أحياها الراوى بالعزف على الربابة والتغنى بالتاريخ الذى يعيد نفسه بعد أن بعثت قطر الندى إلى الحياة مرة أخرى لتشهد أيامنا وليالينا أمجاد الأيام الخوالى ، وليعود السلام ليعم الجميع . ولم ينته الراوى من فقرته إلا حوالى الثالثة صباحا حين عاد حملة المشاعل والعوالم لزفاف العروسين إلى أعلى .

أغلق الباب عليهما وانصرف المدعوون يجرون أقدامهم وكأنهم لا يريدون الاستيقاظ من هذا الحلم الجميل الذى أنساهم كل همومهم فى غفلة من الزمن . كانت قطر الندى سعيدة بضجيج المنصرفين حتى تخفى موجات الخجل التى أغرقتها بمجرد انفرادها بعريسها . كان بالنسبة لها عالما مجهولا يحتاج العمر كله لارتياده واستكشافه . لاحظت أن نظراته تحوم حولها كالفراشات حول النور فى جلستها على حافة الفراش الذى اكتسى بهودج جديد . كانت الثريا النحاسية المطعمة بالزجاج الملون فى منتصف المسافة مطفأة لكن المصباح الجانبى الخافت الملون المحاط بشبكة نحاسية مطرزة أرسل ضوءا فضيا كالقمر فزاد الغرفة غموضا وسحرا .

سرى السكون فى الأشياء بمجرد ابتعاد المدعوين. اكتشفت قطر الندى أن خير وسيلة لشغل الفراغ هى أن تفضى إليه بكل الخواطر والأسئلة التى احتبست فى صدرها منذ اللقاء الأول . قالت بابتسامة وجلى عندما انتقل من مقعده ليجلس إلى جوارها دون أن يلامسها :

ــ لم أكن أتصور أننى سألتقى بزوجى قبل الزفاف .. لكن الله حقق أمنيتى !

ربت عارف على ظهرها لأول مرة فشعر بارتعاشتها :

ــ كان لقاء كالحلم الناعس !

فجأة سألته دون مقدمات :

ــ لماذا اخترتنى أنا بالذات ؟! وكان فى إمكانك أن تظل طليقا وحرا فى اختيار من تشاء من الفتيات !!

ــ منذ رأيتك فى مغرب ذلك اليوم وشىء غامض لا يقاوم أكد لى أنك قدرى منذ أقدم العصور !

ــ إن الحواجز والسدود التى بيننا ما كان لأحد أن يجتازها .. لا أنت ولا أبى !! فكيف تم هذا ؟! إلى الآن لا أصدق أن ما حدث حدث !!

ــ لا أكذب عليك إذا قلت إننى أعانى من إحساس بعدم التصديق !

ــ لا أنكر إحساسى الغامر بالسعادة .. لكن خوفى عليك الآن طغى على خوفى من أبى !

أمسك كفها وانحنى عليها بقبلة خاشعة فتركتها تستريح فى كفه :

ــ هل تخافين أباك إلى هذا الحد ؟!

ــ أبى رجل جبارلا بد أن يتضاءل إلى جواره أى إنسان آخر !! وقد عشت فى عزلة تامة منذ رحيل أمى .. ثم تحولت هذه العزلة إلى سجن بعد أن حكم علىّ بعدم إتمام دراستى الثانوية !

قبل يدها بنفس الخشوع :

ــ أعدك بأن أزيل من طريقك كل ما يعوق حريتك !

ــ أخشى أن تفقد حريتك أنت أيضا فى محاولتك لإنقاذ حريتى !

أعجب بمنطقها المتماسك فى الحوار ، فزاد انبهاره بها وتذكر إيمان عبد العليم بذكائها وقدرتها العقلية الفائقة :

ــ إنك الآن زوجتى قبل أن تكونى ابنته !

ــ إنه يمتلك كل الذين يمتون إليه بصلة !

ــ ليس عارف النباش !

ــ لا تعرف كم شجعنى الأستاذ عبد العليم على إتمام دراستى وتعليمى ؟! وكم قاومت بقدر إمكانى حتى أحقق هذا الأمل ؟! لكن الحوار مع أبى كنطح الصخر !

ــ سأحقق لك كل ما حرمت منه !

ــ إذن .. فسنفتح بأيدينا باب الصراع على مصراعيه !

أطرقت برأسها فى حزن أحس به دون أن يرى وجهها الذى رفعه برقة مبتسما قائلا وهو يستمتع بملمسه :

ــ ألا ترين أننا نتكلم كما لو كنا أصدقاء وأحباء منذ زمن طويل ؟!

ــ سمعت عن أبيك وعنك كثيرا من الأستاذ عبد العليم .. لدرجة أننى تمنيت أن أراك منذ زمن طويل !

ــ برغم كل ما بين أسرتينا ؟!

ــ ليس لى يد فى مثل هذه الأمور ! وكان من الممكن أن يرفض أبى خطبتك لى دون أن أعرف شيئا عن رفضه !!

عشق صراحتها ونقاءها فتمنى أن يفتديها بعمره :

ــ إنه لشيء عجيب بل ومذهل أن يوافق أبوك على زواجنا بهذه البساطة .. ويقيم لنا حفلا بهذه الروعة !!

ــ هناك أمور كثيرة لا أدرى عنها شيئا !

احتوى كتفها بذراعه فى حرارة متصاعدة :

ــ هل سنقضى الليل بطوله فى مناقشة كل الأمور ؟! ثم نفاجأ ببزوغ نور الفجر ونحن فى جلستنا هذه !!

اهتزت تحت ذراعه لكن بلا رعشة هذه المرة . لم تعد تشعر بحدة الخجل فآثرت الصمت والسكون بل السكينة التى بدأت فى السريان فى قلبها وهى بين ذراعيه . ظلت طوال حياتها تعانى من إحساس بخطر غامض يتهددها ، لكنها معه دخلت فى حصن تمنت أن يكون حصينا . تركت أصابعه الرقيقة تفك مشابك طرحتها دون أن يؤلم شعرها بشدة عفوية . أخذ الطرحة بين ذراعيه كما لو كان يحملها هى ووضعها على المقعد المجاور . عاد إلى احتضانها

بلسعة من شفتيه على وجنتها اليمنى . لفحت أنفاسه أذنها فشعرت بحمرتها دون أن تراها . أدار وجهها فتحولت خطوطه إلى حلم فى ضوء المصباح الفضى نام وجهها بين كفيه كالطفل فى مهده الوثير الدافىء . قرب شفتيه حتى لامست شفتيها لتبادل حديث عجزت عنه الألسنة ، حديث النبضات المتدفقة لا الكلمات المتلهفة . فارق شفتيها فهمست كحفيف أوراق الورد فى الربيع :

ـــ هل تريد ضوء المصباح ؟!

ـــ لا أشبع من رؤية وجهك الساحر !

ـــ كما تحب !

احتواها بين أحضانه ومال بها حتى وضع رأسها على الوسادة . أغمضت عينيها عندما تسللت أصابعه تحت ظهرها لفك مشابك ردائها . لم تدر إلا والرداء يتسلل بعيدا تاركا جسدها شبه عار . امتزج الحلم باليقظة فتركت نفسها لموجات النشوة التى أشعلتها لمساته الرقيقة كالسحر . كانت أنامل ساحر فتحت لها أبواب عالم الجنيات والحوريات بين الوديان والغابات المسحورة التى كشف جسدها عنها عندما لامس جسده . ركبت معه زورق الأحلام الذى قاده وسط ينابيع المياه الساخنة الفوارة وموسيقى صادحة من جوف الكهوف :

الجنـــــة يا الجنـــــة يا قطـــــر النـــــدى

يا شباك حبيبى يا عينـــى جلاب الهـــــوى

طاش صواب الشمطلى عندما تأكد من التقارب النامى بين الكبش وعارف . لكنه اشترك مع عارف فى أن الوقت لم يكن يمر لصالحهما . كان التقارب النامى يعنى فجوة جديدة بين الكبش والشمطلى لا بد أن تأخذ فى الاتساع والسقوط فيها فى النهاية . فالحقيقة البشعة الجاثمة عليه كالكابوس تؤكد أنه زوج ابنته أما هو فلا يرتفع فوق مرتبة الخدم إلا بقليل . أما عارف فقد وجد أن التقارب النامى لم يعن سوى تباعد متزايد بينه وبين شباب القلعة ، خاصة بعد أن استأنف يشكر ندوة صباح الجمعة وبلغه من المعلم نفسه أنه اتهمه علانية بالانتهازية والخيانة وبيع قضيتهم للعدو . والدليل أنه امتنع عن حضور الندوة بعد زواجه . ولم يخف المعلم رغبته الصريحة فى ذهاب عارف ومواجهة يشكر فى الندوة لدحض افتراءاته حتى لا يفسد فكر الشباب ، وإلا فإنه سيعرف كيف يوقفه عند حده بطريقته الخاصة .

لم يكن فى حسبان عارف أن تتعقد الأمور بهذه السرعة المخيفة التى تحتم عليه الحرب فى عدة جبهات فى وقت واحد . كان من المفروض فى يشكر أن يتفهم موقفه وهدفه ، فصداقتهما كانت صداقة العمر ، ولا يصح أن يتهمه هكذا علانية وكأنه يريد أن يحل محله فى قلوب الشباب وعقولهم . ولو اعتدى أحد رجال المعلم على يشكر فلا بد أن الأهالى سيظنون أن هذا الاعتداء من تدبير عارف . ولا يعرف أحد المدى الذى يمكن أن يصل إليه الكبش فى إيقاف يشكر عند حده ! حينئذ لن ينتفع يشكر بعضلاته المفتولة وألعاب القوى والمصارعة التى يمارسها . فرجال الكبش يضربون خلسة حيث

لا يتوقع خصمهم ، ويرتكبون أبشع الجرائم ثم يخرجون منها كالشعرة من العجين .

لم يعد عارف يتمتع بتركيزه المعتاد فى دراسته . فمنذ زواجه لم ينجز شيئا له قيمة حقيقية فى رسالته للماجستير . كلما جلس إلى مكتبه الذى يقع فى الغرفة المجاورة لغرفة نومه ليستأنف أبحاثه ، شرد ذهنه فى موضوعات متداخلة ، متشابكة ، معقدة . وكثيرا ما أبحر به التفكير إلى الثانية أو الثالثة صباحا دون أن يصل إلى بر . وكانت قطر الندى تشعر بحساسيتها المفرطة بكل ما يعتمل داخله ، لكنها آثرت الصمت لأن الموقف كان أكبر من مجرد أن تبدى فيه رأيا قد يزيد من حرجه وتوتره . خاصة وأن التفاؤل لم يعرف طريقه إليها منذ البداية . ولعل الهدوء البادى عليها ، كان نتيجة استسلامها التام لما تأتى به الأيام . ويكفيها لحظات السعادة التى اختلستها مع عارف والتى لم تكن تراودها حتى فى الأحلام . كم كانت سعيدة عندما أخذها ذات عصر لزيارة أمه وأسرته تلبية لدعوة للعشاء حيث شعرت لأول مرة بدفء الأسرة ومعناها ! لكنها فى الوقت نفسه كانت تدرك بحاستها المرهفة التى لا تخطىء أن أباها تركها تذهب معه للزيارة لرغبته فى تفادى المواجهة منذ البداية . فهى أدرى به ! ولذلك كانت فى منتهى الحرص عندما حاولت ثمر حنة استدراجها فى الحديث لتقص عليها كل تفاصيل الزيارة ! فلم تعد تستريح لها بل وعبرت عن إحساسها هذا لزوجها مباشرة ، وكانت دهشتها أنه يشاركها فيه تماما .

لو كانت ظروفهما طبيعية لكانا أسعد زوجين فى العالم ! لكنه يجلس الآن إلى مكتبه موزعا بين أمه التى تعيش فى شقتها وحيدة حزينة تجتر آلامها وذكرياتها المرة ولا تجد من يملأ حياتها برغم وجود بثينة وأسرتها الصاخبة فى

الشقة العليا . فقد ظلت تحلم باليوم الذى تشاركها فيه زوجة ابنها خدمته ورعايته ، وتساعدها على طرد وحشة الشقة الكبيرة بعد رحيل زوجها ، وعندما جاء هذا اليوم طار من يدها ابنها وهى فى أشد الحاجةإليه ، فى حين لم يشعر الكبش بحاجته إلى ابنته التى قد يمر أسبوع بأكمله دون أن يراها .

كان عارف موزعا بين أمه وبين شباب القلعة الذين آمنوا به . دخل هذا البيت من أجلهم . قد تكون قطر الندى سببا خاصا ، لكنهم كانوا الدافع العام حتى يرفع الغشاوة عن أعينهم ، ويحفزهم لتغيير مجرى حياتهم الذى أصابه الركود والعفن . لكن مضى شهران حتى الآن ولم يعرف من البيت سوى غرفة نومه وغرفة مكتبه التى كثيرا ما تناول فيها طعامه مع قطر الندى . فعيون الشمطلى وتمر حنة ترصد حركاتهما ليل نهار مما ذكره بكلمة زوجته فى ليلة الزفاف عندما عبرت عن خشيتها من ضياع حريته فى محاولته لإنقاذ حريتها ! كم كانت بعيدة النظر ! من يده فى الماء ليس كمن يده فى النار ! وها هو قد دخل النار بقدميه وعليه أن يجتاز التجربة بأسرع ما يمكن وإلا احترق بها .

كان ممزقا أيضا بين أمه وشباب القلعة وقطر الندى التى تنتظر الآن حدثا سعيدا وهى التى لم تعرف حياتها الأحداث السعيدة . كيف سيولد طفله فى مثل هذه الظروف ؟ لكن حبه لزوجته أصبح جارفا وأراد أن يتوِّجه بمولود يربط بينهما إلى الأبد برغم كل الظروف المحيطة بهما ! لكن المعلم لمح له عندما علم بنبأ الحمل بأن اسم الكبش لن يندثر لأن هناك دائما من سيحمله ! لكن عارفا لم يشأ أن يفتح الصراع ويؤكد له أن ابنه سيحمل اسم النباش بطبيعة الأمر ، فسبعة شهور قادمة لا بد أن تحمل فى بطنها ما لا يخطر على بال ، وعليه أن يتجنب المعارك الجانبية أو التى لم يحن أوانها بعد حتى لا تجرفه الأيام

بعيدا عن معركته الفاصلة .

كان ضائعا بين أمه وشباب القلعة وقطر الندى والشمطلى الذى كانت ابتسامته تقطر سما . لم تحدث بينهما أية مواجهة صريحة لكن عينيه قالتا أشياء مرعبة . كان يتعمد الجلوس عند باب غرفته التى تقع فى نهاية الممر الذى يبدأ بغرفة قطر الندى حتى يحصى حركاته وسكناته . بل إنه أرسل وراءه ذات مرة أحد صبيته حتى الجامعة وتجرأ على حضور محاضرة له . فأدرك عارف أن الشمطلى يبحث عن أية ثغرة كى ينفذ منها إليه ويحطمه تماما . وبذلك نجح فى عزله تماما عن الحياة ذاتها سواء داخل بيته أو خارجه . خاصة وأن شباب القلعة أصبحوا يتفادونه الآن للتهرب من مجرد السلام عليه فى الشوارع والأزقة وإن كان بعض الانتهازيين قد حاولوا التمسح به طمعا فى مغنم سريع . وكان المعلم قد طلب من الشمطلى أن يعلمه قيادة السيارات حتى يذهب إلى الجامعة فى واحدة منها ، لكن الشمطلى ظل يسوف حتى الآن .

رفع عارف رأسه من بين كفيه فوق المكتب عندما دقت ساعة الحائط أمامه الثانية والنصف صباحا . لم يجد جدوى فى السهر بعد ذلك . فهو لم يخط كلمة ولم يقرأ سطرا منذ أن تسلل فى العاشرة والنصف من غرفته بعد نوم قطر الندى . يا لها من كارثة لو عجز عن إتمام رسالته كعجزه الآن عن التقدم خطوة واحدة فى سبيل ما أتى من أجله ! لمح خيالا من باب غرفة مكتبه المفتوح فى ضوء الممر الخافت فتعجب لذلك الذى يسير فى مثل هذه الساعة . تلاشى شروده وانداحت خواطره فنهض مسرعا خارجا فإذ به يكاد يصطدم بتمر حنة التى وقفت فى منتصف الممر فى رداء أصفر طويل شفاف ، ضيق يكاد يشع بسخونة جسدها الأسمر الذى برزت وديانه وتلاله وقمم جباله كالينابيع الفوارة والحمم البركانية برغم برودة أكتوبر المبكرة .

كان على وشك أن ينهرها لكنه تمالك نفسه :

ـــ ما الذى أبقاك يقظة حتى الآن ؟!

أجابت بشفتين مكتنزتين لا معتين منذرتين بسيل لعابها :

ـــ أحسست بحركة فى غرفتك يا سيدى فانتابنى القلق ونهضت للاطمئنان !

لأول مرة تخاطبه بلفظ السيادة بعد أن اعتاد أن تناديه بالأستاذ . كان على وشك أن يأمرها بالعودة إلى غرفتها لكن فكرة جهنمية طرأت على تفكيره فى لحظات كالبرق . إنها تحاول أن تغريه لا شك فى ذلك ، لعلها مدفوعة فى ذلك من الكبش أو الشمطلى وإلا لما واجهته بهذا الرداء الفاجر فى مثل هذه الساعة المتأخرة الباردة . ويبدو أنها على استعداد تام للقيام بدور الأداة لمن يستخدمها ، فقد جاءت من قريتها المشهورة بالغجر والغوازى فقيرة معدمة لا تملك سوى هذا الجمال الوحشى الشيطانى . أين دهاؤك يا عارف ؟! هل أنساك حبك الجارف لقطر الندى أنك تعيش فى وكر الأفاعى ؟!

ـــ جفانى النوم فى هذه الليلة فجلست فى مكتبى .. ويبدو أنه لا يزال بعيد المنال !

تلوى جسدها مع تألق وميض عينيها :

ـــ هل أسليك يا سيدى حتى يداعبك النوم ؟!

أوقف ابتسامة كانت على وشك الولادة :

ـــ لا مانع !

عاد فجلس إلى مكتبه . جلست على السجادة قرب قدميه فأشار إلى المقعد الملاصق للمكتب :

ـــ اجلسى هنا !

أسبلت عينيها وأطاحت بضفيرتيها خلف ظهرها :

ـــ لا يصح يا سيدى .. فالعين لا تعلو على الحاجب !

ظل مشيرا إلى المقعد فنهضت وجلست ناظرة إلى قدميها ومتظاهرة بالحياء لكنه لم يضع وقتا :

ـــ هل تذكرين يا تمر حنة أول مرة قابلت فيها قطر الندى ؟!

غرقت فى بحور الحياء والخجل :

ـــ اغفر لى يا سيدى وقاحتى فى ذلك اليوم !! كانت مهمتى أن أحمى قطر الندى من أى غريب متطفل !!

سرح عارف ببصره فى الزخارف العربية المذهبة والحمراء والزرقاء التى تغطى السقف :

ـــ ولا أزال غريبا متطفلا ؟!

تظاهرت بالدهشة وهى تصعقها :

ـــ لا تقل مثل هذا الكلام ياسيدى .. فأنت سيد هذا البيت بعد المعلم طبعا !

ـــ لو كنت كما تقولين لعرفت هذا البيت خير معرفة .. فأنا حتى الآن لم أعرف سوى غرفة نومى وغرفة مكتبى .. وغرفة المعلم عندما يستدعينى للكلام وقضاء السهرة معه !

مدت ذراعها الخمرية العارية على المكتب وتركتها :

ـــ وهل يجرؤ أحد على منعك يا سيدى من أن تتجول كما تشاء ؟!

ـــ القضية أن أحداً لم يدلنى !!

ـــ الأمر كله ليس فى حاجة إلى دليل !

داعبت أنامله بعض الكتب المرصوصة أمامه فى لا مبالاة واضحة :

ــ يقولون مثلا إن هناك سردابا يؤدى إلى غرفة فى بطن الأرض ؟! وأنا شخصيا لم أر سردابا أو غرفة ؟!

مدت ذراعها حتى وضعتها على الكتب التى داعبها :

ــ تقصد .. الغرفة التى تحتوى على الخزانة وسر القلعة ؟!

تردد متلعثما بعض الشىء :

ــ لا أقصدها على وجه التحديد .. وإنما أقصد السراى بصفة عامة !

اسندت رأسها على ذراعها فى دلال متناوم :

ــ هذه الغرفة لا يدخلها سوى المعلم .. وأحيانا الشمطلى لتنظيفها !

ــ ألم تدخليها أبداً ؟!

ــ أبداً !

ــ إذن .. فأنت لا تعرفين مكانها أيضا ؟!

ربت على كفها مبتسما فسرت سخونتها فى ذراعه . ابتسمت بعينين تسيلان إغراء :

ــ وحتى لو قلت لك عن مكانها .. فلن تدخلها أبدا !

تراجع بمقعده إلى الخلف :

ــ ومن قال لك إننى أريد دخولها ؟!

خافت أن يطير العصفور من يدها :

ــ لم أقصد يا سيدى شيئا من هذا القبيل !

أطفأ المصباح النحاسي المزركش على مكتبه فلم يتبق سوى ضوء قنديل في ركن خلفه :

ــ على كل حال .. لا يهمنى أن أعرف شيئا .. فلولا ضغط المعلم علىّ لكنت الآن أعيش مع زوجتى فى بيتى !

ــ سأقول لك يا سيدى عن مكان الغرفة .. لكن عدنى بألا يعرف أحد أننى أفشيت لك هذا السر !!
ــ طبعا أعدك .. ولو أننى غير مهتم بهذا الموضوع أساسا !
انكب على مكتبه مرة أخرى فجرت بطن كفها على ظاهر كفه فلم يسحبها :
ــ فداك عمرى يا سيدى .. إن مدخل السرداب من بئر الحوش !
اشتعل وجهه بحب الاستطلاع لكنه تماسك صامتا فاستأنفت :
ــ هذه البئر خالية من المياه .. والسلم الحجرى داخلها يؤدى إلى السرداب الذى ينتهى بالغرفة والخزانة !
تظاهر بمنتهى اللامبالاة :
ــ ومن هو هذا المجنون الذى يمكن أن يدخل مكانا كهذا ؟!
ــ إنه مكان ملىء بالأشباح والأرواح من أصدقاء المعلم والشمطلى .. لكنهاأعداء أى انسان آخر .. ويمكن أن تزهق روحه بمجرد هبوطه !!
تذكر عارف فى حمية الإثارة أن كفها لا تزال تنام على كفه فسحبها منها ، لكنها نهضت ودارت حول المكتب حتى ألصقت فخذيها بكتفه وبمسند مقعده ثم مالت عليه حتى كادت شفتاها أن تلتصق برأسه :
ــ تحت أمرك ياسيدى فى كل ما تطلبه !
هم بالابتعاد بمقعده عنها فى نفس اللحظة التى رأى فيها الشمطلى يسد الباب بعباءته البيضاء اللامعة ذات الخطوط السوداء الرفيعة . ابتسم الشمطلى متشفيا كما لو كان قد ضبطه متلبسا . قال فيما يشبه الإنذار المباشر لثمر حنة ، وغير المباشر لعارف :
ــ ماذا تفعلين هنا يا بنت ؟!

تلعثمت تمر حنة واحمر وجهها على غير عادتها فعادت إلى اغلاق فمها دون كلمة واضحة . أدرك عارف الموقف فى لحظات فقرر فتح جبهة الشمطلى :

ـــ ليس لك أن تحاسبها عما تفعله هنا !

ـــ لك حق فى هذا !! لكن من حقى أن أقوم بحراسة القصر ليلا .. وأن أعرف ما يدور فيه !! فهو مسئوليتى أولا وأخيرا !

كانت تمر حنة قد وقفت فى منتصف المسافة بينهما فأمرها عارف بحسم عال :

ـــ اذهبى إلى غرفتك ولا تخرجى منها !

كان الشمطلى لا يزال يسد الباب عندما واجهته تمر حنة . نظر إليها نظرة ذات معنى ثم أمسك بذراعها فى عنف آلمها :

ـــ سأقص على المعلم كل شىء يا فاجرة !

ثم استدار وألقى بها خارج الغرفة . صاح عارف :

ـــ سأعرف كيف أوقفك عند حدك !

لكن الشمطلى كان قد اختفى . خرج عارف لاهثا فوجد الممر ساكنا كئيبا خاويا ، فى حين فتحت قطر الندى باب غرفتها وهى تتثاءب متسائلة :

ـــ هل كنت تصيح يا حبيبى ؟! إنك ترهق نفسك فى الدراسة كثيرا !! كم الساعة الآن ؟!

أسرع إليها واحتواها إلى داخل الغرفة ثم أغلق الباب . أنامها مرة أخرى كطفل فى مهده :

ـــ آسف على إزعاجك يا حبيبتى !!

قبلها ونام إلى جوارها . لم ترد ، فسرعان ما غطت فى نومها البرىء .
قبلها مرة أخرى وهو يكاد يرى وجهها فى الظلام :

ـــ نامى يا ملاكى فى أمان الله !

استلقى على ظهره . لا يزال النعاس عزيزا . لا بد أن الشمطلى سيطعنه فى أخلاقه عند المعلم ! كانت مؤامرة مكشوفه نسجها معها ! لكنه لن يستبق الحوادث لأنه لا يعرف اتجاه النوايا ! وربما عجل ما حدث الليلة بالمواجهة الشاملة ! لعله يريد الإيقاع بينه وبين قطر الندى ! لكن ثقتها فيه عظيمة ، بل أصبح كل شىء فى حياتها ! لكن يجب أن يحتفظ باتزانه ! وهو لن يخسر أكثر مما خسره وإن كان قد فاز بقطر الندى برغم وجودها ضمن الصفقة الخاسرة ، كما فاز الليلة بمعرفة موقع الخزانة إن لم تكن قد كذبت عليه .

آه !! رأسه يكاد ينفجر ! من أين يبدأ ؟! هل بمواجهة الشمطلى والدخول معه فى اختبار للقوة ولا يهم ما سوف يسفر عنه ؟! أم بالذهاب مباشرة إلى الخزانة وتفجير الموقف ؟! وماذا لو عجز عن فتح الخزانة ؟! صحيح أن عبد العليم كان قد أخذه قبل زفافه إلى خبير خزائن من أصدقائه المقربين ودربه عدة مرات على أنواع الخزائن المختلفة وأقفالها ؟ ثم أمده عبد العليم بحقيبة تحتوى على مفاتيح لابد أن تفتح أية خزانة ، أخذها معه فى غفلة من قطر الندى فى أثناء دعوة أسرته لهما على العشاء ! وهو يحملها معه دائما على أنها حقيبة كتبه برغم ثقلها ! إنها يمكن أن تكون خزانة من طراز عتيق يستعصى على مثل هذه المفاتيح ! وحتى إذا استجابت له ، هل سيتركه الشمطلى يصل إليها وهو الذى يرصد أنفاسه وهمساته وليس مجرد حركاته وسكناته ؟! لا بد أن تتم هذه المهمة فى غياب كل من الكبش والشمطلى فى

ان واحد ! لكن كيف يتم هذا ومتى ؟! كذلك فإن البئر فى الفناء الذى يسهر فيه كل من ديب ونمر وفهد للحراسة الليلية بالذات !

لأول مرة تبدو المهمة مستحيلة ؟ فهل كان يشكر وأمه وكل الذين عارضوه على حق ؟! لأول مرة يشعر أنه فى فخ لا يمكن الفكاك منه إلا بوقوع ضحايا لا بد أنه سيكون أولهم . فهل جاء إلى هنا لمجرد أن يضحى بنفسه بهذه البساطة ؟! وما ذنب المسكينة الراقدة إلى جواره كى تطحن بين شقى الرحى ؟! هل كان متهورا ومندفعا وطائشا عندما أصر على فعل ما فعله ؟! لقد أراد أن يفعل شيئا مذهلا يوقظ به الأهالى من غفوتهم ووهمهم بعد أن أصبحت الأوضاع المقلوبة الظالمة أمرا واقعا يتنفسونه فى كل لحظة كشىء طبيعى للغاية ليس له بديل ! فهل يمكن أن يصبح أضحوكة الأصدقاء قبل الأعداء ؟! إنه لا يستطيع أن يفعل شيئا الآن سوى انتظار اللحظة المناسبة ، فمتى تحل ؟! وهل يمكن أن تأتى بعد فوات الأوان ، بعد أن يكون قد خسر كل أوراقه التى تضيع منها ورقة مع كل يوم يمر دون أن يفعل شيئا ؟! لن يسمح بهذا حتى لو فجر الموقف بطريقة شمشون ! كل أمله أن ينفجر الموقف قبل أن ينفجر رأسه الذى تتزايد عليه الضغوط يوما بعد يوم دون أمل فى انفراج ! يكفى أن الكبش أصبح يلح عليه الآن للذهاب إلى المقهى ومواجهة يشكر فى ندوة الجمعة ، وهو الشىء الذى لن يفعله حتى لو دفع حياته ثمنا له ! وماذا سيكون مصير أمه لو وقع له مكروه ؟! وهى التى تتوقع أن تتكرر مأساة أبيه فيه ؟!

ضغط على رأسه بكفيه وهو يحملق فى علامات الاستفهام المعتمة المتراقصة أمام عينيه فى ظلام الغرفة ! إنه لم يقصد غير الخير للجميع فهل يكون هذا جزاؤه ؟! إن الله أعلم بنقاء سريرته ولا يمكن أن تتخلى العناية

الإلهية عمن نذر حياته للحق والحقيقة.تساقطت بعض قطرات باردة على تلال همومه الحارقة لكن النوم لم يأت فى أعقابها كما تمنى !

— ٩ —

ظل سلوك المعلم الكبش عاديا للغاية تجاه عارف الذى اعتقد أن الشمطلى لم يقص عليه شيئا خوفا من أن تدور الدوائر عليه هو نفسه . بل إن الشمطلى أصبح أكثر سماحة ورقة فى حركاته لدرجة أن عارفا فكر فى احتمال أن يكون المعلم قد نهره لسلوكه السخيف فى تلك الليلة . لكن قلق عارف تزايد لأن الفرصة المرتقبة لم تحل بعد ، ثم بلغ قمة لم يبلغها من قبل عندما لا حظ فى عودته أو فى ذهابه إلى الجامعة أن بعض الشباب الذى كان يتجنبه عند لقائه فى طرقات القلعة ، أصبح يبصق على الأرض كلما رآه . ظن فى أول الأمر أنها مجرد مصادفة ، ولكن عندما تكررت ألقى بالسلام على من بصق ، فنظر إليه بمنتهى الاحتقار ومضى فى سبيله دون أن يرد عليه . كذلك شعر بأمه فى زياراته المنتظمة لها للاطمئنان عليها ، وكأنها محرجة فى أن تحدثه فى موضوع قد يعكر صفوه الذى لم يعد فى حاجة إلى مزيد من التعكير . عندئذ قرر الحصول على اعترافها حتى لو أجبرها عليه . لكن الأمر لم يكن فى حاجة إلى أى إجبار ، فبمجرد مفاتحتها تدفقت كلماتها لتقص عليه محاولة رجال الكبش للاعتداء على يشكر فى غابة الكافور الصغيرة التى تقع خلف خزان المياه بالقلعة . لكنه استطاع أن يرد العدوان الأثيم فى جنح الظلام ، وأن يستغل عضلاته المفتولة وقدراته فى الملاكمة والمصارعة فى إصابة اثنين منهم إصابات جسيمة، لدرجة أن الثالث ولى هاربا . ولذلك فإن إصابات يشكر لم تكن فى حاجة إلى إدخاله المستشفى ، إذ أنها كانت مجرد كدمات وجروح سطحية. لكنه أصبح بطل القلعة دون منازع وفى نظر

الشباب خاصة ، الشباب الذين أيقنوا ان عارفا كان وراء هذا الاعتداء !

غلى الدم فى رأس عارف ودارت به الدنيا لكنه تماسك وهو فى طريقه إلى السراى . تذكر أنه لم ير كلا من نمر وديب منذ حوالى أسبوع . وعندما بلغ البوابة لم ير فعلا سوى فهد . تباسط معه متسائلا فى ابتسام عن نمر وديب فقال له فى اقتضاب إنهما فى مهمة خاصة للمعلم . عبر الفناء وكانت الشمس فى طريقها إلى الغروب عندما وجد الشمطلى يقف عند مدخل القاعة الأرضية مرحبا مبتسما وهو يطلب منه التوجه فورا إلى المعلم الذى ظل فى انتظاره منذ أكثر من ساعة . تساءل فى قلق :

ــ خيرا ؟!

ابتسم الشمطلى مجيبا وهو يفسح له الطريق :

ــ وكيف لى أن أتجسس على الأمور الخاصة بينكما ؟!

عبر عارف القاعة واندفع فوق درجات السلم الخشبى مخترقا الممر حتى بلغ غرفة المعلم . توقف قليلا حتى لا يدخل لاهثا . كان الباب مفتوحا فتماسك ودخل حيث كان المعلم مستمتعا بتدخين نارجيلته الفاخرةأمام المشربية المفتوحة التى تقبع القاهرة كلها عند أقدامها . ابتسم المعلم مقربا أحد المقاعد إلى مقعده :

ــ أخيرا .. اجلس !!

جلس عارف دون أن ينبس ببنت شفة . ربت المعلم على كتفه :

ــ أنت الآن يا عارف الابن الذى منّ الله به علىّ .. ولذلك آثرت أن أفضى إليك بأسرارى حتى تحل محلى فى السراى فى أثناء غيبتى .. فمسئوليتك لم تعد قاصرة على قطر الندى !

أجاب عارف وهو يرقب الأشعة الذهبية الغاربة ·

ـــ إنه لشرف كبير !! أرجو أن أكون على مستوى المسئولية !!
خفض من صوته حتى بلغ درجة الهمس :
ـــ منذ يومين أو ثلاثة تأكدت من أن روح الحاكم بأمر الله قد تقمصتنى وبدأت تدفعنى إلى تكرار خطواته .. فبعد أن كنت أختفى فى تكية الدراويش أو مجرى العيون أمرنى الحاكم بأمر الله أن أختفى مثله فى جبل المقطم ! وهو اختفاء ليس بإرادتى كما تعلم !

كانت أول معلومات تاريخية صحيحة يدلى بها الكبش مما أثار دهشة عارف الذى قال مؤمنا :

ـــ فعلا .. كما تقول حضرتك .. اشتهر الحاكم بأمر الله بأنه اعتزل الدنيا كلها .. فكان يجلس فى مكان مظلم لا يدخل عليه أحد .. أو يخرج هائما على وجهه فى الصحراء .. أو يصعد الى جبل المقطم يستغيث بالله !!

لكنه لم يقل للكبش إن الحاكم بأمر الله خرج يوم الثلاثاء الموافق ١٣ فبراير سنة ١٠٢١ ميلادية تحت جنح ظلام كثيف ليتوغل بمفرده فى الدروب المهجورة للمقطم .. ومنذ تلك الليلة الحالكة الموغلة فى البعد ، لم يعثر له على جثة حتى الآن !

لاحظ الكبش شرود عارف وصمته ففاجأه :

ـــ لماذا توقفت عن حديثك المثير ؟!

خرج من شروده بأسرع ما يستطيع :

ـــ أبداً .. فى انتظار حديث حضرتك !

وضع مبسم النارجيلة على طبقها النحاسى بعد أن أطلق من فمه وأنفه سحابات من الدخان الصافى المعطر :

ـــ الليلة سأخرج إلى خلوتى الجديدة فى المقطم .. وربما بقيت هناك

يومين أو ثلاثة .. ولذلك أريدك أن تحل محلى فى غيبتى .. خاصة وأن الشمطلى سيغيب هذه الليلة فى مهمة كلفته بها .. ولا يزال نمر وديب يقومان بتخليص بعض البضائع فى جمرك بور سعيد .. أى أن الوحيد الذى سيبقى للحراسة هو فهد .. وربما انتهز الفرصة وغاب هو أيضا لقضاء الليلة عند زوجته الجديدة !!

هل يمكن أن يتحول الأمل إلى ثغرة فى جدار اليأس ؟! ثم تتسع هذه الثغرة فيغشى ضياؤها بصره الذى اعتاد الظلام ؟! ثم ينفذ منها لتحقيق أمله العزيز ؟؟ وقع وسط خضم مشاعر حادة وعنيفة ومتلاطمة لكنه سرعان ما أدرك خطورة الموقف وتظاهر باللامبالاة ثم الخوف من المسئولية الجديدة :

— وماذا يمكن أن يحدث لو تسلل فهد وغاب هو أيضا ؟!

— أبداً !! عليك بإبلاغ الشمطلى عندما يحضر صباحا !!

تمادى فى أسئلته عامداً :

— وهل هناك خطورة ما على القصر إذا غاب كل الحراس ؟!

نظر المعلم إلى خاتمه الياقوتى الذى لمع مع آخر شعاع غارب :

— إن الحراس الحقيقيين للقصر هم الهيبة والخوف والغموض .. لا الشمطلى أو غيره من الرجال ! كذلك لا تنس الأرواح والأشباح !

ثم ابتسم إحدى ابتساماته النادرة :

— لم يجرؤ أحد على الاقتراب من القصر والحديث مع أحد ساكنيه سواك !! وكان صديقك مصطفى قد حاول الاقتراب قبلك .. لكنه ولى الأدبار عندما وجد الشرر يتطاير من عيون رجالى !

— أرجو أن أكون عند حسن ظنك يامعلم !

ركز عينيه الواسعتين السوداوين المشعتين بوميض كاد يشل نظرات

عارف إليه . داعب مقبض عصاه العاجى الذى نحت على شكل رأس كبش بقرنين ملتفين على شكل دائرة كاملة :

ـــ إن ثقتى بك ياعارف لا حدود لها .. ولذلك سيكون اعتمادى عليك كاملا !

تأمل عارف عمامته البيضاء الناصعة المتربعة على رأسه الذى تسلل المشيب أسفله مع طرف من قماشها ارتاح على كتفه اليمنى ، ثم المشيب الذى تألق فوق الشعر الكث لحاجبه المقوسين وشاربه العريض المدبب عند طرفيه . كان عارف فى تأمله يبحث عن كلمات على المستوى نفسه :

ـــ إنها مسئولية جسيمة !

ـــ وأنت لها !

دق المعلم الأرض بعصاه ثم نهض مربتا على كتف عارف الذى انتفض واقفا بإحساس الذى أوشك على خوض امتحان عسير :

ـــ أتركك الآن لتجهيز نفسى للخلوة .. فالخطوات طويلة ومعقدة !

ـــ تحت أمر حضرتك !

* * *

استأذن عارف لحاجة شديدة إلى خلوة من نوع آخر ! خلوة مع نفسه كى يجهز نفسه أيضا ! خلوة قد تكون خطواتها طويلة ومعقدة لكنها حتما خطيرة ! أسرع إلى غرفة مكتبه وأوصد بابها . لم يستطع الجلوس وظل يذرعها جيئة وذهابا كالأسد الحبيس فى قفصه ! هل يعقل أن تنقلب الأمور من حال إلى حال بهذه السرعة المذهلة ؟! هل يمكن أن يكون فى الأمر حيلة أو خدعة أو مؤامرة ؟! لكنه خبر من قبل مؤامرة الشمطلى مع تمرحنة

وكانت من السذاجة الطفولية بحيث لم تترك أى أثر ! بل إن مكانته ارتفعت عند المعلم لدرجة قد تقتل الشمطلى كمدا وحسدا وحقدا ! إن الحذر المبالغ فيه قد يضيع الفرصة إلى الأبد بعد أن أوشك على فقدان الأمل فيها تماما ! وحتى لو كان فى الأمر خدعة فإن الموقف لم يعد يحتمل التأجيل ! وعلى أسوأ الفروض فإنه سيفجر الموقف على رأسه وعلى أعدائه !

تذكر حقيبته فأسرع إليها وفتحها للاطمئنان على محتوياتها : حلقة المفاتيح المتعددة ، وآلة التصوير الدقيقة التى سيلتقط بها صور الخزانة من الداخل والخارج ، والبطارية الصغيرة التى سيضيىء بها طريقه فى السرداب إلى الغرفة الرهيبة ، والتى كان يستخدمها فى إضاءة سلم بيته عند عودته ليلا . أما أمه فلم تستعملها أبداً لعدم مغادرتها منزلها بعد الغروب . وكان شكه قاتلا فى أعقاب محاولة تمر حنة معه ، فأراد أن يقطعه باليقين عندما ترك حقيبة المفاتيح فى درج مكتبه دون أن يغلقه، مع وضع المفاتيح فى حلقتها على شكل أشعة الشمس ، فى حين أخفى آلة التصوير والبطارية فى مكان آخر . لكن المفاتيح ظلت على شكلها مما يدل على أن أحدا لم يقربها .

سمع طرقات خفيفة على الباب الموصد فعرف أنها أصابع قطر الندى . أخفى الحقيبة فى درجها ثم جلس إلى مكتبه فى سرعة البرق متظاهرا بقراءة أحد الكتب :

ــ تفضل !

فتح الباب ودخلت قطر الندى فى روب نبيذى فشل فى إخفاء شحوبها :

ــ قلقت عليك ! لماذا لم تمر علىّ بمجرد وصولك ؟! هل تناولت غداءك ؟! يبدو عليك التوتر ! هل هناك ما تخفيه عن حبيبتك ؟!

نهض من مكانه وقد احتضنها إلى الأريكة الصغيرة حيث أجلسها إلى

جواره وعيناه تفيضان حنانا دافقا :

ـــ عندما وصلت يا حبيبتى استدعانى أبوك فوراً !

ـــ هل وقع مكروه ؟!

ربت على وجنتها :

ـــ أبداً .. أخبرنى أنه سيذهب إلى خلوة جديدة فى المقطم .. وحملنى مسئولية البيت فى غيابه .. خاصة وأنه لن يوجد سوى فهد لحراسته !

داعبت أناملها أزرار قميصه :

ـــ هل تناولت غداءك ؟!

ـــ ليست لى شهية !

ـــ اترك لى هذا الكلام .. فليست لى شهية الآن إلا للفسيخ والخيار والمانجو !!

قبلها فى وجنتها :

ـــ هل تعتقدين فى الوحم ؟!

استكان رأسها على كتفه :

ـــ الزوجة تحب دائما أن يدللها زوجها لدرجة تلبية طلباتها غير المعقولة وغير المناسبة !

ـــ أصبحت تحللين كل ظاهرة بأسلوب علمي فى منتهى النضوج !

ـــ لم أعرف التلمذة الحقيقية إلا على يدى الأستاذ عبد العليم ثم على يديك !

ثم تسللت من بين ذراعيه واقفة :

ـــ سأعد لك طعام الغداء وسأحضره لك هنا ! فلا بد أن تتغذى جيدا لأنك ترهق نفسك كثيرا فى المحاضرات والرسالة !

قبل أن يفتح فمه بكلمة كانت قد تلاشت من الغرفة كالطيف . شعر بوحشة عندما هاجمته خواطره مرة أخرى . فما هو مقدم عليه ليس بالأمر الهين ! لكن ليس منه بد ! سمع محرك عربة تغادر الجراج فقفز واقفا خلف المشربية فوجد عربة الكبش منطلقة صوب السيدة زينب . لمح عمامة المعلم الذى جلس فى المقعد الخلفى ، وذراع الشمطلى الذى قادها . كانت سمرة المغيب قد أصبحت داكنة منذرة بالحلول المبكر لليالى أكتوبر ، فى حين اكتسى الكون بغلالة رطبة أوحت ببرود أعالى المقطم الذى سيقضى فيه المعلم ليلته على حد قوله ! فربما اعتاد قضاء ليالى الخلوة مع حسناء هيفاء مثيرة غامضة لا يعرفها أحد ! فلا يعقل أن حياة هذا الجبار تخلو من النساء ! مهما كان منكبا طوال الوقت على اكتناز الثروات وإخضاع العباد لسطوته وبطشه ! أما التأمل والتصوف والتعبد فلافتات يرفعها المعلم أمام البسطاء حتى يزدادوا يقينا بأن سره باتع فعلا !

اختفت العربة تاركة سحابتها الترابية ، وعاد عارف إلى مقعده محاولا الاسترخاء . فأشد ما يحتاج إليه فى هذه اللحظات ، هدوء الأعصاب وصفاء الذهن ! لكنه عاد إلى ضرب أخماسه فى أسداسه حتى دخلت قطر الندى تدفع أمامها عربة من الخشب الزان المطعم بالصدف ، تحمل لحوما مشوية ومطبوخة هاجمت أنفه لكنها لم تفتح شهيته . تذكر بعض الشباب الذى اعتاد حضور ندوته الأسبوعية ، والذى يعمل فى مشروعات الكبش ، تذكر كيف أخبره أن اللحم لا يعرف بيته إلا فى عيد الأضحى وفى مناسبات أخرى قليلة ، قد تأتى وقد لا تأتى .

جاءت قطر الندى بمقعد وجلست قبالة عارف الذى لم ترحب نظراته بالمائدة المتحركة الزاخرة بأطايب الطعام . داعبته زوجته :

ــ سأظل جالسة أراقبك حتى تأكل .. فاللحم والسمك من صنع يدى !! لم أعد أسمح لتمر حنة لطهى طعامك !!

ــ لن آكل إلا إذا أكلت !

ــ سبقتك !

مد يده مترددا فضحكت :

ــ إذا كنت ترغب فى أن أدللك فسأطعمك بيدى !

تناول يدها من على المائدة الصغيرة وقبلها :

ــ لا حرمنى الله منك أبدا !

وشرع فى طعامه ببطء شديد وبكميات قليلة لا ضطراب المعدة والأمعاء التى شاركته قلقه . أتى على كل زجاجات المياه الغازية مما أثار دهشة قطر الندى :

ــ هل هناك ما يقلقك ؟!

ابتسم محرجا فى ضيق بحركاته التى أوشكت أن تفضحه :

ــ أبداً .. فأنا مرهق بعض الشيء !

ــ إذاً .. قم ونم .. فقد أصبحت فترات نومك قصيرة جدا فى الأيام الأخيرة !

ليست بالسذاجة التى تصورها بها . فهى تملك من الحساسية المفرطة ما يجعلها تلتقط التغيرات التى طرأت عليه مهما كانت طفيفة ومهما حاول تغطيتها . التقط الخيط منها :

ــ عندك حق .. سأقوم لأغفو قليلا !

نهض إلى غرفة النوم حيث استلقى على فراشه مغمضا عينيه فى محاولة لا دعاء النوم الذى عز عليه . بعد فترة وجيزة جاءت زوجته . أغلقت الباب واسترخت إلى جواره . شعر بنفسها يداعب وجهه . رأى وجهها من

انفراجة عينه اليمنى التى لم تلحظها . كانت عيناها تفيضان حنانا وحبا . قبلت وجنته ثم شفتيه ثم نهضت لتجلس خلف مشربيتها تشاهد أضواء القاهرة فى ليلة غاب فيها القمر .

تراوح بين لحظات اليقظة ولحظات الغفوة لكنه لم يتقلب فى فراشه تظاهرا بالنوم العميق . رأى فى غفوته البئر والسرداب والغرفة المظلمة والخزانة المغلقة التى استعصت عليه . كما تحطمت آلة التصوير فى حين فقدت البطارية الصغيرة قدرتها على إضاءة الغرفة . تنبه إلى أن هذا النوع من النوم يجهده أكثر من اليقظة ، فنهض متثائبا وهو يتمطى فى استمتاع لذيذ بنومه العميق . أسرعت إليه قطر الندى تاركة المشربية وهى تحيطه بذراعيها :

ـــ الآن يمكنك الدراسة بصفاء ذهن لا بد أن يضاعف تحصيلك !

ربت على ظهرها . ألقى بالبيجاما وارتدى قميصه وبنطلونه فدهشت :

ـــ إلى أين ؟!

ـــ إلى غرفة المكتب !

ـــ ولماذا تغير البيجاما ؟!

تلعثم لكنه قال :

ـــ ربما زارنى زميل لى فى الجامعة هذا المساء !

ثم أسرع خارجا إلى غرفة مكتبه بعد أن طلب فنجانا من القهوة السادة . فتح مرجعا من المراجع القليلة التى أحضرها من مكتبة أبيه والتى كان يعيدها بمجرد الانتهاء منها لإحساسه الدفين بأن وجوده فى عرين الكبش على كف عفريت . تاهت عيناه بين السطور لم يلتقط منها معنى واحدا . احتسى فنجان القهوة فشد أعصابه وزاد من توتره لكنه لم يضاعف من تنبهه .

ظل يتقلب بين السطور والصفحات ، بين الأفكار والشطحات ، بين

الهواجس والاحتمالات ، حتى فتحت قطر الندى بابه المغلق وأطلت برأسها الجميل :

ــ تصبح على خير .. لا ترهق نفسك أكثر من اللازم !

ــ وأنت من أهله يا حبيبتى !

اختفت مغلقة الباب فرأى الساعة تقترب من الثانية عشرة . جاءته تمر حنة فظنها مؤامرة جديدة لكن النعاس كان يغالبها :

ــ فليسمح لى سيدى بالنوم ! فأنا لا أستطيع أن أرفع رأسى من التعب !! هل تريد أية خدمة ؟!

ــ شكرا ! فلن أسهر طويلا !!

اختفت تمر حنة وهو يشعر أن الظروف كلها تساند خطته . لم يبق سوى فهد ، فهل تزول هذه العقبة أيضا ؟! ترك غرفته إلى الفناء فوجد مقعد فهد شاغرا . هل يعقل أن تتفق الظروف بهذا الشكل ؟! فتح مزلاج البوابة لعله يجلس خارجها فى تلك الليلة الحالكة الظلمة لكنه لم يجد له أثرا !! إذا .. من الذى أغلق المزلاج من الداخل ؟! لابد أنها تمر حنة كى تسهل له مهمة قضاء الليلة عند زوجته الجديدة ! إن المعلم الكبش يعرف النفوس التى يتعامل معها تماما . فهل يعرفه بنفس هذه الدقة ؟!

أعاد إغلاق المزلاج وأسرع الى حقيبته . فهذه هى اللحظة التى رسمتها الأقدار له . لحظة فريدة لن تتكرر ولو انتظرها ألف عام ! نسى مخاوفه وهواجسه فى حمية الإقدام على العمل الحاسم . حتى غياب القمر لم يثر أحاسيس الوحشة داخله بل وجد فيه اتفاقا عجيبا مع الظروف التى أوشكت أن تتكلم وتقول له إنها ليلته ! حمل الحقيبة وسار بقدمين خفيفتين كاد أن يطير بهما . عبر القاعة الأرضية فى ضوء القنديل الخافت وهو يتلفت

يمنة ويسرة . خرج إلى الفناء وانحرف تجاه البئر . كانت أشد حلكة من ظلام الليلة . لكنه كان قد عاين فوهتها منذ يومين عند نزوله صباحا فى غفلة من فهد ! تحسس بقدمه قضبان السلم الحديدى المثبت فى جدارها حتى عثر على أول قضيب . تشبث بحقيبته الصغيرة وهو يهبط فى بطء وحرص شديدين على السلم حتى وجد قدمه تلامس أرضا حجرية صلبة فعرف أنه بلغ القاع . فتح حقيبته وأخرج البطارية وعلى ضوئها الخافت رأى ممراً عريضاً ينحنى ويتلوى عدة مرات بحيث لا تبدو له نهاية ، على نقيض ما تصور أن باب الغرفة يقع فى نهايته مباشرة .

سار مع المنحنيات والالتواءات الأولى فسمع همسات مثل تلك التى سمعها عند لقائه الأول مع الكبش . حاول أن يتبين حقيقتها لكنه لم يعرف ! هل يمكن أن تكون الأشباح والأرواح حقيقة ملموسة فى هذا المكان ؟! إنه لا يؤمن بما يسمى بالأماكن المسكونة وعليه أن يطرد مثل هذه الخرافات من فكره ! لكن الهمسات تعلو دون أن يتبين فيها كلمات مفهومة ! امتزجت الهمسات برائحة بخور زكية نفاذة أثارت فى أنفه خدرا خانقا فسعل ! ومع ذلك لم يعبأ بهذه الظواهر الغريبة مهما كانت ومهما كان سببها ! أخرج آلة التصوير فإن ضوءها الباهر الخاطف يمكن أن يكشف ويسجل ما لا تستطيعه عيناه . سار يمنة ويسرة مع انحناءات السرداب وهو يومض بالآلة ملتقطا بعض الصور للجدران حتى بلغ بقعة دائرية رحبة من الجدران الحجرية التى يقطعها باب حديدى تآكل من الصدأ . تصاعدت الهمسات مصحوبة بدبيب أقدام وسط البخور الذى تحول إلى سحابات كثيفة . ومع ذلك تقدم فى محاولة لفتح الباب . لكن المحاولة توقفت فجأة بصوت كالرعد :

ـــ الى أين يا لص ؟!

تردد الصوت عدة مرات بين منحنيات السرداب إلى أن تلاشى ، لكن عارف تبين فى الظلام ثلاثة أشباح فى عباءات سوداء ، خطف أحدها آلة التصوير وحطمها تماما بقدم ثقيلة على الأرض الحجرية ، والثانى اختطف الحقيبة فى حين أضاء الثالث ضوءا كاد أن يصيبه بالعمى ، ومع ذلك أدرك أبعاد الكابوس فى لحظات خاطفة وتبين صوت الكبش الذى صاح فيه وهو يحاول تغطية وجهه منعا للضوء فى عينيه :

ـــ فعلا .. أثبت أنك عند حسن ظنى ! آمنتك على بيتى .. وعلى كل شىء ؟! فتتصرف فيه كاللصوص !

كان الشمطلى قد فتح الحقيبة وأخرج حلقة المفاتيح التى أمسك بها الكبش ملوحا :

ـــ لولا أنك زوج ابنتى لخنقتك بها ؟! أو لتركتك تواجه الموت بفتح الخزانة داخل الغرفة ؟! لكننى لا أحب أن أهبط معك إلى دركك الأسفل !! حتى يعلم الجميع مدى كرمى وحقيقة قلبى الكبير ! حتى الأرواح والأشباح منعتها من أن تخنقك ! اصعد أمامى فورا فحسابك لا بد أن يتم أمام زوجتك التى لا تستحق قلامة ظفرها ! زوجتك التى منحتك قلبها وكل شىء ولم تحصل منك سوى على الخيانة والغدر ! اصعد !! اصعد !!

تردد صدى الصوت الرهيب بين منحنيات السرداب ، فى حين استدار عارف ليعود أدراجه دون أن يتفوه بحرف . لم يشعر بالندم وهو يصعد متشبثا بالسلم الحديدى ، بل سرى فى داخله ارتياح من طفح قيحه على سطح جلده فبردت سخونته التى كانت تمور داخله . خرج من فوهة البئر وخلفه الرجال الثلاثة . ذهب فهد إلى مقعده الشاغر خلف البوابة ، فى حين سار

الكبش وخلفه عارف والشمطلى الذى أطفأ ضوءه المبهر . فى القاعة الأرضية توقف الشمطلى فرأى عارف وجهه فى ضوء القنديل ، والتشفى يقطر منه . انحنى للكبش :

ــ سأظل هنا انتظارا لأوامر سيادتك !

صعد الكبش على السلم الخشبى وبيده الحقيبة وخلفه عارف الذى لم يفكر فيما سوف يحدث تاركا الأمور تجرى فى أعنتها . فقد انتقل من مرحلة المناورة إلى مرحلة المواجهة ولم يعد هناك ما يخاف عليه سوى قطر الندى . فتح الكبش غرفة قطر الندى فوجدها تغط فى نوم عميق ، ومع ذلك دخل محدثا ضجيجا بحذائه اللامع الضخم وقائلا بصوت عال وهو يجلس على مقعد مواجه للفراش فى حين ظل عارف واقفا فى تحفز لم يخف على الكبش :

ــ اجلس .. فلا بد من محاسبتك عما فعلته !

تقلبت قطر الندى فى فراشها كما لو كانت تعانى من كابوس لكنها لم تستيقظ . جلس عارف عند قدميها حتى لا يقف أمامه كالمتهم :

ــ ليس هناك ما تحاسبنى أو تحاكمنى عليه !

ــ إنك تصرفت كاللصوص تماما !

ــ يمكنك إبلاغ الشرطة . فهى السلطة التى لها حق محاسبة المخطئين .. أما أنت فلا تمثل أية سلطة على الإطلاق !

واجه الكبش الجانب الآخر من عارف لأول مرة :

ــ لا أسمح لك بأن تخاطبنى بهذه اللهجة !

ــ لم أذكر سوى حقائق .. فى حين اتهمتنى باللصوصية دون وجه حق !

ــ وبماذا تسمى ما فعلته ؟!

— إذا لم يكن من حقى أن أتجول كما أشاء فى البيت .. فهذا ليس بيتى ولا يصح أن أبقى فيه أكثر من هذا !

الملعون يواصل تحديه والمعلم لا يعرف كيف يوقفه عند حده :

— لعل هذا من خوفى عليك !

— من يخاف على إنسان لا يتهمه باللصوصية .. كما أننى حريص على نفسى بعد أن وعيت درس أبى جيداً !

غلى الدم فى عرؤق المعلم لكنه تماسك عندما فتحت قطر الندى عينيْها وتقلبت بهما بينهما ، فتنبهت إلى أن الكلمات التى اصطكت بأذنيها لم تكن أضغاث أحلام وإنما هى جدل متبادل بين أبيها وزوجها . جلست فى الفراش بجمرة عينيها وهى تتساءل فى لهفة وجزع :

— خيراً .. هل وقع مكروه ؟!

استأنف المعلم هجومه كى يستميل ابنته إلى جانبه :

— أبداً .. ضبط زوجك المصون وهو يتسلل عبر السرداب إلى الغرفة المغلقة ومعه حلقة مفاتيح وآلة تصوير !!

لم تستوعب قطر الندى كلماته لأول وهلة ، لكنها نظرت إلى عارف نظرات تقطر شجنا وانكسارا فى بحثها عن كلمات لكن زوجها وفر عليها الجهد :

— اتهمنى أبوك باللصوصية .. ولذ لك لن أبقى هنا لحظة واحدة !! هيا يا قطر الندى إلى بيت زوجك !

تمنت قطر الندى أن يكون ما تمر به كابوسا . لكن صوت المعلم الصارخ أكد لها الحقيقة المرة :

— قف عند حدك !! ابنتى لن تغادر بيتها !!

ـــ إنها زوجتى أولا .. وابنتك ثانيا !!
ـــ كانت طول عمرها ابنتى وستظل .. أما الزوجة فيمكن أن تنتفى عنها هذه الصفة فى لحظة عابرة من الزمن !!
ـــ هذا يتوقف على قرار زوجها ! وأبى ابنها الذى سيحمل اسمه من بعده !
ـــ أنت كما قال الشمطلى تماما .. لا تعرف لنفسك حدوداً !
ـــ مشكلتى معك أننى أعرف حدودى تماما !
صرخت قطر الندى متضرعة وهى تدفن رأسها بين ركبتيها وذراعيها باكية :
ـــ كفى !! كفى !! هل كتب علىّ العذاب حتى أموت ؟!
تراجع المعلم بنبرات جوفاء حتى لا يتفجر الموقف فى اتجاه لا يعرف مداه :
ـــ لأول مرة .. أترك لك القرار يا قطر الندى !
ظن أنها ستضل طريقها فى سرداب التفكير الحائر لكنها على غير انتظار رفعت رأسها وسألت زوجها فى حسم واضح :
ـــ هل كنت بالنسبة لك مجرد وسيلة لدخول البيت ؟! أم أننى كنت غاية من غاياتك التى لا أعرفها ؟!
ظن المعلم أنها أصابته فى مقتل لكنه أجاب فى منتهى الهدوء :
ـــ العبرة عندى دائما بالأعمال .. أما الأقوال فأمرها سهل !
سأله المعلم فى حسم :
ـــ ماذا تقصد ؟!
ـــ أقصد أننى لن أتخلى عنها حتى لو وضعت السكين على رقبتى !

انفرجت أساريرها بعض الشيء مما ضاعف من حنق أبيها :

ـــ ليكن فى علمك أنها لم ولن تغادر بيت أبيها !

ـــ سأترك لها القرار .. فلن يقرر مصيرها أحد سواها !

شعرت قطر الندى بالعيون المركزة عليها وكأنها سهام تخترق كل جزء فى جسدها . كم عانت من خوف دفين من المستقبل !، لكنها لم تتوقع أن ينهار حلمها السعيد فى لحظات كابوسية وبمثل هذه السرعة . دارت بعينيها الحائرتين بينهما بحثا عن الإجابة التى صمتا فى انتظارها . إنها لحظة حاسمة تحتاج إلى كل طاقتها فى التفكير المتزن ! لو تركت المنزل مع زوجها لما استطاع أبوها أن يمسك نفسه عن الانتقام ! فهى أدرى بأبيها ! ولو انفصلت عن زوجها فإن حياتها ستتحول إلى صحراء جرداء لا تملك فيها سوى ذكريات شهرين وتسعة أيام ، وسينزف قلب عارف لفراقها ! فهى أدرى بمدى ارتباطه بها ! هل يعقل أن يحكم عليها بالسلبية والعزلة طوال حياتها ثم يطلب منها فجأة بعد منتصف الليل أن تقرر مصيرها بيدها ؟ لكن هناك حقيقة واضحة راسخة كقلعة الكبش ذاتها وهى أن حبها لعارف لا يعنى سوى حرصها على مستقبله وخوفها على حياته . ولذلك يجب أن تحنى رأسها للعاصفة حتى لو آلمته ! ربما أساء فهمها لكن من يعرف ما سوف تأتى به الأيام ؟ هل خطر على بالها ما يحدث الآن ؟!

لم يحتمل الكبش لحظات صمتها فحاول استمالتها :

ـــ مستحيل أن يتعارض رأيك مع رأيى !! فأنت ابنتى وأنا أدرى بك !

استجمعت قطر الندى كل أطراف شجاعتها المبعثرة ، فخرجت كلماتها إلى زوجها بطيئة هادئة برغم الزلزال الذى يمور تحتها :

ـــ أنت تعرف قدرك عندى جيدا يا عارف .. لكننى لا أستطيع أن

أهجر بيت أبى !

كاد المعلم أن يصفق طربا لكنه سرعان ما عاد إلى وقاره الذى طفح على عينيه مع ومضات التشفى :

ــ الظفر لا يخرج من اللحم !

لم يعرف عارف هل كان قرارها صادرا عن خوف من أبيها أو خوف على زوجها ، لكنه أدرك فى الحال أن هذا لا ينفصل عن ذاك !

أجاب وهو يحتويها بعينيه :

ــ ومع ذلك فإن هجرى للبيت لا يعنى هجرك على الإطلاق !

لم يحدث أن تراجع المعلم إلا مرات معدودة فى حياته ، منها هذه المرة :

ــ وما الداعى للهجرة أساسا ؟!

استأنف عارف النباش زحفه :

ــ لا أستطيع أن أعيش فى بيت به مناطق محرمة علىّ !

ــ ما فعلته كان من خوفى عليك وأبوتى لك ! وعندما تنجب بإذن الله ستدرك المعنى الحقيقى للأبوة ! لن تسمح لابنك بالاقتراب من هذه الأماكن المحرمة !

ــ ألم تقل لحكماء القلعة وكبرائها لا بد من وجود من يفتح الخزانة ويطلع على السر حتى يخلفك بعد عمر طويل ؟!

ــ أولا .. لا بد أن يكون من صلبى .. وثانيا .. لن أسمح لأحد بالوصول إلى الخزانة إلا عندما أتأكد من أن أيامى قد أصبحت معدودة .. عندئذ سأفضى إليه بكيفية فتحها حتى لا يصيبه مكروه .. فإن مستقبل القلعة هو همى الأكبر !

ــ لا تظن يا معلم أننى طمحت فى يوم من الأيام كى أخلفك .. فإن

طريقينا فى الحياة مختلفان تماما !!

تدفقت موجات الارتياح على وجه قطر الندى فاكتسحت أمامها التجاعيد المشدودة مما أعاد للكبش ضيقه المتحفز :

ـــ إياك أن تقول إن دخولك السراى كان بهدف الزواج من ابنتى !

ـــ لن أقول شيئا على الإطلاق .. فإن من حقى الاحتفاظ بأسرارى مثلك تماما !!

ـــ كنت أظن أننى الوحيد الذى يخفى سرا كبيرا فى القلعة !

ـــ هناك أسرار بعدد أهالى القلعة .. وإذا خرجت هذه الأسرار إلى العلن فربما تغير شكل الحياة كلية فى القلعة !!

ـــ ماذا تقصد ؟!

ـــ أبداً .. سأجمع حاجياتى القليلة .. فلم يعد لى وجود فى هذا البيت ولو للحظة واحدة .. فهو ليس بيتى على أية حال !!

نهض عارف فى حسم افتقده من زمن ، لكن الكبش استأنف حديثه بسخرية طارئة :

ـــ يبدو أنك أعددت نفسك لهذه اللحظة منذ أن دخلت السراى ؟!

انحنى نصف انحناءة فى حين تشبثت عينا قطر الندى به فى ضراعة :

ـــ عن إذنكم !!

اتجه إلى دولاب ملابسه وأخرج حقيبته وشرع فى ترتيب ملابسه القليلة داخلها فى هدوء بالغ . لم يستطع الكبش أن يمنع نفسه من الصراخ فى ابنته :

ـــ أليست لك عليه أية سيطرة ؟! .

نظرت إليه فى انكسار شديد :

ـــ القرار لكما هذه المرة ! فليس فى وسعى أن أفعل شيئا !

سدد إليه سهام عينيه النارية التى لم يرها عارف :
ـــ خروجك بهذا الشكل لا يعنى سوى طلاقك منها !
التفت إليه عارف من على قمة التحدى :
ـــ لا أعتقد أنك ترضى بأن يعيش حفيدك يتيما .. إلا إذا كنت تصر على الإجهاض كما تصر على الطلاق الآن !
دق المعلم الأرض بعصاه الغليظة دقة أوشكت أن تقفز بقطر الندى من فراشها ، ثم أعقبها بصراخ متشنج لم تسمع مثله من قبل :
ـــ اخرج من بيتى يا لعين ! اخرج من قصرى يا شيطان !
لم يهتز عارف برغم انتفاضات زوجته :
ـــ لا داعى للصراخ ! فلقد قلت لك إن هذا ما أنوى أن أفعله تماما !
نهض المعلم وقد تحول تنفسه إلى ما يشبه الشخير . خرج دون أن يستطيع كتمان صوت الندم داخله : كانت غلطة عمرى !.. كانت غلطة عمرى !
وبمجرد أن تلاشى الصوت ، شعر عارف ببشائر النصر برغم فشله فى الوصول إلى الخزانة . جاء اليوم الذى أصبح فيه الكبش عجوزا تندب حظها العاثر ! أغلق حقيبته واستدار فوجد قطر الندى قابعة كتمثال حجرى :
ـــ لا أستطيع يا حبيبتى أن أشرح لك أكثر مما سمعت .. لكن أرجو ألا تسيئى فهمى ! إنه فراق مؤقت .. ولا بد أن تعود الأمور إلى مجاريها الطبيعية فى يوم من الأيام ! إن ما يدور فى القلعة هو ضد الطبيعة تماما !
لم ترد وظلت عيناها دون حركة فى محجريهما . جلس إلى جوارها واحتواها فى صدره فأجهشت بالبكاء وظلت تنتفض بين ذراعيه كحمامة أصابتها رصاصة صياد . ضمها فى عنف بالغ فتشبثت به :
ـــ ما هذا الكابوس الذى أراك فيه تهجرنى هكذا بعد أن عرفت معنى

الحياة وطعمها معك ؟!

ــ إذا أخذتك معي فأنت أدرى بما سوف يقع لى ؟!

ــ حياتى فداء لك !!

انهال على وجهها وعنقها وصدرها بالقبلات وهو يلهث بكلمات متقطعة على حافة البكاء :

ــ سأتصل بك يوميا بالتليفون !

ــ سيفرضون حظرا عليه !

ــ إذاً .. اتصلى أنت بى كلما حانت لك الفرصة ! ويمكنك رشوة تمر حنة .. فهى قادرة على أن تأتى بالأعاجيب !

ــ لكنها كانت فى صفهم دائما !

ــ إن من يتآمر ضدك .. يمكنه أن يتآمر معك طالما أنك قادرة على شرائه بسعر أعلى !

ــ تعلمت منك فى هذين الشهرين ما لم أتعلمه طول حياتى !

ــ الأيام أمامنا طويلة وممتدة .. والمستقبل لنا مهما بدت العقبات مستحيلة !

ــ ليت لى عزمك وإرادتك وتفاؤلك !

ــ إنك قوية دون أن تدرى ! يكفى أنك تحملت هذه الحياة التى لم أحتملها لمدة شهرين فقط !

احتضنته بدورها :

ــ ولماذا لا ترحل فى الصباح ؟! بوسعنا أن نسرق لحظات أخرى من الزمن !

ــ ربما جرفتنا العواطف فى هذه اللحظات الرهيبة !

زاد تشبثها به فربت على بطنها فى حنان متدفق بالدعابة الرقيقة :
ـــ لن تشعرى بالوحشة .. فقد تركت لك من يؤنس وحشتك !
ـــ إنه الشعاع الوحيد المضىء فى حياتى بعدك !

خاف عارف من جيشان العواطف واحتمالات دواماتها الهادرة فتخلص منها فى رفق ووقف إلى جوارها :

ـــ سأخرج من هنا بجسدى فقط .. أما روحى فتركتها معك ومع طفلنا !

أمسكت بيده فقبلها وتخلص منها بسرعة فى طريقه إلى غرفة المكتب حيث دس مراجعه القليلة فى الحقيبة . وجدها فى أعقابه . ربت على وجنتيها فى لهفة أسرعت به إلى خارج الغرفة وهى فى أعقابه حتى باب غرفتها :

ـــ أرجوك .. لا تضاعفى من صعوبة الأمور وتعقيدها ! اعتبرينى مسافرا لفترة أعود بعدها ! كما أن المسافة بيننا لن تزيد على ربع ساعة سيرا على الأقدام !

تقدم نحو بداية السلم الخشبى لكنها أسرعت خلفه ، فأمسك بيدها بعنف وأعادها إلى مدخل غرفتها :

ـــ أتريدين أن يراك الشمطلى ورجاله بقميصك هذا ؟!

أدخلها غرفتها وأوصد الباب دونها وقبضات حديدية تعتصر قلبه . سار بحقيبته هابطا كالسهم لا يلوى على شىء . كان الشمطلى لا يزال جالسا فى القاعة إلى جوار الفسقية الرخامية . انبسطت أساريره عند رؤية الحقيبة وأسرع مقدما خدماته الأخوية :

ـــ لا يصح أن تسير كل هذه المسافة بهذه الحقيبة الثقيلة .. سأحضر العربة لتوصيلك !

واجهه عارف بوجه منحوت من الصخر :

ــ احتفظ بخدماتك لنفسك ولسيدك يا شمطلى !

ــ حقك علىّ .. خيراً تعمل شراً تلقى !

خرج إلى الفناء فأسرع فهد إلى فتح البوابة له وفى لحظة كان عارف يشق طريقه إلى بيته . كانت الساعة قد تجاوزت الثالثة صباحا ، وبرغم الظلام المخيم فى غياب القمر فقد خيل له أنه يرى أضواء الفجر على البعد . لم يشعر بثقل الحقيبة ولا بلسعة البرد . توقف عقله عن التنسيق بين الأفكار المتزاحمة والخواطر المتلاطمة والمشاعر الجامحة فتركه نهبا لها حتى هبط على سلم الكبش فى ضوء المصابيح الخافتة المعلقة على مداخل المنازل الوادعة المتواضعة . تذكر البطارية الصغيرة وكيف أنها وقعت من يده مع آلة التصوير التى تحطمت تحت أقدام الكبش . صعد على درجات سلم البيت فى حذر بالغ وأدار المفتاح فى الباب فى حذر أشد ، لكن بمجرد سيره فى ضوء المصباح الصغير فى الصالة سمع صوت أمه يلهج فى خوف :

ــ من هناك ؟!

ــ أنا عارف يا ماما !! لا تنزعجى !

سمع صرير فراشها ، وسطع ضوء الغرفة فترك حقيبته وأسرع إليها فوجد الخوف يقفز بكلمات من عينيها وفمها :

ــ ماذا جرى يا حبيبى ؟! هل وقع مكروه ؟! ما الذى أتى بك فى مثل هذه الساعة ؟!

عاد بها إلى الفراش وهو يحتضنها مطمئنا حتى أجلسها :

ــ كل خير .. كل خير .. لا تنزعجى .. سأقص عليك كل شىء !!

أفسحت له مكانا إلى جوارها فجلس وهو يكاد يشعر بدقات قلبها :

ـــ أرجوك يا بنى !! قلبى يكاد يتوقف !

بدأ عارف يقص عليها كل التفاصيل المثيرة وهى تلهث وراءه حتى تستوعب كل كلمة من فمه حتى تسللت أنوار الفجر من بين خصاص النافذة ، ومعها طلائع الإجهاد والنعاس على وجهه . تركته ينام بملابسه وجلست إلى جواره ترقبه بعينين متدفقتين بالدمع والحنان والحب والخوف من احتمالات المستقبل .

انعقدت الندوة كالمعتاد فى المقهى صباح كل جمعة . التف الشباب حول يشكر ومصطفى فى حوار هادئ ، يبدو كما لو كان قد فقد كثيرا من بريقه الذى ارتبط بوجود عارف وشخصيته الآسرة . سأل أحد الشباب الذى واظب على حضور الندوة منذ بدايتها الأولى :

ـــ هل من جديد ؟!

كان السؤال موجها إلى مصطفى الذى أدرك فى الحال أنه عن عارف . وقد تكرر هذا السؤال فى الشهرين الماضيين عدة مرات برغم هجوم يشكر المستمر على عارف . أعمل مصطفى تفكيره بحثا عن إجابة تؤكد استمرار تعاطفه مع عارف لكن لكن حيرته بدت واضحة للجميع برغم عينيه المختفيتين خلف نظارته السميكة الداكنة . هرش شعره الأكرت فومض الاخضرار فى عينى يشكر الذى برزت عضلاته تحت قميصه الخفيف برغم برودة أكتوبر وذراعه اليسرى المعلقة فى عنقه برباط أبيض لا يزال يلتف حولها ، وضمادة ملتصقة بأعلى الحاجب الأيسر . أجاب يشكر الشاب نيابة عن مصطفى :

ـــ لا جديد .. ويجب ألا نتوقع أى جديد .. فالفترة الماضية كفيلة بتأكيد ما اعتبرناه مجرد ظنون أو شكوك ! كما أنه من الخطأ أن نربط المسيرة بشخص .. مهما كان هذا الشخص ! وإلا تحول كفاحنا إلى مجرد عبادة لهذا الشخص .. لا فرق فى هذا بين كبش ونباش .. فالأول يفرض علينا عبادته .. والآخر يسعى بطرقه الخاصة كى يحل محله !!

والدليل على ذلك أنهما التقيا وأصبحا جبهة واحدة !

رفع مصطفى نظارته عن عينيه ليمسحها بمنديله ثم أعادها مرة أخرى في شبه تلعثم دون أن ينظر إلى أحد بعينه :

ــ فليسمح لى الأستاذ يشكر أن أقول إنه من الصعب إصدار الحكم على أشخاص لا نعرف الكثير عن ظروفهم الخاصة .. وربما أثبتت الأيام سوء ظننا بهم !

علق يشكر بأسلوب خطابى موجه للحاضرين :

ــ لا أظن أنه لم يكن على علم بالكمين الذى نصبه لى المجرمون فى الظلام !! ماذا كان يمكن أن يقع لى لو لم أكن أجيد الملاكمة والكاراتيه ؟ لم يعد فى الأمر أى شك ! وحرام أن نضيع معظم جلساتنا فى الحديث عنه ! والأحرى بنا أن نناقش كيفية مواجهته مع الكبش ! وإلا أصبح أسوأ قدوة فى الانتهازية والخيانة لشباب القلعة !

قبل أن ينتهى يشكر من جملته الأخيرة وجد العيون تتحول عنه إلى مدخل المقهى الزجاجى ، وقد تحجرت فى ذهول . نظر مع مصطفى فى الاتجاه نفسه حيث كان عارف واقفا مبتسما فى مزيج من الحرج والإعياء الذى وشت به الهالات الداكنة حول عينيه اللتين أعلنت حمرتهما الخفيفة عن سهر ممض أو نوم متقطع . عشش الصمت على رءوس الحاضرين ولم يسمع سوى نداء بائع جائل فى شارع قلعة الكبش يتغنى بحلاوة نبوت الغفير وسد الحنك التى أنتجها المصنع الجديد الذى أنشأه الكبش .

تحرك عارف إلى أن اقترب من مصطفى ويشكر قائلا بصوت مجهد :

ــ السلام عليكم !!

رد البعض فى حين عقد الذهول ألسنة البعض الآخر . وقف مصطفى

ثم يشكر لا يعرفان ماذا يقولان أو يفعلان حتى مد عارف يده بالسلام الحار على مصطفى واحتضنه بشوق بالغ . تحول ذهول يشكر إلى حرج شائك وعارف يحتضنه وسط العيون المسلطة . جلس ثلاثتهم وقد امتزج الصمت بموجات مغرقة من الأحاسيس والأفكار المتلاطمة ، لكن عارفا كعادته ابتسم :

ـــ يشكر عنده حق فى كل ما قاله لكم عنى !

تحفز يشكر فى مقعده محاولا مقاطعته :

- الحقيقة أن ـــ ..

قاطعه عارف برقة :

ـــ اسمح لى يا أستاذ يشكر أن أنهى حديثى أولا .. ولكم أن تقبلوه أو ترفضوه .. أجزاء منه أو كلية .. وأنا على استعداد للرد على أى تعليق مهما كان حادا أو مغرضا !

قالها وهو يركز عينيه على شاب يرتدى جلبابا بلديا أبيض ، سرعان ما تذكر أين ومتى رآه من قبل ؟! فهو يتمتع بذاكرة حادة لا تنسى وجها رأته من قبل ولو للحظات ! هذا الشاب رآه ليلة زفافه وهو يتلقى بعض تعليمات الشمطلى ليختفى بعدها ثم يظهر اليوم فى المقهى واحدا من الشباب الثائر على سطوة الكبش . لم يتأثر الشاب بشظايا عارف ، فلم يخطر بباله أنه لمحه من قبل فى السراى . تلفت عارف حوله فلم يجد أثرا لفتوات الكبش المعروفين . استأنف حديثه للعيون المتعلقة به :

ـــ لكم الحق فى كل ظنونكم المعقولة وغير المعقولة .. ذلك أن الخطوة التى أقدمت عليها كانت من الجنون بحيث يصبح سوء الظن أمرا متوقعا بل وطبيعيا ! بل إننى لم أدرك جنونها على حقيقته إلا بعد أن توغلت

فيها ! وأنا الآن أعترف لكم أنها فشلت وأنني غادرت بيت الكبش فجر اليوم بلا عودة ! لكنني أعترف أيضا أنها لم تكن خالية من بعض الجوانب الإيجابية ! يكفي أنني غيرت الأمر الواقع على الجانب الآخر ! فقد كان هدفي تحريك البركة التي أصبحت راكدة بل وآسنة ! ولم يكن في إمكاني أن أدلي لكم بتفاصيل خطتي حتى لا ينتفي الغرض منها تماما . وهاأنذا أتقدم إليكم بكشف حساب عن كل ما جرى !

كان النادل على وشك الترحيب الحار بعارف عندما رآه ذاهلا ، لكنه لم يشأ أن يقاطعه ، ووقف ملتصقا بالباب الداخلي يستمع مع الحاضرين إلى أغرب مغامرة استمعت إليها آذانهم .

بدأ عارف سرده المثير منذ أول لقاء بينه وبين قطر الندى أسفل المشربية . وتدفق في الحديث الساخن لدرجة أنسته إعياء الليلة الماضية وقلق الأيام الخوالي . تحولت الوجوه الشابة إلى عيون متلهفة ، وآذان مصغية ، وأنفاس لاهثة ، وحدقات متحجرة ، وأفواه فاغرة ، وقلوب واجفة ، وصدور صاعدة هابطة ، وألسنة التصقت بكهوفها ، وأياد تشابكت ، وأذرع عقدت فوق الصدور ، وأقدام اهتزت في عصبية كلما بلغ عارف قمة من قمم سرده . حتى الذين شكوا في بعض تفاصيل المغامرة تابعوها بشوق الخيال . وعندما تنبه النادل إلى صوت المذياع الذي كان يهذي بأغنية تشكو قسوة العذول المتربص بالعشاق الأبرياء ، تحرك في صمت وأسكته عائدا إلى وقفته الملتصقة بالباب .

كان بعض الشباب المار خارج الحاجز الزجاجي قد لمح عارفا جالسا يتحدث في حماس منقطع النظير ، فتجمهروا حوله واقفين عندما لم يجدوا مقاعد خالية . وكان بعضهم قد هجر الندوة منذ أن تخلى عنها عارف

الذى انتشى بحماسهم المقبل عليه والعائد مرة أخرى ، فترك قلبه للأمواج القديمة كى تغسله من أدران الكبش . لم يعد يخافه حتى لو نجح فى التخلص منه ، فلحظة مثل هذه تساوى العمر كله . لا يهم كم عدد المصدقين وكم عدد المكذبين منهم ؟! يكفيه هذا الإقبال ، هذا الصمت ، هذا الإصغاء ، هذا الإعجاب الذى أعلنته الوجوه بصدق لا مزيد عليه ، الوجوه التى أوحشته كثيرا . لم يعد يفتقد سوى وجه قطر الندى الحبيب برغم أنه لم يتركها إلا منذ ساعات معدودة . كل ما يخشاه أن يقتله الحنين إليها ! حتى فى الساعات القليلة التى نامها عند الفجر رأى طيفها يحنو عليه ويضمد جراح قلبه . إنه لم يخسر معركته مع الكبش ! يكفى أنه ربح هذه الجوهرة المشعة ! كانت طعنة نجلاء فى قلب المعلم ! لكنه لن يقص عليهم أية لمحات شخصية عن قطر الندى وإن كان واعيا بعلامات الاستفهام المتراقصة فى أذهانهم ، والتى يمنعها الحرج من الوصول إلى أذنيه .

تعجب عارف للحماسة التى اشتعلت بها قريحته وجعلت منه طاقة متفجرة دفعته إلى التنقل المنطلق بين جنبات مغامرته وكهوفها حتى بلغ الليلة الماضية التى غادر فيها بيت الكبش مع طلائع الفجر الأولى دون أن يصرح بحقيقة موقفه من قطر الندى . هل هجرها أم طلقها ؟! أم لا تزال على ذمته ؟! هل انتقلت معه إلى بيته أم لا تزال فى بيت أبيها ؟! كلها أسئلة ظلت حبيسة الصدور إلى أن تفجر سؤال غير متوقع على لسان الشاب الذى لمحه عارف مع الشمطلى ليلة زفافه . نهض فى اعتداد واضح بنفسه لكنه مفتعل :

ـــ هل يمكن للأستاذ عارف أن يفسر لنا السر فى عدم وجود فتوات

الكبش اليوم لمتابعة ما يدور فى الندوة ؟!

تجمعت كل حوافز الهجوم الكاسح داخل عارف :

ــ هل لديك إجابة عن هذا السؤال ؟!

ــ ليس قبل أن نستمع إلى إجابتك !

قرر أن يسحقه تماما :

ــ لأنك خير من يحل محلهم !! على الأقل .. لا أحد هنا يعرف حقيقتك !

تلفت الشباب حولهم بحثا عن الفتوات ، لكنهم سرعان ما شدت عيونهم إلى الشاب عند سماعهم لإجابة عارف . إنه صباح المفاجآت المثيرة ! فقد أسقط فى يد الشاب الذى لم يتوقع أبداً أن يعريه عارف بهذه القسوة الصاعقة . نهض الشاب دون تفكير محاولا صد سهام العيون المصوبة إليه :

ــ هل تظن أننا من السذاجة بحيث نصدق أنك خرجت من بيت الكبش بهذه البساطة ثم تأتى إلينا لتقص علينا هذه المغامرة المختلقة ؟ ثم تتهمنى أنا بتهمة التلصص والجاسوسية ؟!

مست الكلمات وترا حساسا مشدودا داخل يشكر ، لكن عارفا استأنف زحفه بثقة بالغة :

ــ مشكلتك أنك لست قوى الملاحظة برغم أنك أرسلت هنا لتلاحظ وتراقب وتنقل ! فأنت مثلا لم تلحظ أننى شاهدتك ليلة الزفاف وأنت تتلقى تعليماتك من الشمطلى .. كذلك فإننى لم أر وجهك من قبل فى الندوة التى بدأت منذ عامين حين كان فتوات الكبش يواجهوننا علانية .. فهل هبط عليك حب الثقافة فجأة ؟! أما أنا فعندما دخلت بيت

الكبش دخلته علانية وبصفة رسمية وبحضور القلعة كلها .. وعندما خرجت منه فجر اليوم أسرعت لأعلن أمامكم جميعا عودتى بصرف النظر عن نجاحى أو فشلى فى تحقيق هدفى !

تذكر الشباب أن هذا الشاب فعلا جديد على الندوة ، وأنه ظل يلتزم الصمت المطبق طوال الشهرين الماضيين حتى فتح فمه الآن بهذا السؤال المفاجئ . قرأ الشاب هذه المعانى فى عيونهم فأجاب وقد فشل فى إخفاء تراجعه :

ـــ لن أرد على هذه الأكاذيب .. سأترك الأيام تثبت لكم صدق ما قلت !

ثم جلس وهو ينظر حوله فى حرج متصاعد . استدار يشكر وسأل عارفا :

ـــ اسمح لى أن أسألك عن السر فى إصرارك على الوصول إلى الخزانة وفتحها طالما أنك تعتقد أن الأمر ليس فيه سر على الإطلاق ؟!

ـــ الموضوع بمنتهى البساطة أن الكبش يهيمن على القلعة بالوهم .. ولن يزول هذا الوهم إلا بتعريته تماما ! ولن يحدث هذا إلا بخطوة من ذلك النوع الذى قمت به ! ومهما تعددت مرات الفشل فلا بد أن ننجح فى النهاية .. حين لا يصح إلا الصحيح !

تأكد عارف أنه كسب معركة المقهى وأحرز نصرا لم يحلم به ، فقرر أن يتوج نصره بسؤال أخير إلى الشاب إياه :

ـــ لن أسألك عن اسمك . فإنه لا يهمنى فى شيء .. لكن يهمنا أن نعرف مقر عملك !!

لم ينهض الشاب هذه المرة لكنه أجاب بصوت خفيض متردد :

ـــ هل تعتقد أن من حقك التحقيق معى ؟!

ـــ أبداً .. إننى أسألك فقط كما سألتنى !

دار الشاب بعينيه ثم أجاب بلهجة المتهم :

ـــ مثل معظم الجالسين هنا .. فأنا أعمل فى أحد مشروعات الكبش !

ـــ فى أى مشروع على وجه التحديد ؟!

ـــ فى مصنع حلاوة تبوت الغفير وسد الحنك !

ـــ أى المصنع الذى أشرف الشمطلى على بنائه من الألف إلى الياء ؟! وما طبيعة عملك هناك ؟!

صرخ الشاب وقد فقد صبره وانقطع نفسه :

ـــ من أين أتيت بهذا الحق فى استجواب الآخرين ؟! إنك تحاول أن تفرض نفسك علينا فى حين أنك تتهم الكبش بفرض سطوته .. خاصة بعد أن فشلت فى خلافته !

ابتسم عارف وقال مداعبا الحاضرين :

ـــ كشف نفسه بنفسه .. إنه يستخدم نفس ألفاظ الشمطلى !!

ـــ لن أبقى هنا أكثر من هذا .. فهذه مهزلة وليست ندوة !

ثم انطلق وسط الأقدام التى أفسحت له الطريق إلى خارج المقهى . اختفى النادل وسرعان ما عاد بشاى مخصوص لعارف الذى احتضنه وقد تبادلا التهنئة بالعودة السعيدة . ارتشف عارف رشفة ساخنة كان فى أشد الحاجة إليها بعد حديثه الذى أوشك على تجفيف لعابه تماما . ابتسم النادل وهو يعود إلى وقفته الأولى :

ـــ هذا الشاى على حساب صاحب المقهى !

انتهى من رشفة ثانية وعلق ضاحكا :

ـــ سأقبل هذه المحسوبية هذه المرة فقط !

ثم التفت إلى الشباب مرة أخرى وقال بنبرات سرى فيها الإرتياح :

ـــ من حقكم بالطبع ألا تصدقوا كلمة واحدة مما قلته .. لكن كل ما أرجوه منكم أن تصبروا حتى تثبت الأيام حقيقته ! فالأفعال عندى هى الأقوال وليس العكس ! والآن أنا على استعداد لكل الأسئلة والتعليقات مهما كانت محرجة !

صمت عارف وعاد إلى رشف كوب الشاى حتى أتى عليه . فقال يشكر بصوت سمعه كل الحاضرين :

ـــ أعلن أسفى عن كل ما قلته فى حقك ! فلم يكن سوء ظنى فى محله !

ربت عارف على ظهر يشكر :

ـــ ليس بين الأصدقاء أسف .. كما أننى لم أعلم بحادث الإعتداء عليك إلا من أمى ! ولذلك نريد فى المرحلة القادمة أن نتوخى الحرص والدهاء .. فليس من الحكمة فى شيء أن نعرض أنفسنا للخطر مقابل لا شيء !

ابتسم مصطفى سعيدا :

ـــ يبدو أن الأسئلة والتعليقات مؤجلة نظرا للإجهاد البادى على وجهك .. ولذلك أقترح أن نفض الندوة الآن حتى تذهب لبيتك وتنال قسطا وافرا من النوم .. ففى اعتقادى أنك ستكون فى أشد الحاجة إلى أعصابك وصحتك فى الأيام القادمة !

سرت همهمات بين الحاضرين تأييدا لاقتراح مصطفى . نهض يشكر

وقد عاد إلى دعابته القديمة :

ــ هيا إلى البيت دون تكاسل .. فالأيام أمامنا كثيرة والجلسات ممتدة !

نهض عارف بدوره ومعه مصطفى وجميع الحاضرين :

ــ وكيف حال ذراعك الآن ؟!

ــ الحمد لله .. أفضل بكثير ! لو كانت اليمنى لأعاقتنى كثيرا !!

ــ لا تكرر غلطة أبى !

ــ لم أكن أكثر جرأة وتهورا منك !

ــ لم أكن متهورا .. فى حين كانت جرأتى محسوبة بدقة !

خرج ثلاثتهم إلى شارع قلعة الكبش وفى أعقابهم الشباب فيما يشبه المظاهرة الصامتة . قال يشكر لعارف :

ــ سنتركك الآن لتنام .. وسنعود لزيارتك بعد الظهر .. فبيننا حديث طويل طويل !!

انفض الشباب متناثرين فى حين رافقه يشكر ومصطفى إلى باب بيته . ودعهما وهو يتمنى بعض النوم العميق بعد كل هذا الإجهاد ، لكن طيف قطر الندى عاد يلح عليه أشد الإلحاح وهو يدير المفتاح فى ثقب الباب .

سرت إشاعة قوية بين أهالى القلعة تؤكد أن عارفا قرر قتل الكبش بعد أن طرده من قصره ، حتى يرث القصر والقلعة من بعده ، خاصة وأنه رفض تطليق قطر الندى التى أبت مرافقته إلى بيته . قبل هذه الإشاعة كانت سعادة عارف غامرة عندما عاد إلى شباب القلعة ، أو عادوا هم إليه فى وقت قياسى لم يكن يحلم به . سعادة لم ينغصها سوى عجزه عن الاتصال بقطر الندى . فقد نجح الكبش فى الانتقام منه بفرض حصار حديدى حولها . فإذا رد هو أو الشمطلى على التليفون فلا مناص من أن يضع عارف السماعة فورا ، وإذا ردت تمر حنة فتكون هى البادئة بإقفال الخط قبل أن يكمل عارف كلمته الثالثة أو الرابعة . وهو الذى اعتقد أن فى إمكان قطر الندى أن تشتريها للعمل لحسابها ، فى حين أصبح من الواضح أنها ممنوعة تماما من الرد على أى مكالمة . فقد مضى الآن ثلاثة أشهر إلا أسبوعا ولم يحدث أن ردت على واحدة من مكالماته شبه اليومية .

شعر بجرح عميق غائر فى كبريائه . فهى زوجته وأم ابنه القادم بإذن الله ، ومع ذلك لا يستطيع حتى مجرد سماع صوتها . فكر مرارا فى القيام بخطوة جنونية يستخلصها بها من أيدى الأخطبوط ، لكن كفاه خطوة واحدة . فلا شك أن الكبش جعلها طعما له ، إما أن يبتلعه ويعود ذليلا ، أو يتجنبه ويعيش ذليلا أيضا . ولذلك تعلم عارف أنه لا بد أن ينتظر أو يحدد توقيت معاركه بنفسه حتى لا يجبره الآخرون على خوضها فى ميعاد لا يناسبه فيخسرها . ومعركة قطر الندى معركة خاصة يمكن تأجيلها حتى

على حساب أعصابه وقلبه المتلهف عليها . ويكفيه الآن حب الشباب وإقبالهم عليه بحيث أصبح ما يقال فى الندوة حديث القلعة كلها طوال الأسبوع مما شكل رأيا عاما بدأ يهدد الكبش فى مشروعاته ومصانعه حيث ارتفع صوت العمال بتخفيض ساعات العمل ورفع الأجور ومنح الجميع حق التأمينات الاجتماعية . كذلك أضرب عمال المسبك مطالبين بحصتهم اليومية فى اللبن بعد أن أصيب بعضهم بأمراض الصدر والرئتين مما اضطر الكبش إلى النزول على رغباتهم . ومع ذلك تربص رجاله بزعماء الإضراب فخطفوا ابن أحدهم ولم يعيدوه إلا بعد أن انهار الرجل تماما ، فى حين ضربوا آخر ضربا مبرحا فى الظلام أدى إلى رقاده فى المستشفى أكثر من عشرين يوما دون معرفة الفاعل الحقيقى .

تسلح عارف فى وجه هذه المنغصات برباطه الوثيق بالشباب الذين أصبحوا كتلة واحدة . وكانت الإشاعة التى سرت بداياتها منذ أكثر من شهر تلمح بنيته لقتل الكبش ، وقام بتكذيبها فى ندوته على أساس أنها إشاعة سخيفة سرعان ما تتلاشى ، وأن سلاح رجل الفكر يتمثل فى التنوير والإقناع عبر القنوات الشرعية وليس فى الإرهاب والقتل . لكن التكذيب لم يؤد إلى أية نتائج إيجابية . ومع مرور الوقت تأكد عارف أن الإشاعة أقوى من أن تكذب ، وأن خلفها عقلا مدبرا يزيد من اشتعالها كلما خبت ، ولا بد أن يكون الشمطلى هو هذا العقل بعد أن اكتشف أنه غريمه الأول وليس الكبش الذى انقاد تماما لخططه فى الفترة الأخيرة .

وقد ضاعف من حيرة عارف أن بعض الشباب فى الندوات الأخيرة أبدى إعجابه بل وحماسه لفكرة التخلص من الكبش لإراحة القلعة من شروره ، فلم يعرف عما إذا كان هذا الشباب ثوريا متطرفا بالفعل ومخلصا

للفكرة الطائشة ، أم أنه مدسوس عليه من طرف الكبش لتثبيت الإشاعة الكاذبة المغرضة عليه ؟! بل إن واحدا منهم قال له فى الندوة الأخيرة إن من يتجرأ على دخول قصر الكبش والزواج من ابنته بهذا الشكل الخرافى ، لا يصعب عليه التخلص منه ! وبرغم أن عارفا نهر الشاب برد عنيف وتكذيب أعنف ، فإنه رأى أشباح ابتسامات على وجوه البعض ، تؤكد إعجابها بدهائه فى إخفاء حقيقة نواياه الخطيرة !

لم يخرج عارف من حيرته إلا على استدعاء حمله إليه شرطى من قسم السيدة زينب للتحقيق معه فيما نسب إليه من تهديدات ينوى تنفيذها ضد أمن الكبش وحياته . حمد الله على أنه كان موجودا بالبيت ، وأن أمه كانت مشغولة فى المطبخ ولم تفتح الباب للشرطى ، وإلا خرت مغشيا عليها بعد أن تضاعف خوفها عليه فى الفترة الأخيرة نتيجة لانتشار الإشاعة المسمومة . أنبأ الشرطى بأنه سيلحق به بعد عشر دقائق حتى لا يظن الناس شيئا عندما يرونه بصحبته ، خاصة وأن معظم الأهالى يعودون إلى بيوتهم فيما بين الثالثة والرابعة عصرا . ولثقة الشرطى بعارف واحترامه له غادر البيت فى صمت عائدا إلى الضابط الذى أرسله .

اخترق عارف شارع سلامة وهو يحيى معظم أصحاب المحال الذين جلسوا على الجانبين ، ثم انحنى يمينا مخترقا شارع زين العابدين وهو يضرب أخماسه فى أسداسه ، وإن كان يشم رائحة الشمطلى وراء هذه المناورة أيضا . كان انشغال باله سببا فى عدم الالتفات إلى تحية بعض الأصدقاء العابرين فى الشارع التجارى المزدحم الصاخب كوجدانه تماما . خرج إلى ميدان السيدة زينب منحرفا يمينا حيث يقع قسم الشرطة .

على يمينه لمح مكتب يجلس بداخله الشمطلى أمام ضابط لا بد أنه الضابط الذى استدعاه ، فلم يكلف عارف نفسه قراءة اللافتة المعلقة على الباب بل دخل محييا الضابط الذى رحب به واقفا وأشار إلى مقعد مواجه للشمطلى فجلس عليه متجاهلا إياه تماما . دخل عارف إلى قلب الموضوع رأسا :

ـــ جاءنى شرطى بهذا الاستدعاء الذى لا أدرى له سببا ؟!

أخرج عارف من جيبه ورقة صغيرة لم يعبأ الضابط بتناولها بل قال.. مشيرا إلى الشمطلى بنظرات لم يسترح لها الأخير :

ـــ جاءنى الأخ ببلاغ ضدك يفيد أنك صرحت أكثر من مرة بنيتك فى التخلص من المعلم الكبش نهائيا !

ركز عارف عينيه على الشمطلى الذى تفاداه ناظرا إلى الأرض ، مما لم يغب عن لماحية الضابط الذى انتبه إلى كلمات عارف :

ـــ إنه موضوع يطول شرحه .. لكن طالما أنه أصبح على المستوى الرسمى فأحب أن أوضح لسيادتك أن هذا الأخ هو الذى يتامر ضد الكبش ليرثه حيا أو ميتا بعد أن شعر أن زواجى من ابنته أصبح خطرا على آماله وأحلامه التى عاش عليها عمرا طويلا !

أنصت الضابط لكن الشمطلى لم يصمت :

ـــ لا تصدقه يا حضرة الضابط .. فأنا أعيش من خير المعلم .. فهل يمكن أن أتآمر ضده حتى أقطع مصدر رزقى ؟! كما أننى لا يمكن أن أرثه لأننى لا أمت إليه بصلة قرابة .. أما هو فقد أصر على عدم تطليق ابنة المعلم حتى يرث الجمل بما حمل ! والدليل على ذلك الإشاعة التى دوت ولا تزال تدوى فى القلعة !

قاطعه عارف فى حسم والضابط لا يزال فى قمة إصغائه :

ــ إذا كانت الإجراءات الرسمية تتخذ على أساس الإشاعات والأقاويل .. فأنا أطالب بإعادة فتح ملف أبى .. وأتهم الكبش ومساعديه باغتياله فى حادث غادر قيد ضد مجهول .. بل وأؤكد أن حياتى بعد أبى أصبحت فى خطر أيضا .. ولو وقع لى أى مكروه فإننى أتهم هذا الأخ مقدما !

تدخل الضابط مقاطعا :

ــ إن الإشاعة ملأت القلعة فعلا وبلغتنى من قبل .. لكننا لا نتصرف على أساس الإشاعات بطبيعة الحال .. وإلا كنت استدعيتك منذ ذلك الحين .. لكننى انتهزت فرصة وجود الأخ .. وكنت أود أن يكون المعلم موجودا أيضا حتى نصفى الجو .. فالصلح خير .. فأنت زوج ابنته وواضح أنك لست على استعداد للتفريط فيها .. كما أن الأخ هو رفيق عمر المعلم ولا يمكن أن يخون الأمانة بعد كل هذا العمر .. ولذلك فالصراع الذى يمزق القلعة الآن لا لزوم له على الإطلاق !

أمن الشمطلى على كلامه فى سعادة واضحة :

ــ وهذا هو رأى المعلم أيضا !

التفت الضابط إلى عارف :

ــ وما رأيك أنت يا أستاذ عارف ؟!

ــ رأيى أن الفرق بين السلام والاستسلام مثل الفرق بين السماء والأرض .. ولذلك نريد سلام القلعة كلها وليس سلام الكبش وحده .. فلا يعقل أن يكون هناك سلام بينى وبين الكبش وهو يحتجز زوجتى قسرا فى بيته !!

سألـه الضابط :

— هل حاولت اصطحابها معك إلى بيتك فتصدى لك ؟!

تدخل الشمطلى عنوة :

— كانت هى التى رفضت الخروج من بيت أبيها .. بيت العز !

نهره الضابط :

— لم أوجه إليك سؤالا .. ولم أطلب منك رداً !

نكس الشمطلى رأسه فقال عارف متشفيا :

— سيادتك أدرى ببطش الكبش بمن يحاول التصدى له !

— هل معنى كلامك أن الجو سيظل مشحونا هكذا ؟! إنه ينذر بعواقب وخيمة ! فالأخ يتهمك بتحريض عمال المسبك على الإضراب !!

— نحن لا نحرض أحدا .. ولا نلجأ إلى العنف .. ولا نرتكب ما يعاقب عليه القانون !! كل ما نفعله أننا نبدى رأينا حراً ونحب أن نستمع إلى آراء الآخرين بنفس الحرية ! وهذا حق كفله الدستور ! أما الذين يخافون من مجرد إبداء الرأى الحر .. فهذا أكبر دليل على أن كل مكاسبهم غير مشروعة .. فالذين يفرضون سطوتهم مع الخوف والظلام لا يحتملون أى شعاع .. حتى لو كان ضوء شمعة !

لم يستطع الشمطلى أن يمنع نفسه من التدخل :

— لن أتكلم حتى لا أضايق سيادتك .. لكنه اعتاد إهانتنا بهذا الشكل .. ومع ذلك لم يمسه أحد .. فنحن نؤمن بالرأى الحر مثله !

لم يعبأ عارف بالشمطلى بل استأنف حديثه للضابط :

— إنهم يحكمون القلعة بأسلحة الإرهاب والخوف والدجل .. تصور سيادتك أن المعلم يدعى أنه يحتفظ بخزانة تحت الأرض فى بيته تحتوى

على سر القلعة الذى يجب أن يعرفه من يحاول أن يخلفه فى حكمها .. ولا بد أن تختار الأقدار هذا الشخص .. لكن لا نعرف كيف ؟! المهم أن أى شخص آخر لم تكتب له هذه المهمة لا بد أن يموت بمجرد محاولته فتح الخزانة ومعرفة السر !!

هز الضابط رأسه مبتسما :

ـــ عندى علم بكل هذا !

كان الشمطلى متحفزا للمقاطعة طوال حديث عارف لكن نظرات الظابط المنذرة أوقفته عند حده . استأنف عارف حديثه :

ـــ وهل تعلم سيادتك أن المعلم يدعى أنه يذهب من حين لآخر إلى خلوة فى المقطم تقليدا للحاكم بأمر الله الذى تقمصته روحه ؟! وكان فتواته قد أشاعوا من قبل أنه يختفى فى جولات غامضة فى تكية الدراويش ومجرى العيون والحوض المرصود ودرب البير !!

ـــ عندى علم بهذا أيضا !

ـــ وما رأى السلطات فى هذا ؟!

ـــ القانون لا يحمى المغفلين .. والسلطات تؤمن حياة المواطنين من أى تهديد يمسها .. ولا تتخذ أية إجراءات إلا بناء على قرائن محددة وأدلة مادية .. لأنها لو أخذت بالشبهات فإن العدالة يمكن أن تدخل في متاهات ودوائر مفرغة قد لا تخرج منها !

ـــ أعرف أن عدالة البشر لا يمكن أن تكون عدالة مطلقة ! لكننى من ناحيتى وناحية أصدقائى فإننى أعد سيادتك بأننا لن نفعل ما يزعج السلطات !

ابتسم الضابط بنفس الثقة والقوة :

ـــ وأنا لا أطمع فى أكثر من هذا !

ثم التفت إلى الشمطلى متسائلا فجأة :

ـــ هل يعلم المعلم ببلاغك هذا ؟!

تلعثم الشمطلى لكنه أجاب بصوت حاول ادعاء الثقة بالنفس :

ـــ أبدا !! إن مسئولياته ضخمة .. ولا داعى لإزعاجه بهذه السفاسف !

ـــ هل تعتبر محاولات تهديد حياة المعلم من سفاسف الأمور ؟!

تورط الشمطلى فى دوامة من التلعثم والتعثر والتردد حاول الخروج منها :

ـــ أبداً !! لم أقصد هذا !!

ـــ ماذا كان قصدك بالضبط ؟!

تعلق الشمطلى بقشة تراءت له وسط هذا الخضم :

ـــ قصدى أنه أوكل إلىّ كل أمور أمنه وسلامته !

ـــ إذاً .. لا تقلق .. فقد وعدنى الأستاذ عارف بأنه لن يكون هناك ما يزعج السلطات !

أشاح الشمطلى بوجهه :

ـــ الكلام .. أمره سهل .. وغالبا ما يقال لتغطية النوايا الحقيقية !

تململ الضابط فى مقعده كما لو كان على وشك إنهاء المقابلة :

ـــ النوايا الحقيقية أو غير الحقيقية ليست مجال تخصصى .. لكننى أحب أن أقول لكما إننا لن نقف مكتوفى الأيدى فى مواجهة أول بادرة .. ولو طفيفة .. يمكن أن تمس الأمن من قريب أو بعيد !

نهض الضابط فنهض كلاهما مع كلمات عارف

ـــ وهذا هو ما نريده بالضبط !

مد الضابط يده فأسرع كلاهما إلى الإمساك بها . خرج الشمطلى مسرعا فى قلق واضح بينما سار عارف فى تؤدة سعيدا بنصره الجديد المتواضع .. تعجب الضابط لأنها كانت أول مرة يرى فيها صاحب البلاغ يخرج قلقا فى عجلة من أمره كما لو كان متهما يحاول الانطلاق خارج دائرة الشبهات .

— ١٢ —

ــ كيف بلغت بك الجرأة حدا دفعك إلى إبلاغ الشرطة وبدون علمى ؟!

سقط السؤال مثل كرة حديدية صماء على رأس الشمطلى فبعثرته ذات اليمين وذات اليسار . كان صوت المعلم هادرا كرياح هذا الشتاء العاصف الذى دثر القلعة بعباءة من الصقيع . لم يخطر ببال الشمطلى أن المعلم سيعرف مسألة ذهابه إلى الشرطة وبهذه السرعة !! لا بد أن يفكر بسرعة حتى لا تذهب الظنون بالمعلم إلى مناطق وعرة قد تتحطم علاقتهما على صخورها المدببة ! كيف عرف ؟! لا بد أن الضابط اتصل به ؟!

ــ لماذا لا ترد ؟! هل أصابك الخرس ؟!

ــ الحق علىّ !! كان هدفى تأمين حياتك من كل ناحية !!

ــ منذ متى ونحن نطلب الحماية من الشرطة ؟!

ــ المسألة ليست مجرد إشاعة !! فهو يخطط فعلا لاغتيالك !

هزت الكلمة الأخيرة المعلم فخفف من حدة لهجته :

ــ كان المفروض أن تعرض علىّ الأمر ونتشاور سويا لوضع خطة مضادة كما اعتدنا دائما !

افتعل الشمطلى الانفعال والتأثر حتى تهدج صوته :

ـــ حفظك الله ذخرا وعونا لنا .. فنحن بدونك لا نساوى شيئا !!

دق الكبش الأرض بين قدميه بعصاه الغليظة وهو لا يزال فى جلسته المشدودة على مقعده العالى :

ـــ كنت أظن أن كل أقاويل الأهالى مجرد نتيجة للإشاعة التى أثرتها بينهم يا شمطلى .. لكن يبدو فعلا أن الأمر أكثر خطورة من هذا !

ومضت عينا الشمطلى فى وقفته الذليلة المنحنية أمام الكبش :

ـــ ألم أقل لك ؟! كيف عرفت هذا ؟! هل جد جديد ؟!

تعجب الكبش للهفة الشمطلى واستراح لها فى الوقت نفسه :

ـــ بمجرد مغادرتك لقسم السيدة زينب اتصل بى ضابط المباحث وأخبرنى أن حياتى فعلا فى خطر !!

ـــ لا بد أنه اقتنع بكلامى الذى واجهت به عارفا بمنتهى الصراحة ! ظبعا سيادتك لم تسأله عن مصدر الخطر والتهديد !!

نظر إليه الكبش فظن أنه يشك فيه بتساؤله :

ـــ لماذا ؟!

تلعثم لكن توقد ذهنه أسعفه :

ـــ أبداً .. لأن المصدر معروف للقلعة كلها !

ـــ التأكد فى هذه الحالة ضرورى ! فالمسألة أصبحت مسألة حياة أو موت !!

ـــ وماذا قال الضابط ؟!

ـــ قال إنه لا يملك دليلا ماديا بعد .. لكن التحريات الأولية التى قام بها تشير إلى أن التهديد سيأتى من أقرب الناس إلىّ !

انفرجت أسارير الشمطلى المشدودة :

ـــ طبعا .. إنه لا يزال زوج ابنتك .. برغم أنه اتهمك صراحة أمام الضابط بأنك قاتل أبيه .. أو على الأقل وراء قتله !!

ـــ على كل حال .. لا يهمني ما قاله الضابط بقدر ما يهمني الوصول إلى حسم للموضوع الذى تميع أكثر من اللازم !

ـــ وأنا تحت أمرك !

أشار الكبش إلى المقعد الصغير وتساءل متباسطا :

ـــ اجلس .. لا داعى لأن تفكر واقفا !

أسرع الشمطلى سعيدا بالجلوس بالقرب من جمرات الفحم المتألقة فى المدفأة بعد أن سرى الصقيع فى أطرافه وأعصابه . لم يكد يسترخى حتى شده سؤال مفاجئ برغم توقعه له :

ـــ هل فكرت فى خطة معينة ؟!

ـــ الموضوع هذه المرة معقد وفى حاجة إلى عقل إبليس ذاته !!

ـــ فعلا .. خاصة وأنه زوج ابنتى ووالد حفيدى .. كما أن القلعة كلها تعرف العداء الجديد بينى وبينه بحيث أصبحت الشبهات والاتهامات معدة مسبقا !

علق الشمطلى بنبرات تتحسس مواطن الخطر بين الكلمات :

ـــ وهل كان هناك دليل مادى يمكن على أساسه اتهامك أو اتهامنا بالتخلص من أبيه ومن الصداع الذى طالما سببه لنا !!

لم يعبأ الكبش هذه المرة بوميض خاتمه الياقوتى الأحمر فى ضوء قنديل الجدار الخافت . كان عقله مشحونا بخواطر وتساؤلات متلاطمة :

ـــ لا تنس أن قطر الندى لا تزال مرتبطة به ارتباطا حديديا .. ولا يمكن أنه أكسر قلبها وهى حامل فى شهرها الخامس !

ـــ بعد إذنك طبعا .. كلفت تمر حنة بالإلحاح على أذنيها يوميا .. وفى اعتقادى أن لهفتها لم تعد كما كانت .. فالبعيد عن العين بعيد عن القلب !

ـــ ليس الأمر بالبساطة التى تتصورها .. فقد عرف كيف يلعب بعقلها ويربطها إليه حتى وهو بعيد عنها ! كانت غلطة عمرى عندما سمحت له بدخول القصر والزواج منها .. إحساس قاتل أن يصطادك من أردت اصطياده !

ـــ لا أحب أن أسمع هذا الكلام من المعلم الكبش على سن ورمح !

لأول مرة نهض الكبش وظل يذرع الغرفة جيئة وذهابا فى حيرة أعادت إلى ذهن الشمطلى مكانته الأثيرة عنده قبل دخول عارف حياتهما .. كانت الرياح العاصفة قد امتزجت بالظلام خارج البيت وضغطت على المشربية فى دقات رتيبة منتظمة ضاعفت من حنق الكبش وحيرته . توقف إلى جوار المشربية وكأنه يتحدى الرياح أن تفتحها :

ـــ فكرت كثيرا فى موضوع عارف فلم أصل إلى حل !

ذهب إليه الشمطلى فى شبه انحناءة :

ـــ يجب أن ينصب قلقك على قطر الندى والجنين الذى فى بطنها فقط !

ـــ وكيف نفصل بينها وبين عارف ؟! إنها لم تعد تتحمل مجرد النظر فى وجهى !

عاد يذرع الغرفة مرة أخرى وفى أعقابه الشمطلى :

ـــ فكرت فى أكثر من خطة !! فلم أستطع أن أرى سيدى ومعلمى على هذه الحال !!

توقف الكبش ونظر من أعلى قامته الطويلة إليه :

ـــ أرجو ألا تكون من نوع خططك السابقة !! لم تعد تصلح للتعامل مع هذا الملعون !!

ـــ إنها خطط جديدة تماما ! الأولى يمكن أن تنفذها تمر حنة ! والثانية يمكن أن ينفذها يشكر ! والثالثة يمكن أن تنفذها العربة الصغيرة التى اشتراها عارف أخيرا !

ومضت عينا الكبش وجلس على مقعده العالى وأمامه الشمطلى :

ـــ حدثنى عن الخطة الأولى !

ـــ فى الشهر الأول من وجوده هنا جاءت إلىّ تمر حنة تشكوه !

لم يخف المعلم لهفته :

ـــ هل فعل شيئا دون علمى ؟!

افتعل الشمطلى التردد والتلعثم :

ـــ كنت قد أرسلتها إليه بناء على طلبك فى محاولة لجس نبضه لمعرفة الهدف الحقيقى من دخوله القصر .. واكتشفت أن هذه كان الخزانة والسر داخلها وبناء عليه وضعنا خطة ضبطه متلبسا باللصوصية !

ـــ لا تطل .. ماذا كانت شكواها ؟!

اصطنع الشمطلى التأنى والحرج :

ـــ حاول الاعتداء عليها .. ولولا مقاومتها القوية لكان قد اغتصبها !

دق الكبش الأرض بعصاه الغليظة ممسكا قرنى الكبش عند رأسها بعنف :

ـــ ولماذا لم تخبرنى وقتها ؟!

ـــ كان زوج ابنتك ولا يزال .. ونظرا لتعاطفك الشديد معه خفت أن

ابدو واشيا كاذبا فأعاقب لأمانتى وإخلاصى .. ولذلك آثرت الصمت حتى تظهر الحقيقة من تلقاء نفسها !

ـــ وماذا عن قطر الندى ؟! يبدو أن شيئا من هذا القبيل لم يصل لعلمها ؟

ـــ كانت في ذلك الوقت تحبه حتى العبادة ! ولم أكن مستعدا لتبصق في وجهى إذا قلت لها شيئا كهذا !

ـــ عندك حق ! لكنك لم تقل شيئا عن خطتك التى يمكن لتمر حنة تنفيذها ؟!

ـــ الخطة فى منتهى البساطة .. ليس عليها سوى أن تعترض طريقه فى أى زقاق من أزقة القلعة المظلمة .. وتتشبث به صارخة نائحة ممزقة لملابسها .. وسرعان ما تفتح النوافذ والأبواب ويتكالب عليهما الأهالى .. وبعدها لن تقوم له قائمة ! حتى فى نظر قطر الندى نفسها !!

ـــ وماذا عن خطتك الثانية ؟!

ـــ يبدو أن الخطة لم تعجبك ؟!

ـــ سندرس كل الاحتمالات .. فأنا لا أريد ثغرة واحدة ينفذ منها الملعون كالريح العاصفة .. فلن يصدق كثيرون أن معبودهم يمكن أن يفكر .. مجرد تفكير .. فى اغتصاب خادمة فى زقاق مظلم .. لا تنس أن العداء بيننا وبينه لم يعد خافيا على أحد !

قاوم الشمطلى نوبة طارئة من الإحباط :

ـــ خطتى الثانية تسعى إلى استغلال الخصومة التى وقعت بين عارف ويشكر بعد زواجه من قطر الندى وتخليه عن الندوة !

ـــ لكن المياه عادت بينهما إلى مجاريها بعد خروجه من هنا !

ـــ قال لى بعض رجالنا أن يشكراً أصبح يحقد عليه بعد أن استعاد مكانته التى كان استأثر بها فى أثناء غيبته !

ـــ وكيف ستدفع يشكر إلى أية خطوة بعد أن تعرض له نمر وديب ؟!

افتر فم الشمطلى عن أسنانه الضخمة الصفراء :

ـــ لن ندفعه إلى أية خطوة .. وإنما سيجد نفسه متورطا فى قتل عارف !

ـــ لا تنس يا شمطلى أنه لا يزال زوج ابنتى ووالد حفيدى !!

ـــ إذاً .. فأنت تريد لحفيدك أن يصبح من آل النباش .. أما آل الكبش فيبدو أن الزمن قد حكم عليهم بالاندثار بعد هذا التاريخ الطويل العريض ؟!

قطب المعلم جبينه . اتسعت حدقتاه فى حيرة امتزجت بنفاذ الصبر :

ـــ وكيف سيجد يشكر نفسه متورطا ؟!

كان الشمطلى جامدا صلبا لا يطرف له جفن :

ـــ عارف اعتاد زيارته فى بيته بزقاق المستكفى فى الفترة الأخيرة .. ومن السنهل اقتحام البيت الذى يعيش فيه يشكر بمفرده وتخديرهما .. ثم ذبح عارف وتلطيخ يشكر بدمائه .. ثم إبلاغ الشرطة !

ـــ وماذا عن خطتك الثالثة ؟!

ـــ يبدو أنك لم تعد معجبا بخططى ؟!

وضح احمرار مقلتى المعلم وتحجرهما :

ـــ لقد ملأ عارف عقول الشباب فى ندوته بخطط المقريزى وخطط على مبارك .. لدرجة أن خطط الشمطلى قد بدأت فى فقدان أثرها ؟!

ـــ الخطط التى يتكلم عنها كلام فى كلام .. أما خططى فتلزم كل

إنسان حدوده من أجل استمرار سيادتك وسطوتك !!

اختلج ركن فمه الأيسر :

ـــ خطتك جريئة ومجنونة ويمكن أن تقلب الدنيا على رءوسنا !

ـــ سأقول لك عن خطتى الثالثة .. فإذا لم تعجبك فلا يسعنى سوى أن أترك الأمر برمته كى تعالجه بطريقتك !

ـــ إننى أفكر فى تغيير مجرى الأحداث حتى لا يصبح لعارف أى وزن ؟! فالعجيب أننى تعلمت منه أن تغيير فكر الناس وسلوكهم أخطر وأبعد أثراً من مجرد التصفية الجسدية لهم !

ـــ أنا لا أفهم فى مثل هذه الأمور !!

ـــ القلعة كلها تعيش من خيرى وفضلى .. ومعظم الأهالى يعملون فى مشروعاتى .. أما عارف فلا يملك سوى بعض الأفكار الطائشة الفارغة التى لا تسمن ولا تغنى من جوع !! ولذلك لا بد أن نتبع طريقا جديدا لاستمالتهم وسحب السجادة من تحت قدميه !!

استأنف الشمطلى حديثه كأنه لم يسمع شيئا :

ـــ خطتى الثالثة والأخيرة يمكن أن تستغل العربة الصغيرة التى اشتراها عارف أخيرا !

ـــ كيف ؟!

ـــ إنه يتركها فى العراء أمام بيته .. سأكلف اثنين من الصبية الذين يعملون فى ورشتنا لإصلاح السيارات بإفساد فراملها .. فإذا ما انطلق بها كان فى هذا حتفه أو حتف من سيصطدم به .. وفى الحالين نكون قد تخلصنا منه !!

ـــ هل تريد أن نكون تحت رحمة صبيين يمكن أن يعترفا نتيجة لأى

إغراء أو تهديد ؟!

ــ هذه مشكلة أنا كفيل بحلها !!

ــ لا تظن أن الحوار بيننا الآن لم يثمر .. فقد وضحت الرؤية أمامى تماما .. لا بد أن يدرك الأهالى أن مصلحتهم بل ولقمة عيشهم تحت رحمتى .. وأن هذا الملعون يسعى إلى قطعها بتحريضه السخيف .. فإذا نجحنا فى هذه الخطة نكون قد قضينا على أثره تماما بين الأهالى .. فيعود إلينا ذليلا خانعا معترفا بتطاوله على سادته .. وبذلك نكون قد ضربنا عدة عصافير بحجر واحد دون خوف من شبهات أو اتهامات .. فقد آمنت أخيرا بأنه لا بد من محاربته بسلاحه .. ولندخر أسلحتنا الأخرى لمن يتجرأ من العمال ويسعى إلى تحريض زملائه ضدنا !!

اشتعل وميض فى عينى الشمطلى كأن خطة رابعة طرأت على ذهنه الذى يكاد يحترق توقدا :

ــ إذاً .. لا بد من مضاعفة هيبتك حتى يسير الأهالى فى القلعة وهم يتلفتون ذات اليمين وذات اليسار !!

انفرجت أسارير الكبش لأول مرة فى تلك الليلة الكئيبة :

ــ ما أمتع أن تلتقى أفكارنا !! هكذا كنا دائما !! . . . .

. . . . وماذا تقترح لتطبيق هذه الخطة ؟!

ــ أن تختفى هذه المرة أسبوعا فى المقطم .. على أن نترك الأهالى بأنفسهم يشيعون ظهورك ليلا فى تكية الدراويش ومجرى العيون والحوض المرصود ودرب البير وحول مشرحة زينهم !! أى أن رجالنا لن يقوموا هذه المرة بنشر الإشاعات بأنفسهم !!

انتصب الكبش فى مقعده قابضا على رأس عصاه :

ــ كيف ؟! هل ستجند بعض الأهالى ؟!

ــ لست بهذه السذاجة !! ستظهر لهم بنفسك فى هذه الأماكن ليلة وراء أخرى طوال الأسبوع !!

ــ إنك تتحدث الليلة بالألغاز ؟!

ــ أبداً .. الأمر فى منتهى البساطة .. سأكلف رجالنا بتحطيم معظم المصابيح الكهربية التى يعلقها الأهالى أمام بيوتهم لإنارة الطرقات والأزقة .. وستهبط من المقطم كل ليلة بعد حلول الظلام وتوغل الليل .. بوجه ملثم لا يكشف إلا عن العينين .. ثم تكمن فى منحنى أو زاوية تفاجئ منها واحدا أو اثنين من الأهالى !!

ــ وإذا كان جريئا وحاول تبادل الحديث معى ؟!

ــ ليس كل الأهالى مثل عارف .. لن يجرؤ أحد على الوقوف .. بل سيطلق ساقيه للريح .. وسيظل يحكى لكل من يقابله الرعب الذى رآه بعينيه اللتين ستأكلهما الديدان .. هذا إذا نفذ بجلده ولم يسقط ميتا !!

تحول انفراج أسارير المعلم إلى ابتسامة عريضة :

ــ فعلا .. الخوف سلاح أشد خطرا من القتل نفسه !

ساد الصمت للحظات خيل فيها للكبش أنه يسمع دقات خفيفة على بابه المغلق . أرهف الشمطلى سمعه للدقات التى تعالت قليلا فأسرع إلى فتح الباب وهو ينظر فى دهشة إلى المعلم . كانت قطر الندى بالباب شاحبة الوجه ، ذابلة العينين ، مشعثة الشعر ، متكورة البطن ، ترتدى روبا من الصوف الأصفر ضاعف من شحوبها . انتفض المعلم واقفا :

ــ منذ متى كنت وراء الباب ؟!

دهنت للهجته الهجومية :

ــ أبداً .. منذ لحظة !!

ثم تساءلت فى براءة وهى تتراجع بظهرها :

ــ هل جئت فى وقت غير مناسب ؟!

ــ إنها المرة الأولى التى تطلبين فيها مقابلتى منذ زمن بعيد .. هل وقع شيء ؟! كنت أنا الذى آتى إليك دائما ؟!

ــ لم أر حضرتك منذ زمن طويل .. برغم حاجتى إلى مساعدتك وعطفك !

أفسح لها الشمطلى الطريق والمعلم يقول :

ــ تفضلى .. ادخلى يا حبيبتى .. روحى فداك !!

تقدمت نحوه فى حين خرج الشمطلى مغلقا الباب خلفه . جلست على مقعد الشمطلى دون أن تنظر إلى عينى أبيها الذى لم تعد تعرف موقعه من حياتها . سألها فى لهفة لم يستطيع كتمانها :

ماذا هناك ؟!

ــ تصور يا بابا أن الشمطلى وتمر حنة قد منعانى من الاتصال بعارف لمعرفة أحواله والاطمئنان عليه !!

سرى الحنق فى عروقه . فهى لا تزال تتكلم عنه ببراءة قائلة :

ــ ولماذا لم يتصل هو بك ؟!

ــ أنا واثقة أنه داوم الاتصال لكنهما قاما بصده ومنعه من مخاطبتى !

لم يجد الكبش بدا من حسم الموقف :

ــ تلك كانت أوامرى لهما !!

لم تعد قطر الندى تلك الفتاة الحالمة المستسلمة . قالت بثقة جديدة

عليها برعم وهنها الواضح :

ـــ أليس زوجى ؟! ومن حقى الاتصال به تليفونيا على الأقل ؟!

ـــ لو كان زوجك حقا .. لاحترم البيت الذى يضمّه .. ولم يحاول اغتصاب خادمتك .. حقا إن الطيور على أشكالها تقع !!

توقف الكبش عن التنفس مع آخر كلماته حتى يرصد كل ما يطرأ على وجهها ، لكنه ذهل عندما وجد الاشمئزاز يزحف عليه لأول مرة :

ـــ إنها كاذبة حقيرة .. لم أسترح إليها أبداً .. احتملتها فقط لأننى لم أجد إنسانا آخر أبثه همومى وآلامى !

ـــ ولماذا لم تحك لأبيك عن هذه الهموم والآلام التى أعتقد أنها من قبيل الأوهام ؟!

ـــ لم أذق طعم السعادة إلا مع أمى التى رحلت فى طفولتى .. ومع عارف الذى رحل فى عز شبابى ؟!

صعق الكبش . فهذه التى تحدثه ليست قطر الندى ، لكنه آثر أن يحنى رأسه لعاصفتها حتى يبلغ معها آخر مدى لأفكارها :

ـــ لم يجبره أحد على الرحيل ! كما أننى لم أدخر وسعا لإسعادك ؟! هل هذه هى مكافأتى بعد كل هذا التفانى فى خدمتك والمحافظة عليك ؟!

ـــ المكان الطبيعى للزوجة هو إلى جوار زوجها ! وأنا حتى الآن لا أجد سببا مقنعا واحدا لعزلى عنه بهذا الأسلوب ؟!

ـــ أبعد كل ما وقع لا تجدين سببا مقنعا واحداً ؟!

ـــ الخزانة وأسرار القلعة وألغازها أمور لم تعد تهمنى .. بعد أن أصبحت حياتى هى العدم بعينه .. إننى أموت فى اليوم ألف مرة !!

ـــ هل نجح فى السيطرة عليك إلى هذا الحد ؟!

ـــ الحب لا يعرف السيطرة !
ـــ ما حدث بينكما كان زواجا سمحت به لكما .. ولم يكن حبا !!
ـــ ولماذا سمحت به طالما أن نيتك لم تكن صافية تجاهه ؟!
ـــ نيته هو التى لم تكن صافية .. أردت أن أعيد الوئام والسلام إلى القلعة .. لكن يموت الزمار ويده لا تزال تلعب !
ـــ وإلى متى ستظل الأمور على ما هى عليه من سوء ؟!
ـــ إلى أن يعرف حجمه ويتخلى عن أحلام الزعامة والتطاول على الكبير !!
ـــ وأظل أنا ضحية مسائل لا ناقة لى فيها ولا جمل ؟!
حفر المعلم السجادة العجمية بعصاه :
ـــ ما هذه النغمة الجديدة التى أسمعها يا قطر الندى ؟! هل علمك أيضا التطاول على أبيك ؟! كنت أتوقع أن تطلبى الطلاق لا الوصال !
لم تهتز وإن اختلجت شفتها السفلى الشاحبة :
ـــ التطاول شىء وقول الحق شىء آخر تماما !! كما أننى لا يمكن أن أطلب الطلاق من إنسان وضعنى فى قلبه وعينيه !!
ـــ الدليل على سذاجتك أن القلعة كلها تتحدث عن عزمه على قتل أبيك .. وأنت تطالبين بالوقوف إلى جواره ؟!
لم تستسلم كما توقع :
ـــ لم يعد للقلعة سوى الأقاويل والإشاعات والثرثرة كالعجائز والعوانس !! إن عارف المثقف المهذب لا يسمح لنفسه بأن يجرح إحساس أى إنسان فضلا عن قتله !!
لم يتوقع أن تتفاقم الأمور إلى هذا الحد :

ــ لم أكن أعرف أنك لا ترين سواه على وجه هذه الأرض !! ماذا فعل بك ؟!

ــ أحبنى !! وعرض نفسه للخطر من أجلى !

ــ صدقت أكاذيبه عن تربصى به ؟! دفعك إلى كراهيتى التى لم أكن أتصور أننى سأواجهها فى يوم من الأيام ؟! أنا الذى نذرت حياتى من أجلك وجعلتك تعيشين أميرة فى قصرك !! كل هذا دست عليه مقابل الأكاذيب والأوهام والأقوال المعسولة التى باعها لك !! لا أكاد أصدق أذنى !! إنك تستغلين معزتك عندى أكثر من اللازم !!

ــ أنت أبى على عينى ورأسى !! لكننى لا أجد تناقضا فى أن تكون حياتى طبيعية معك ومعه فى الوقت نفسه !

ــ تغيرت كثيرا .. لم تعودى قطر الندى التى ربيتها وعرفتها !! ماذا تريدين بالضبط ؟!

ــ لا أريد سوى الحياة العادية التى يمكن لأية زوجة أن تعيشها .. خاصة إذا كانت حاملا لأول مرة مثلى !! فلم أعد أحتمل السجن الذى حكم به علىّ منذ حصولى على الشهادة الإعدادية !

ــ تسمين القصر سجنا ؟! لن أسمح لك بالتطاول أكثر من هذا !!

نهض الكبش متكئا على عصاه على سبيل إنهاء المقابلة . نهضت بدورها وهى تلاحظ لأول مرة فى ضوء القنديل الخافت خطوط الشيخوخة وقد أصبحت غائرة فى وجهه . عوت العاصفة ولطمت المشربية من الخارج . أوشكت جمرات الفحم فى مدفأة الجدار على التحول إلى ذرات من الرماد الداكن :

ـــ انت لا تعرفين قيمة أبيك !! لكنك ستعرفينها جيدا عندما تفقدينه وتجدين نفسك وحيدة فعلا فى هذا العالم !!

اقتربت منه متأثرة بهذه الكلمات التى تصدر عنه لأول مرة ، لكنه تباعد عنها متراجعا خطوتين إلى الخلف . التصقت قدماها بالأرض :

ـــ حبى له لا يمكن أن يزيد عن حبى لك !!

تحرك إلى المدفأة التى اتكأ على حافتها الرخامية كما لو كان محتاجا للدفء الهاربـمع الجمرات الرمادية :

ـــ تعلمت منه الأقوال المعسولة أنت أيضا !! المهم سنرجئ الحديث فى هذا الموضوع إلى ما بعد عودتى من خلوتى فى المقطم .. التى قد تصل إلى أسبوع هذه المرة .. بعد أن تقمصتنى روح الحاكم بأمر الله !! سأذهب لأتأمل وأنفرد بروحى لعل الأمور تعود إلى مجاريها !!

لم تعرف قطر الندى سببا للكآبة التى اجتاحتها من الداخل ودفعتها إلى أن تقول دون وعى منها :

ـــ لا تذهب يا أبى .. فقد ذهب الحاكم بأمر الله هناك منذ أكثر من ألف سنة ولم يعد حتى الآن !! فلم يعثر أحد على جثته !!

ـــ لا تصدقى الخرافات التى ملأ بها رأسك ! فهذه هى تمنياته لى .. تمنياته التى لن أحققها له أبداً !!

ـــ لم يتمن عارف الشر لأحد !! فهو يحب الناس كلهم كما لو كانوا أسرته !

ـــ لن أفتح الموضوع مرة أخرى !

ـــ لا بد أن يكون الصقيع شديدا الآن فى القطم !

ـــ الصقيع أخف وطأة من العقوق .. من عض اليد التى تمتد

بالمساعدة !

كانت على وشك أن تفتح فمها ، لكنه أشار إليها بالتزام الصمت :

ـــ لا أحب لك السهر أكثر من هذا ! فأنا أخاف عليك وعلى صحتك !!

ـــ حفظك الله لى يا أبى !! تصبح على خير !!

ـــ وأنت من أهله !

ساد الصمت ولم يسمع سوى حفيف ردائها فوق السجادة وهى تخرج مغلقة الباب وراءها . تعالى عواء العاصفة وثقلت دقاتها على المشربية مع صوت داخله يقول :

ـــ يبدو أن الشمطلى كان محقا فى كل ما قاله !! لو سمع نصحه منذ البداية لما سمح لهذا الملعون بدخول القصر .. ولما أصبح مهددا بفقد ابنته .. ابنته التى لا يتخيل الحياة بدونها !!

انطفأت جمرات الفحم تماما وأوشكت العاصفة أن تقتلع المشربية من الجدار السميك .

سرى الرعب مع الصقيع فى كل أزقة القلعة وطرقاتها ، وهاجما الأهالى فى عقر دارهم حتى تحولت إلى قلعة أشباح بعد الخامسة مساء . حتى أوراق الصحف الصفراء المهلهلة ، وأكوام القش والتراب ، وبقايا الخضراوات لم تصمد فى وجه الرياح التى مسحت الطرقات وعرتها تماما مما تدثرت به سنوات وسنوات . كذلك اختفت الدواجن التى كثيرا ما كانت تمرح حول تلال القمامة بعد أن سجنها الأهالى فى أقفاصها سواء فى بئر السلم أو فوق السطح . أما الكلاب والقطط التى طالما ذرعت الطرقات فكانت تتلاشى مع آخر شعاع للشمس الغاربة . ومع حلول الظلام حل عواء ذئاب غريبة محل نباح الكلاب الأليفة ، زاد من وحشته مصابيح المنازل التى حطمتها أيد غامضة فأصبح السير ليلا ، كابوسا يتمنى السائر أن يستيقظ منه بأسرع ما يمكن .

وفى ضوء النهار سار الأهالى يتلفتون يمنة ويسرة . وإذا تبادلوا الحديث فهمسا كالفحيح . لم يكن لهم حديث سوى اختفاء المعلم الكبش وظهوره ليلا فى أماكن مختلفة . وكان رجال الكبش قد امتنعوا عن الظهور تماما ، ذلك أن الأهالى أنفسهم أصبحوا شهود العيان هذه المرة . فقد شاهدته امرأة عجوز يسير بين أشجار الكافور القريبة من خزان المياه فى أول ليلة دامسة الظلام ، فوقعت مغشيا عليها ولم تفق إلا فى بيتها بعد أن ظل ابنها يبحث عنها حتى عثر عليها فى الثانية صباحا . وفى الصباح أحضر لها الطبيب بعد أن ارتفعت حرارتها وشخص حالتها على أنها التهاب رئوى .

وفى الليلة الثانية رآه شاب جالسا فى تكية الدراويش . لم يصدق عينيه فاقترب منه حتى يتأكد أنه المعلم الكبش فوجد الشرر يتطاير من نظراته إليه برغم غياب القمر . ظل يهرول لاهثا حتى بلغ بيته فى القلعة فأحكم مزلاجه المغلق وجلس يحكى لأسرته المذهولة ما رآه .

وفى الليلة الثالثة رأته مجموعة من عمال المدابغ يدور حول فتحات سور مجرى العيون ، وكانوا فى طريقهم إلى بيوتهم فى القلعة فلاذوا بالفرار مارين بالسلخانة ومساكن زينهم الشعبية حتى كاد قلب أحدهم أن يتوقف ، فى حين سقط آخر عندما تعثرت قدمه بحجر فى طريق مظلم موحل . ومع ذلك واصلوا السباق حتى بلغوا القلعة .

وفى الليلة الرابعة شاهده طبيب شاب من سكان القلعة وهو يحوم حول مشرحة زينهم . كان الطبيب قد انتهى من نوبته المسائية فى المشرحة ، وبمجرد خروجه لمح المعلم من ظهره . ظن أنه جاء لخدمة معينة على غير عادته ، فعنده من الرجال والخدم من يلبى له أمره فى التو واللحظة . أسرع إليه ملقيا تحية المساء حين جاوزت الساعة منتصف الليل ، لكنه لم يرد وحث الخطى حتى اختفى فى شارع جانبى مظلم . وبرغم أن الطبيب اعتاد مصاحبة الموت القادم مع الجثث إلى المشرحة ، فقد سرت داخله قشعريرة كهربية دفعته إلى سرد ما شاهده على زوجته ، ثم عدة مرات على زملائه فى المشرحة .

وفى الليلة الخامسة شاهده عجوز قرب الحوض المرصود ، فأسرع قدر استطاعته عبر أزقة جانبية ، ولسانه يلهج : بسم الله الرحمن الرحيم .. أعوذ بالله من الشيطان الرجيم .. ارفع عنا غضبك يارب . وظل قابضا على مسبحته الكهرمانية بيده اليسرى ، وعلى عصاه بيده اليمنى حتى بلغ بيته

وارتمى على أول مقعد .

وفى الليلة السادسة لمحه جزار شاب خرج خصيصا بعد منتصف الليل عند درب البير لأنه لم يصدق شيئا مما قيل . أراد أن يتأكد بنفسه ، وإذ به يشاهد الكبش يسير أعلى درب البير مما جعل قدم الشاب تزل فوق حجر من أحجار البير وكاد أن يسقط أشلاء متناثرة فى شارع مارسينا الواقع أسفل الهضبة العالية لولا تشبثه بنتوء أنقذه فى آخر لحظة ، فعاد إلى أسرته شبه أخرس لا ينطق لسانه إلا بكلمة « الكبش » .. « الكبش » .

أما فى الليلة السابعة فلم يره أحد بعد أن أغلق الأهالى أبوابهم ونوافذهم مع غروب الشمس . تلك الأبواب والنوافذ التى ظلت مفتوحة على مصاريعها دون خجل من عيون الجيران . أما فى داخل البيوت التى أصبحت موصدة فقد اجتمعت كل أسرة حول الموقد طلبا للدفء ، ولتجاذب أطراف الحديث حول الأيام الغريبة التى أحاطت القلعة بالرعب والصقيع والريح ، حتى أوشك الأهالى على الإحساس بأنفاس الكبش على موائدهم وفى مضاجعهم ، وعلى الاعتقاد بجنون عارف النباش لتحديه رجلا لا تستطيع القلعة مجتمعة أن تواجهه . بل إن بعضهم بدأ فى التشكك فى صدق ما حكاه عن مغامرته فى السرداب من أجل بلوغ غرفة الخزانة التى تحتوى على السر القاتل ، وأصبح فى نظرهم مدعيا لبطولة كاذبة .

تناقص عدد الشباب المقبل على ندوة الجمعة التى حاول فيها عارف كشف ألاعيب الكبش ورجاله . لم يتجاوب معه سوى يشكر ومصطفى ، أما العدد الذى ظل يتناقص من الحاضرين ، فقد آثر الصمت وعدم إلقاء أسئلة أو الدخول فى مناقشة حتى تحولت الندوة إلى محاضرة من طرف

واحد لا تكاد تجد صدى عند الطرف الآخر . تأكد عارف أن محاولاته لتكذيب ما يحدث قد تلاشت مع هبات الرياح خارج زجاج المقهى . بل إنه خرج بنفسه أكثر من مرة بعد منتصف الليل ، برغم إلحاح أمه وتضرعها كي يلزم عقر داره ، لكنه لم ير شبحا يجوب الطرقات . كان واثقا من أن الكبش يلعب لعبة جديدة يظهر فيها بنفسه بعد أن حطم رجاله مصابيح القلعة ، لكن أحدا لم يصدقه . وأصبح « الشبح » ضمن ألقاب الكبش العديدة . كان التيار عارما لدرجة أن الأهالى عادوا إلى تجاهل عارف عند لقائه فى طرقات القلعة ، مما ذكره بفترة حياته القصيرة مع قطر الندى التى أوشك حنينه إليها أن يقتله قتلا . لذلك آثر العزلة والانزواء حتى تنحسر الموجة الطاغية وتتضح الرؤية وتعود الأشياء إلى حجمها الطبيعى ، لدرجة أنه توقف عن حضور الندوة ونصح كلا من يشكر ومصطفى بأن يحذوا حذوه . وكانت أسرته وخاصة أمه أسعد الناس بهذا القرار الذى جعله يلزم بيته ويسهر فى إعداد رسالته للماجستير التى أوشك على الانتهاء منها .

أما الشمطلى فكان يعيش أسعد أيامه وأجمل لياليه . كان المعلم يكمل ليلته وكل نهاره فى المقطم ، فى حين قام الشمطلى بتزويده بالشراب والطعام . وفى الليل بمجرد أن تأوى قطر الندى إلى فراشها ، كانت تمر حنة تتسلل إلى غرفته فى أبهى ثيابها وعطورها ، يشربان نخب الأيام المجيدة القادمة ، ويغوصان فى خضم بحيرة الملذات التى تفور مياهها وأبخرتها من هضاب تمر حنة وجبالها الشاهقة ووديانها السحيقة المخضبة بزبد الأمواج . لم يكن القصر كله ملكهما فحسب ، بل القلعة والدنيا كلها . فقد استطاع الشمطلى أن يضرب ضربته القاضية التى أحالت البشر

إلى فخران ، وجعلت المعلم نفسه خاتما فى أصبعه يقضى أيامه ولياليه وحيداً فى ظلام المقطم وصقيعه ، فى حين يتقلب هو فى أحضان تمر حنة الساخنة داخل قصره الوثير ، ومن حين لآخر يحلو له أن يفتح المشربية ليطل منها على القاهرة القابعة عند قدميه ، برغم لفحات الريح ورذاذ المطر واحتجاجات تمر حنة العارية فى فراشه . كان يتلذذ بلسعة الصقيع على جسدها الساخن الخمرى الذى سرعان ما يحتمى بالفراش مع ابتسامة عتاب تقطر إغراء . فيغلق المشربية ويشرع فى غزوها مرة أخرى ، إذ يبدو أنه أسبوع الغزوات . وكانت النكتة المفضلة بينهما أنه إذا كان المعلم هو الحاكم بأمر الله ، فإنه — الشمطلى — هارون الرشيد !

لم يحتمل عارف إحناء رأسه للعاصفة أكثر من هذا ، فقام بزيارة لضابط المباحث فى قسم السيدة زينب . وعندما شرع فى سرد الأحوال الغريبة التى تمر بها القلعة ، اكتشف أن الضابط على علم بكل ما يجرى ، لكن ليس هناك شىء محدد ملموس يمكن اعتباره منافيا للقانون ، والتحرك على أساسه لاتخاذ إجراءات مضادة . لكن عارفا عبر عن ضيقه بعجز القانون الذى لا يتحرك إلا بعد وقوع الكارثة ، وعندما سأله الضابط عن السبب وراء توقعه لكارثة ، أجاب وهو يهم بمغادرة المكتب بأنه مجرد إحساس داخلى تشربه من الجو الكئيب المريب الذى شحنت به القلعة .

ضحك الشمطلى كثيرا عندما أنبأه رجاله بزيارة عارف لقسم الشرطة . أصبح عاجزا لا يملك سوى الشكوى من شىء لا يمكن الإمساك به ، شىء تجاوز حدود التصديق والتكذيب . ضحك لأن اليوم الذى تمناه ،

جاء أخيرا . اليوم الذى سيمحق فيه كل من وقفوا فى طريقه ! إن ثلاثين عاما فى خدمة الكبش لا يمكن أن تضيع هباء لمجرد أن صبيا مثل عارف نجح فى الزواج من ابنة الكبش ! لقد قضى على أبيه لمجرد أنه تحدى المعلم بالكلام ، فهل يترك الابن كى يستولى على الابنة والقصر والقلعة كلها أمام ناظريه دون أن يحرك ساكنا ؟! فإذا كان قد نجح فى إرسال الكبش إلى المقطم ، فليس أقل من أن يبعث بعارف إلى الجحيم !! ستظل العاصفة عارمة حتى تقتلع كل أعدائه من جذورهم !!

لم تستمر العاصفة على نفس الوتيرة الحادة ، لكن الخوف الذى عشش فى القلوب ظل ملكا عليها برغم مرور أكثر من شهر على أسبوع الأحداث الجسام . ساد القلعة إحساس بأن السكون الراهن لا بد أن تعقبه عاصفة أعتى من سابقتها . خاصة وأن أخبار المعلم الكبش انقطعت تماما ولم يعد أحد يرى سيارته السوداء الفارهة فى ذهابها وإيابها إلى القصر . وبدأ الأهالى فى التجرؤ على الخروج ليلا ، ولم يحدث أن قال أحدهم إنه لمح شبحه هنا أو هناك .

ظلت قطر الندى تسأل الشمطلى وتمر حنة عن أبيها إلى أن انتزعت منهما اعترافا بأنه لم يعد بعد من خلوته . نهشها القلق الكئيب برغم نصيحة الطبيبة التى باشرت حملها بتجنب كل ما من شأنه التأثير على صحتها وصحة الجنين ، خاصة وأن ضعفها العام لم يبشر بولادة سهلة بعد أن بدأت شهرها السابع . ومع ذلك تفننت تمر حنة فى فتح جحيم القلق عليها حتى أخبرتها أن القلعة كلها تقول إن عارفا قد انتهز فرصة خلوة المعلم وانتقم منه بقتله . شهقت قطر الندى ولم تفق من إغمائها إلا بعودة الطبيبة التى لازمتها معظم ليلتها وهى تندب حظها العاثر الذى حكم عليها

بمصرع أبيها وفقدان زوجها .

لم تكن تمرحنة كاذبة . عادت الإشاعة القديمة لتسرى فى الأزقة والبيوت سريان النار فى الهشيم ، يدعمها هذه المرة اختفاء المعلم . جثم الرعب على كاهل أم عارف فأصيبت بأزمة قلبية لأول مرة فى حياتها ألزمتها الفراش شهرا عاشت فيه بثينة وزوجها عبد العليم حولها فى جحيم الخوف عليها من نكسة محتملة ، وفى جحيم القلق على عارف الذى ودعها مدعيا قيامه برحلة طويلة مع الكلية لدراسة بعض الآثار المملوكية ضمن بعثة حفائر فى منطقة قلعة قايتباى بالإسكندرية . لم يصدق قلبها نبأ هذه الرحلة وأوحى إليها بأشياء كالكابوس ، لكنها رضخت لما تأتى به الأيام .

لم يحدث أن كذب قلبها عليها من قبل . فقد صعق عارف بحضور ضابط وشرطيين إلى بيته ومعهم أمر ضبط وإحضار من النيابة للتحقيق معه فى تهمة قتل المعلم الكبش وإخفاء جثته . لم يخبر سوى أخته وزوجها ، واتفق ثلاثتهم على كتمان الأمر عن الأم التى لم تكن قد جاوزت مرحلة الخطر . وخرج عارف معهم بتهمة لم يشك لحظة فى أن الشمطلى مدبرها . وها هى الكارثة التى حدث عنها ضابط المباحث قد حلت به هو ، فلم يعرف هل يحمل هم مستقبله أم هم أمه أم هم قطر الندى ؟! وربما اعتقد الضابط أنه قتل الكبش فعلا لاعترافه المسبق أمامه بأن كارثة على وشك أن تقع !! هكذا أراد الشمطلى أن يضرب أكثر من عصفورين بحجر واحد : هو وأسرته والكبش وقطر الندى ! إن الشيطان نفسه ليعجز عن وضع خطة جهنمية كهذه !! ومع ذلك لم يفقد عارف رباطة جأشه ليقينه من أنه فى النهاية لن يصح إلا الصحيح !

قضى عارف فترة الحبس دارساً لكل الاحتمالات والتوقعات . فلم يكن لديه شيء يعمله سوى التفكير ليل نهار فى الخروج من هذا المأزق . وانتهز فرصة إقبال الصحفيين عليه لمتابعة القضية فعرضها بكل أسرارها الدقيقة بحيث خرج بها لأول مرة بعيدا عن حدود القلعة . أما عميد الكلية ورئيس القسم فقد وقفا معه موقف التأييد بل والإكبار ، سواء على صفحات الصحف أو فى محاضرات الكلية برغم تشفى بعض منافسيه فيه . مما كان له أعظم الأثر فى رفع روحه المعنوية ، خاصة وأن بثينة وعبد العليم قد نجحا تماما فى حجب الصحف عن أمه . كذلك كان المحامى سعيدا بهذه القضية لدرجة أنه رفض الحصول على أية أتعاب إلا بعد ظهور الحق .

وبرغم أن الشمطلى قد حشد له من شهود الزور من حاول أن يثبت عليه ذهابه إلى المقطم مرتين فى أعقاب الكبش ، فى حين أكد آخر اعترافه أمام شباب ندوة الجمعة بعزمه على التخلص من الكبش ثم امتنع عن حضورها بعد هذا الاعتراف ، برغم كل هذا لم يفقد تفاؤله بأن الحق لا بد أن ينتصر فى النهاية . حتى دموع الشمطلى أمام المحقق حزنا على سيده ، وتثبيتا للتهمة على عارف ، كانت من الإفتعال بحيث لم يندهش المحقق عندما اتهم عارف الشمطلى بقتل الكبش ، خاصة وأنه خبير بأسرار كل مشروعاته وحساباته العلنية والسرية ، وفى إمكانه السيطرة عليها كلها بعد رحيله بصرف النظر عن افتقاره إلى صلة القربى التى بنى عليها

اقواله وشهادته على أساس أنه لن يرثه فى شىء .

كان تفاؤل عارف فى موضعه . فلم تسفر التحريات والتحقيقات عن أى دليل على اتهامه وتم الإفراج عنه بدون ضمان ، وعاد إلى بيته مدعيا عودته من الرحلة العلمية . وكانت فرحته لا تقدر عندما لمس التحسن الملموس فى صحة أمه التى قرأ فى عينيها عدم تصديقها لحكاية الرحلة ، لكن فرحتها بعودته سالما غمرت كل الأحاسيس وساعدتها على التقدم خطوات واسعة نحو الشفاء الكامل ، مما ضاعف من تفاؤل عارف بقرب بزوغ الفجر الذى طال انتظاره ، ومما حفزه للتفكير فى ضربة قاضية يوجهها إلى رأس الأفعى .

كانت أول خطوة قام بها بعد الإفراج عنه ، ذهابه بل اقتحامه القصر للقاء زوجته وحبيبة عمره . ركب عربته الصغيرة وإلى جواره صديق عمره يشكر الذى أصر على اصطحابه ، فى حين جلس فى المقعد الخلفى ثلاثة من رجال الشرطة السرية أرسلهم ضابط المباحث معه لمهمة خاصة باستكمال التحقيق فى قضية الكبش الذى خرج ولم يعد .

غادرت العربة قسم السيدة زينب مخترقة شارع مارسينا ثم صعدت الطريق المحاذى لسور جامع ابن طولون . كان شهر مارس يسلم أيامه الأخيرة لإبريل وقد افترشت الشمس الساطعة الدافئة الأزقة والطرقات والمنازل والوجوه التى لم يتخل عنها الخوف بعد . قبع الصمت داخل العربة . كان عارف مشغولا بالصورة التى سيرى قطر الندى عليها بعد شهور مرت كأجيال . دار فى ذهنه شريط الذكريات فأسرع بالعربة حتى وقف بها أمام البوابة المقوسة من أعلى . هبط منها فى عجلة واضحة مع يشكر فى حين ظل رجال الشرطة السرية فى مقعدهم الخلفى يراقبون

الموقف عن كثب .

نهض فهد ونمر وديب لملاقاة القادمين . وقف يشكر يبتسم ساخرا من نمر وديب وقد علق ذراعيه على وسطه . قال لنمر الذى بدت فى جبهته آثار عملية جراحية :

— كيف حال الجبهة القوية الصامدة ؟!

رد نمر بنفس السخرية :

— تهديك السلام !

لم يعبأ بل قال لديب متسائلا باستهزاء :

— وأنت .. كيف حال الذراع الحديدية ؟!

دون تفكير أخفى ديب ذراعه اليمنى خلفه وعلق متلعثما :

— ليس هذا من شأنك !

أمسك عارف بيد يشكر وجذبه بعيدا عنهما :

— هيا بنا .. ليس لدينا وقت نضيعه !

لكن فهدا تصدى له :

— إلى أين ؟!

— ليس من حقك هذا السؤال الوقح !!

رفع فهد يده مهددا ملوحا فى الهواء :

— إياك أن تطيل لسانك !!

وقبل أن يفتح عارف فمه بالرد ، كان الشمطلى يدور مسرعا بحذاء النافورة المرصعة بالرخام الملون حتى وقف قبالة عارف :

— نعم ! أية خدمة ؟!

— جئت لأصطحب زوجتى إلى بيتى!إهل هناك مانع ؟!

انفرجت أسارير الشمطلى الذى ظن فى بادئ الأمر أنه جاء للاستيلاءعلى الجمل بما حمل ، لكنه لم يخطر بباله أنه جاء طلبا لزوجته . غال والطلب رخيص ! تنبه على سؤال عارف :

ـــ هيه ؟! ماذا قلت ؟! أتحب أن أدخل عنوة ؟!

إستدرك الشمطلى قائلا فيما يشبه الاعتذار :

ـــ أبداً .. أبداً .. بيتك ومطرحك .. إنها فى غرفتها !! تفضل !

حاول فهد اعتراض يشكر عندما هم بالتحرك فى أعقاب عارف لكن الشمطلى نهره :

ـــ دعه !! إنه صديق عمره ! وأنا أقدس الصداقة !!

أسرع عارف عبر الطريق الذى حفظه عن ظهر قلب ، مارا بالقاعة الأرضية وصاعدا فوق السلم العتيد ، وهو يكاد يسمع دقات قلبه . سار فى الممر المؤدى إلى غرفتها حيث رأى تمرحنة تتهادى فى رداء بنفسجى ، وعندما لمحته تساءلت فى ذهول :

ـــ هل قابلت المعلم الشمطلى ؟!

هوى بكفه بصفعة على وجهها تردد صداها بين جنبات الممر :

ـــ اخرسى يا فاجرة !! تريدين منى الحصول على إذن من هذا المجرم كى أرى زوجتى !!

امتزجت أصداء الصفعة بصرخة حادة أفلتت من شفتيها الغجريتين . أخفت وجهها فى نفس اللحظة التى فتحت فيها قطر الندى الباب بعينين مستفسرتين عما يجرى فى ذهول شاحب . رأت عارفا كما لو كانت قد لمحت شبحا ، لكن وقوف يشكر خلفه أكد لها أنه أمامها بشحمه ولحمه . لم تكن قد رأت يشكرا من قبل لكنها عرفته من وصف عارف

له . جرت تمر حنة إلى غرفتها وأغلقتها عليها فى حين تراجع يشكر خطوات إلى الخلف . اقترب منها عارف دون تفكير :

— لم أتصور أنك أصبحت بهذا الشحوب والهزال ؟! كنت كالوردة البضة فى تفتحها للحياة !!

جذبها فى رقة إلى داخل غرفتها ، فأسرع يشكر بغلق الباب خلفهما . سألته وهى تسير إلى جواره دون أن تستيقظ من هول المفاجآت :

— كيف أتيت ؟! ماذا حدث ؟! لم أعد أدرى شيئا ؟! هل تعلم أن أبى لم يعد وأنهم اتهموك بقتله وإخفاء جثته ؟ لكننى أعلم من قتله وعلى استعداد للشهادة ضده !! فهو الذى أوحى إليه بالاختفاء برغم تحذيرى له ! ما آخر الأخبار ؟! حبسونى هنا وعزلونى عن الدنيا ! حتى ظننت أنك هجرتنى أيضا !! لكنك عدت إلىّ لتنتشلنى من الجحيم الذى كاد يحرقنى ويحرق طفلى !! لا تتركنى وحدى مرة أخرى ! فلن أحتمل هجرك مرتين !

كانت كالأخرس العطشان الذى وجد أخيرا نهرا عذبا من الكلمات والأسئلة ! ارتمت على صدره وجداً ووهناً . فاحتضنها وسار بها حيث أجلسها إلى جواره على حافة الفراش وهو يغمر شعرها ووجهها بالقبلات :

— أرجوك !! لا تتركى للقلق والخوف واليأس طريقا إلى قلبك مرة أخرى !! سأجيب عن كل أسئلتك لكن ليس الآن !! جئت خصيصا لتنفيذ ما تطلبينه !! فلن أتركك تحت رحمة مخلوق !!

تشبثت به كطفل وجد أمه أخيرا بعد طول بحث ! احتواها فى أحضانه مصغيا إلى همساتها التى امتزجت بدموعها المنهمرة الصامتة :

— لا أكاد أصدق نفسى ! كأننى فى حلم ساحر لا أريد أن أستيقظ

منه ! هل صحيح أنك عدت لتنير لى حياتى بعد طول ظلام ؟!

مسح على شعرها فاستكانت تماما له ، وتلاشت نبضات القلق داخلها . همس فى أذنها الصغيرة التى طالما قبلها وهو يمسح دموعها :

ــ هيا بنا .. ارتدى ملابسك وخذى كل ما تحتاجين إليه !! ستأتين معى إلى بيتى !! أسرتى كلها فى انتظارك على أحر من جمر !!

دون كلمة واحدة أسرعت إلى دولاب ملابسها وشرعت فى ترتيب حقيبتها الكبيرة وهى تغمغم :

ــ لا أكاد أصدق أننى سأخرج من هنا !! هل سيسمح لنا هذا المجرم بالخروج هكذا ؟!

تجسد الحسم فى نبرات عارف وهو يساعدها فى ترتيب حقيبتها :

ــ لن يكون ردى عليه سوى صفعة على وجهه مثل تمر حنة ؟!

سعدت قطر الندى بقوة زوجها الذى رأته لأول مرة على حقيقته التى طالما كبتها فى مواجهة أبيها . ألقت بردائها الأبيض فظهر بطنها كالكرة الصغيرة . أسرعت إلى ارتداء فستان بسيط وتسوية شعرها بأصابعها دون أن تنظر فى المرآة . وضعت قدميها فى حذاء كان ملقى تحت السرير . تحركت نحو الباب وعارف خلفها حاملا حقيبتها . شعرت بدماء دافئة تتدفق فى عروقها ، وبروح جديدة تدب فى أوصالها التى كادت أن تضمر من طول الظلام والصقيع . فتحت الباب وخرجت حيث كان يشكر الذى أسرع وأخذ الحقيبة من عارف الذى أمسك بقطر الندى بعد أن لاحظ خطواتها المهتزة كطفل يتعلم السير .

هبط ثلاثتهم على درجات السلم الخشبى مارين بالقاعة الأرضية صوب الفناء الخارجى حيث بلغ مسامعهم حوار حاد بين أصوات عالية

متعددة . كان الشمطلى يتجادل مع رجال الشرطة السرية الذين أحاطوا بالبئر وهو يكاد يموت كمدا وحنقا :

ـــ كيف يسمح الضابط بانتهاك حرمة البيوت بهذا الشكل ؟! وما الذى تهدفون إليه من حراسه بئر ليست بها نقطة مياه واحدة ؟!

أجاب كبيرهم وهو يضم المعطف الصوفى الثقيل حول جلبابه :

ـــ لآخر مرة أقول لك .. إننا أتينا بأمر من النيابة لحراسة هذه البئر حتى لا تمتد إليها يد عابثة !! هذه هى كل الأوامر التى لدينا لحين صدور أوامر أخرى !! ليس لك كلام معنا أكثر من ذلك !! وإذا لم تقتنع يمكنك ضرب رأسك فى هذا الجدار الحجرى المحيط بالسراى !!

تطاير الشرر من عينى الشمطلى لكنه كظم غيظه . فأى تراشق جديد بالكلمات لن يعنى سوى المزيد من إهدار هيبته أمام رجاله الصامتين خلفه . سار إلى القاعة الأرضية وهو يدق الأرض بعصاه وقد نفرت عروق فوديه .

رابط رجال الشرطة حول البئر فى حين عاد رجال الشمطلى إلى جلستهم عند البوابة دون أن يرفعوا أعينهم فى قطر الندى التى سارت فى هدوء مستندة إلى ذراع زوجها فى حين سبقهما يشكر إلى العربة الصغيرة التى أقلتهم ، وقطر الندى لا تصدق أنها تشاهد الناس فى الطرقات التى افترشتها الشمس ، وأنها تجلس إلى جوار زوجها الذى يقود سيارة لا بد أنه اشتراها مؤخرا . اجتاحتها مشاعر من ولد من جديد ، من كتب له عمر جديد . أوشكت على أن تحتضن عارفا وتقبّله ، لكنها تذكرت عيون المارة المتلصصة ، والصديق الجالس فى المقعد الخلفى .

بلغت العربة باب البيت العريق وساد الصمت بسكون محركها . لكن

ضجيج أطفال بثينة الذين لم يدخلوا المدرسة بعد ، دوى فى بئر السلم وسرعان ما كانوا يقفزون حول العربة كالعصافير فوق الشجرة ، وفى أعقابهم بثينة وأمها التى أصرت على استقبال زوجة ابنها عند الباب . أما عبد العليم فكان فى مدرسته . لم تصدق قطر الندى أن فى هذه الدنيا عائلات بهذه العذوبة والسعادة !! أحاطوا بها وأخرجوها من العربة بالقبلات والأحضان ! صعدوا حولها فوق درجات السلم الحجرى العريض كأنهم حرس شرف لها . وعند باب الشقة وضع يشكر الحقيبة الكبيرة عند المدخل واستأذن عارفا على أن يراه فى المساء للاتفاق النهائى على خطة ، اتفقا على خطوطها الأولية منذ أيام احتجازه رهن التحقيق .

جلسوا جميعا حول المائدة ذات المفرش الأبيض الناصع ، وقطر الندى تكاد تذوب حبا بين أحضان الأم ، وهى تعجب للحنان الجازف الذى غمرها وأوشك أن ينسيها أباها الذى راح ضحية الوسواس الخناس الذى تركه يوسوس فى صدره حتى قضى عليه فى النهاية . إنها ليست أقل شجاعة من حبيبها عارف الذى لم يرض لدم أبيه أن يهدر بلا مقابل . ستدلى بشهادتها التى لم يطلبها أحد ، وستحكى ما سمعته عندما همت بطرق باب غرفة أبيها ، ليلة آخر لقاء بينهما قبل أن يختفى إلى الأبد .

ــ سأطهو لك زوجين من الحمام .. فأنت والطفل فى أشد الحاجة إلى غذاء دسم !

تنبهت قطر الندى إلى كلمات الأم إليها فعلقت فى خجل باسم :

ــ لا أريد أن يكون وجودى هنا مصدر تعب لك !

ــ لن أقوم إلا بالطهى .. أما الذبح والتنظيف فمن اختصاص بثينة

الآن .. بعد أن منعنى الطبيب من الصعود إلى السطح كثيرا !
لم تملك قطر الندى سوى أن تقبل الأم :
ــ متعك الله بالصحة والعافية !
أسرعت بثينة إلى السلم صاعدة إلى السطح فى خفة تتنافى مع بدانتها التى لم تتأثر بالأحداث الأخيرة . التف الأطفال حول قطر الندى ، فاحتضنت أصغر اثنين منهم . تدحرجت دمعة كبيرة على خدها فمد الأصغر يده لتمسحها ، فلم تملك سوى الإمساك باليد الصغيرة وتقبيلها فى حين داعبت كلمات الأم الحانية أذنيها :
ــ قبلتك العافية !! لم يكن خوفى عليك بأقل من لهفتى على عارف .. وكل ما أتمناه من الله الآن أن تجئ العواقب سليمة .. فكفانا ما وقع لنا جميعا !

هبط نبأ عزم عارف على الهبوط إلى الغرفة الغامضة وفتح الخزانة ، على رأس الشمطلى كالصاعقة . أدرك الآن فقط لماذا أسماه الكبش « الملعون » ، وهو الذى استهان به واعتبره مجرد صبى أحمق ؟! هذا الصبى الأحمق يدفعه الآن للسقوط وسط الدوائر التى بدأت تدور بلا رحمة ! فقد بلغه نبأ اصطحابه لزوجته للقاء مع ضابط المباحث استمر أكثر من ساعة ! ولا بد أن ما قيل فى هذا الاجتماع ، لم يكن فى صالحه على أية حال . ثم جاءت الطامة الكبرى عندما حاول رشوة رجال الشرطة المرابطين حول البئر حتى يسمحوا له بالهبوط لمدة ربع ساعة فقط ، فما كان منهم سوى أن أبلغوا رؤساءهم ، ووجد الشمطلى نفسه متورطا فى قضية رشوة ، وأفرج عنه بالضمان المالى لحين تقديمه للمحاكمة .

ثم يقرر عارف فتح الخزانة الرهيبة بموافقة المسئولين وحضور كبار القلعة كما لو كان قد حل محل الكبش فعلا . بل إنهم يضعون له الحراس حول البئر قبل تشريفه بأيام عديدة . ما الأسلحة التى يملكها هذا الملعون حتى يقلب الموائد على رأسه بهذا الشكل ؟! الوقت يمر فى غير صالحه وعليه أن يسرع بسحق رأس الأفعى فى جحرها .

كان يذرع غرفته جيئة وذهابا فى حيرة لم يمر بها من قبل ، فى حين قبعت تمر حنة منزوية فى ركن قصى ترقبه من طرف خفى . توقف فجأة وأمرها فيما يشبه الصراخ المكتوم :

— أريد رجالى فورا .. هنا !

أسرعت تمر حنة خارجة فى صمت كئيب ، وبعد لحظات كان فهد ونمر وديب يجلسون حول الشمطلى الذى وضع ساقا على ساق ، هزها فى عصبية لم تخف على واحد منهم وقال بنظرات عبر المشربية المفتوحة على جبل المقطم الملتحف بهالة من الأتربة والرمال الشفافة ، والمتمسك ببقايا أشعة الشمس الغاربة :

ـــ هل سنقف هكذا مكتوفى الأيدى فى مواجهة ما يفعله هذا الملعون ؟!

أجاب فهد وقد حل داخله الرثاء له محل الإعجاب به :

ـــ الرأى رأيك يا معلم !

ـــ طالما أن الرأى لا يزال رأيى فلا بد من القضاء على هذا الملعون بأسرع ما يمكن قبل حلول يوم الجمعة القادم !

سمح نمر لنفسه بالاشتراك فى الحوار :

ـــ طالما أنه جُن وقرر فتح الخزانة .. فقد ذهب إلى الهلاك برجليه !

كظم الشمطلى غيظه من هذا الغبى الذى لم يستخدم عقله فى يوم من الأيام ، أو لعله يتخابث إيثارا للسلامة وتجنبا لمتاعب محتملة بعد أن رجحت كفة عارف . ألقى بسؤال مفاجئ على ديب :

ـــ هل يصح أن يلعب بنا هكذا ؟!

تحسس ديب ذراعه اليمنى باليسرى دون أن يواجه نظراته :

ـــ منذ أن كسر الملعون يشكر ذراعى .. ومكثت بالمستشفى أكثر من شهر .. وأنا أدرك أننا لن نأخذ زمننا وزمن غيرنا !

أنزل الشمطلى ساقه ودق بها السجادة :

ـــ هل يعقل أن يتحول الشجعان الأقوياء إلى جبناء ضعفاء هكذا ؟!

علق فهد فى تحفظ شديد :
ـــ لم نتأخر يوما عن تنفيذ أوامرك .. مهما كان فى ذلك خطر علينا ! لكن الموجة هذه المرة أقوى منا جميعا !! فما حدث منذ اختفاء المعلم لم يكن فى صالحنا أبداً !! كان السلاح المستخدم ذا حدين .. وقد أوشك الحد الآخر أن يهوى على أعناقنا !

استدار الشمطلى نحوه ببريق ومض فى عينيه برغم غياب الشمس :
ـــ أخيرا جاء اليوم الذى تعترض فيه على خططى يا فهد ! أنسيت أنك تراجعت عن المهمة الأخيرة التى طلبتها منك فى جبن ليس له نظير ؟! فكلفت بها صبيا فى سن أبنائك .. قام بها خير قيام !

تصاعدت المواجهة لأول مرة بينهما حين تساءل فهد :
ـــ ولماذا لا توكل إليه هذه المهمة أيضا طالما أنه بهذه الكفاءة ؟!

نضحت السخرية المريرة من ألفاظه :
ـــ هذا ما أنوى أن أقوم به فعلا ! لكن إذا نجحت خطتى فلن يكون لكم مكان هنا عندى !

تساءل نمر بغباء امتزج برنة أسى :
ـــ هل نجد أنفسنا فى الشارع بلا مأوى بعد خدمة العبد للسيد ثلاثين سنة ؟! يعنى أطول من الأشغال الشاقة المؤبدة ؟!

لم يصمت الشمطلى بل قال بلهجة أعادت إلى أذهانهم صوت الكبش لكن بدون ثقته الراسخة :
ـــ لم أفتح بعد ملجأ للعجائز والعاجزين !

كانت كلماته طعنات خناجر فى قلوبهم ، لكنهم تلقوها فى صمت . لم يعد هناك ما يقال . ثقلت وطأة الصمت عليهم فنهض الشمطلى

موصدا المشربية ومضيئا القناديل الحائطية . نهضوا بدورهم :

ــ مع السلامة الآن .. فكروا جيدا فيما قلته فلعلكم تغيرون رأيكم !

غادروا الغرفة فى طابور حزين يسير فى عالم يتآكل على جانبيه . عادوا إلى جلستهم المعتادة خلف البوابة المقوسة من أعلى . لم يتبادلوا فى ضوء القمر الذى أوشك على أن يصبح بدرا ، سوى نظرات ، لكنها قالت أشياء كثيرة تمتد لتغطى ثلاثين عاما من الفتوة والجبروت والإرهاب والسطوة ، لكن يد الزمن تمتد الآن لتطوى هذه الصفحة ، ومعها الشمطلى الذى ظن أن الأمور قد دانت له .

فقد توالت الضربات على رأسه وكأن الأيام ترد له ما قدمت يداه . بلغه نبأ القبض على الصبى الذى كلفه بالمهمة إياها . كان رجال الشرطة السرية الذين يتجولون فى الأزقة والطرقات قد لاحظوا شابا يرتدى حلة عمالية ملطخة بالزيوت والشحوم ، وهو يحوم حول سيارة عارف الواقفة أمام باب البيت . ظلوا يراقبونه دون أن يشعر بوجودهم حتى حلول الظلام حين تسلل لينام تحتها . قبضوا عليه وهو يحاول العبث بفراملها ، وتم ترحيله فى الحال إلى قسم السيدة زينب .

ضاقت الحلقات حول الشمطلى . طاشت ضرباته لكن أحدا لم يقبض عليه حتى الآن ، مما ضاعف من حيرته وأطار النوم من عينيه ، لدرجة أنه ظل مسهدا ليلة الجمعة حتى مطلع الفجر حين لمح من المشربية أكثر من سيارة نقل للشرطة وهى تفرغ حمولتها من الجنود الذين تناثروا حول القصر فيما يشبه الحصار ، فندم أشد الندم على ثقته الغبية بنفسه ، والتى دفعته إلى الانتظار حتى أصبح كالفأر فى المصيدة . أسرع إلى غرفة تمر حنة لكنه لم يجدها فى فراشها . بحث عنها كالمجنون فى كل

الغرف والممرات ، ثم عاد إلى غرفتها وفتح دولابها فلم يجد أثرا لملابسها .

هبط على السلم الخشبى فوجد نمرا يغط فى نوم عميق على إحدى الأرائك وقد التحف بغطاء صوفى ثقيل . هزه فى عنف :

ــ أتنام وتترك القصر بلا حراسة هكذا ؟! أين ذهبت تمر حنة ؟! أين فهد وديب ؟!

تنبه نمر وكأنه يعانى من كابوس . تلعثم لاهثا :

ــ الشرطة تقوم بحراسة القصر منذ منتصف الليل !!

ــ وأين تمر حنة ؟!

ــ رحلت !

ــ ولماذا لم تمنعها ؟!

ــ تركها فهد ترحل !!

ــ وأين فهد وديب ؟!

ــ قبض عليهما بعد رحيل تمر حنة .. وتم ترحيلهما إلى حيث لا أدرى !!

خرج الشمطلى دون تفكير لكنه وجد رجال الشرطة المرابطين حول البئر وقد نهضوا . عاد أدراجه ليجرى ويلهث بين الغرف والممرات . ومع إشراقة الصباح نال منه الإعياء فجلس فى غرفة الكبش وقد بيت فى نفسه أمراً .

عندما تربع الصباح على عرش القلعة توافد كبار القلعة التى لم يكن لها حديث سوى ذلك اليوم الذى سيهبط فيه عارف لفتح الخزانة . كان يوما أكثر إثارة من ليلة زفافه الأسطورى ، لدرجة أن أحاسيس الإثارة اكتسحت أمامها رواسب الخوف داخل القلوب ، خاصة عند الشباب الذى كان قد

انفض عن ندوة الجمعة . ويبدوا أن عارفا اختار صباح الجمعة خصيصا لفتح الخزانة حتى يكون بمثابة ندوة للقلعة كلها . تشهد فيها انهيار إمبراطورية الدجل والإرهاب والخوف .

وبالفعل تكأكأ الأهالى على السراى . ولولا رجال الشرطة الذين أحاطوها بحزام متين من أذرعهم وأجسادهم ، لاقتحموها كالطوفان الهادر . فلم يسمح بالدخول إلا للكبار والحكماء الذين كان الكبش قد اعتاد استدعاءهم لإصدار تعليماته إليهم كلما برزت على سطح الحياة قضية جديدة ، خاصة القضايا التى ظل عارف وجماعته يثيرونها من وقت لآخر . كان بعضهم يرتدى العباءة تشبها بالكبش ، والبعض الآخر الحلة الإفرنجية ، فى حين أصر أحدهم على تغطية رأسه بطربوش قانى الإحمرار . وقد عرفه الجمهور المحيط بالسراى . كان أبو مصطفى صديق عارف . لكن بعضهم اعتذر عن الحضور بحجة المرض أو السفر . ولم يضغط عليهم عارف لإدراكه أن بقايا الخوف دفعتهم إلى التريث والترقب حتى تتضح الأمور تماما ، ويظهر صاحب النصر النهائى .

غادر عارف بيته إلى السراى فى عربته الصغيرة ومعه يشكر ومصطفى . كان قلبه مسرحا لضربات وهجمات متواصلة من القلق طوال الليل الذى لم يمنحه لحظة واحدة تغفو فيها عيناه . وكان يشكر ومصطفى قد تصورا أن الخزانة المغلقة هى التى فتحت عليه أبواب القلق . فهو على الأقل لا يعرف ما بداخلها ! وربما كانت هناك قنبلة بداخلها يمكن أن تطيح بكل الحاضرين بمجرد فتحها . لكنهما أدركا وهما فى العربة أن قطر الندى كانت مصدر قلقه . فقد هاجمتها آلام مبرحة منذ بداية الليل ، شخصتها أمه بأنها آلام المخاض ، ووافقتها بثينة على ذلك ،

برغم أن أمامها شهرين وأسبوع كى تضع مولودها . ظلت الالام تتلاشى ثم تشتد مما جعله يطلب طبيبتها تليفونيا فى الصباح الباكر . طمأنته ووعدته بالحضور فورا . لكنها لم تحضر حتى لحظة مغادرته للبيت . التمس لها العذر ، فهى تقطن فى مصر الجديدة . ومع ذلك ركب عربته وتأوهات قطر الندى وصرخاتها لا تزال تطن فى أذنيه .

توقفت العربة أمام البوابة المقوسة من أعلى . هبط عارف ومعه يشكر ومصطفى فأفسح لهم رجال الشرطة طريقا إلى الفناء الذى تجمع فيه الكبار والحكماء الذين ظل الشمطلى يرحب بهم بطريقة غريبة ، كما لو كان المضيف وصاحب البيت ، مما أثار دهشة ضابط المباحث بصفة خاصة وظل يرقبه من طرف خفي إلى أن جاءه عارف وحياه مبتسما ، فقال الضابط له إن اليوم يومه ، وعليه أن يستعين فى فتح الخزانة بخبرة الخبير الذى استدعته الشرطة خصيصا . فربما كانت من النوع الذى يستعصى على الفتح .

لاحظ مصطفى نظرات أبيه إليه ، وكأنها تذكره بالنصيحة التى ألح عليها فى الصباح قبل مغادرته بيته . فقد كرر على أسماع ابنه أن يبتعد عن عارف وهو يفتح الخزانة . فلا أحد يعرف ما بداخلها ، ولا ما سوف يحدث عند فتحها ! هذا إذا تمكن عارف من فتحها على الإطلاق ! ابتسم مصطفى لأبيه ابتسامة تعنى أنه لا يزال ملتزما بنصيحته ! فقد امتزجت الابتسامة بهزة مطمئنة من رأسه .

نادى الضابط خبير الخزائن وقدمه إلى عارف . تبادلا حوارا سريعا عن أنواع الخزائن ، القديم منها والحديث . فى حين حاول الشمطلى أن يتصنت لعله يلتقط كلمة أو كلمات . لكن ضجيج الجماهير المحيطة

بالسراى خيب مسعاه ، وضاعف من صفرة وجهه وحمرة عينيه ، فلم يجد من يقف معه ويبادله الحديث سوى نمر الذى أوضحت نظراته الزائغة التائهة عدم استيعابه لأية كلمة .

أشار الضابط لبعض معاونيه فأخرجوا من جيوبهم مصابيح تعمل بالبطارية . هبطوا داخل البئر واحدا بعد الآخر ، ومعهم خبير الخزائن حاملا حقيبته المعدنية . قال الضابط للكبار والحكماء بصوت عال : « تفضلوا » ، لكنهم أصروا على أن يتفضل الشباب أولا . ضحك الضابط قائلا : « توكلنا على الله » ثم هبط وخلفه عارف الذى مسح الواقفين فى الفناء بعينيه فلم يلمح عبد العليم الذى كان قد وعده باللحاق به بمجرد زوال الآلام عن قطر الندى . فلا يعقل أن يترك البيت بلا رجل فى مثل هذه الظروف ! اختفت رأس عارف وخلفه يشكر ومصطفى ، وفى أعقابهم الشمطلى وديب دون دعوة من أحد . وأخيرا تهادى الكبار والحكماء فهبطوا الهوينى على درجات السلم الحديدى المثبت فى الجدار الحجرى ، سواء بسبب السن أو بدافع الخوف . فلم تتوقف شفاه بعضهم عن الترديد الهامس لبعض الآيات الكريمة .

انتشر رجال الشرطة بمصابيحهم المبددة لظلمات السرداب فى المنحنيات والالتواءات . سار الموكب الرهيب يتقدمه الضابط وعارف ويشكر ومصطفى ، وفى أعقابهم لهث الشمطلى ونمر . تذكر عارف ليلته الرهيبة مع الكبش فى هذا السرداب ، لكنه لم يشعر بطعم انتصاره . كانت تأوهات قطر الندى وصرخاتها لا تزال تطن فى أذنيه مع انحناءات الجدران الحجرية الكئيبة .

بلغوا البقعة الدائرية الرحبة ذات الباب الحديدى المتدثر بالصدأ .

تقدم عارف ومعه الضابط وخبير الخزائن ويشكر . أدار الخبير المزلاج لكن الباب ظل موصدا . أخرج من حقيبته أداة من الصلب الحاد عالج بها المزلاج بأصابع ماهرة ، وسرعان ما دار المزلاج وعلا صرير الباب وهو يفتح ممزقا شباك العناكب التى غطت إطاره الأعلى . أمسك الضابط بمصباح أحد رجاله ودخل الغرفة مع عارف والخبير ويشكر فى حين ظل مصطفى واقفا عند الباب وخلفه الكبار والحكماء الذين التصقت أقدامهم بموقعها . لم يطق الشمطلى صبرا فاقتحم الباب خلف عارف فى حين ظل نمر فى مؤخرة السرداب .

كانت الغرفة ضيقة خانقة عفنة الرائحة ، لكنها خلت من الجرذان والحشرات التى اختفت فى شقوق السرداب بمجرد إضاءته بالمصابيح وازدحامه بالأقدام . حرك الضابط المصباح فوجد فى الجدار المواجه خزانة صغيرة بمقبض على هيئة رأس كبش . كان الزمن قد أضاع لونها ولم يترك لها سوى الصدأ النحاسى الأخضر الداكن . اقترب منها عارف فى ضوء المصباح فاكتشف أنها خالية من أى ثقب أو مزلاج . تحسس الخبير بابها بأصابعه والذهول يومض فى عينيه . حاول تحريك الباب فى جميع الاتجاهات ، لكنه ظل موصدا فى عناد أصم . دق عارف عليه بقبضة قوية لكنه لم يتحرك قيد أنملة . شاركه يشكر بقبضته الحديدية لكن النتيجة واحدة . تصبب العرق الغزير على وجوههم فى حين نضح التشفى من عينى الشمطلى . تقطعت الأنفاس وعارف يدق بجنون على الباب الأصم حتى أوشك أن يدمى يديه. حاول جذب المقبض بكل قوته فشعر بشبه هزة .

توقف لحظة فى صمت لاهث . فتح حقيبة الخبير وظل يعبث بأدواتها

حتى عثر على مطرقة صغيرة ذات حد من الصلب اللامع . أخرجها ودس حدها في الشق الضيق الفاصل بين الباب والجدار . ضغط على عصا المطرقة إلى أسفل ، وإذ بالباب النحاسى يفتح وسط شهقات الواقفين . أخذ عارف المصباح من الضابط وسلطه داخل الخزانة فلم يجد شيئا على الإطلاق ، سوى أكوام صغيرة من الأتربة الناعمة كأنها العدم ذاته . نفض الأتربة بيده لدرجة إصابة الحاضرين بالسعال والاختناق ، لكن الخزانة كانت خاوية تماما !!

طاش صواب الشمطلى واخترق الواقفين مطبقا بأصابع حديدية على عنق عارف حتى وقع المصباح من يده بعد أن أظهر للجميع الخزانة الخاوية . ضربه الضابط على عنقه فتكوم على الأرض . دخل رجال الأمن بمصابيحهم وحملوا الشمطلى خارجا ، تنفيذا لأوامر الضابط بالقبض عليه وترحيله إلى القسم . حدث هذا فى لحظات ضاعفت من الذهول الذى تجسد فى ملامح شهود العيان بعد التأكد من خواء الخزانة . أطل الكبار والحكماء برءوسهم داخل الغرفة عندما شاهدوا الشمطلى محمولا خارجا . كان عارف لا يزال يتحسس عنقه . طلب منه الضابط الخروج لإفساح مكان للكبار حتى يعاينوا بأنفسهم ، وبدأ بنفسه وتبعه عارف ويشكر والخبير . تلقى مصطفى دفعة من أبيه أدخلته الغرفة وخلفه موكب الكبار الذين توالت شهقاتهم مع صوت ارتطام باب الخزانة عدة مرات .

استعاد عارف توازنه وهو يقول للضابط ويشكر والخبير :

ــ الموضوع كله دجل فى دجل ؟! لم يصدقنى أحد ! أو أنهم صدقونى لكنهم خافوا من الإعلان عن اعتقادهم الحقيقى ! كان يشكر هو الوحيد الذى لم يخش إرهاب الكبش وعرى حقيقته البشعة فى كل

مناسبة !

كان الموقف فى غنى عن أى تعليق . مسح عارف عرقه بمنديله . خرج ذو العباءة الكحلية وأصابعه تتلاعب بحبات سبحته الكهرمانية قائلا كأنه يخاطب نفسه بصوت مسموع دون انتظار رد من أحد :

ــ كثيرا ما قلت لنفس إن هذا الشاب كان محقا فى كل كلمة قالها .. وفى كل حركة قام بها !!

ثم انضم إلى الواقفين . بعد لحظات خرج ذو العباءة الرمادية وهو يقول بصوت عال مدعيا الاطلاع الحكيم على بواطن الأمور :

ــ كنت متأكدا من أنه أطلق على أسرته لقب الكبش برغم ادعائه المستمر بأن القلعة سميت باسم عائلته الكريمة العريقة !

لم يكتم نبرة السخرية التى صاحبت كلماته الأخيرة وهو ينظر إلى صاحب العباءة البنية الذى خرج ليمسح عرقه ويقول :

ــ وهو الذى خدعنا وادعى أن الأشباح والأرواح تزوره من حين لآخر لأنه رجل سره باتع ؟!!

جاء فى أعقابه ذو الصلعة اللامعة والحلة السوداء وهو يكاد يضحك سخرية من نفسه :

ــ أعترف لكم جميعا بخجلى من نفسى !! كيف جازت علينا كل هذه الحيل والألاعيب ؟! كيف تركنا مصائرنا طوال هذا العمر ليتحكم فيها دجال مثله ؟!

وأخيرا انضم إليهم مصطفى وأبوه بطربوشه الأحمر القانى . قال وهو يكاد يحتضن ابنه الذى حاول التملص منه برقة :

ــ كان دفاعى عن الشباب أمامه فى محله !! وقفت أمامه سدا منيعا

حتى لا يمسهم ؟!

تبادل مصطفى ويشكر نظرات باسمة فى ضوء المصابيح التى حملها رجال الأمن ، فى حين خاطب الضابط الحاضرين جميعا :

ـــ والآن .. ما رأيكم فيما وقع ؟!

أجاب أبو مصطفى :

ـــ ليس لنا رأى !! فبعد كل ما فعله عارف من أجل القلعة .. أصبح من حقه أن يتولى أمرها !

علق ذو الصلعة اللامعة والحلة السوداء على كلامه وهو يحدق فى الآخرين بنظرات لها معنى :

ـــ إنك تقول هذا الكلام لأنه صديق ابنك مصطفى الذى لا بد أن يصبح من أهل الحظوة الجديدة !!

التفت ذو العباءة الكحلية بوجهه المتغضن النحيل صوب عارف قائلا بأسلوب الشيخ الحكيم :

ـــ لم يحدث أن تولى أمرنا من قبل شاب فى مثل عمره ! والمسئولية على القمة لا تستغنى أبدا عن حكمة الشيوخ .. فى حين أن اندفاع الشباب يمثل خطورة مؤكدة عليها !!

كان عارف يتابع الأقوال المتناثرة ، لكنه آثر الصمت حتى سأله الضابط مبتسما :

ـــ لم نسمع رأيك بعد ؟!

دوت فى آذانه تأوهات قطر الندى وصرخاتها فهم بالتحرك قائلا :

ـــ سأصعد إلى قلعتى !!

دون تفكير تساءل ذو العباءة الرمادية :

ـــ ألم أقل لكم إنه كان يتصرف كما لو كان قد ورث القلعة وأصبحت ملكه ؟

شعر عارف بلطمة التساؤل على وجهه فنسى ألم أصابع الشمطلى حول عنقه :

ـــ يبدو أنكم ستظلون إلى الأبد عاجزين عن فهم حقيقة نواياى ؟! إننى أقصد بقلعتى زوجتى التى تركتها مريضة هذا الصباح وصريعة الألم الممض ؟! أما مهمتى بالنسبة لقلعتنا فقد انتهت هذه اللحظة !

انفرجت أسارير ذو العباءة الكحلية وتساءل فى خبث :

ـــ ومن سيتولى أمر القلعة ؟! لا بد أن يكون أكبرنا سنا وأكثرنا خبرة وحكمة !! فكفى ما جرى لنا !

فهم الجميع مغزى كلامه وفى مقدمتهم عارف الذى قرر أن يضع النقط على الحروف :

ـــ ما حاجتكم إلى ولى للأمر طالما أنكم الكبار والحكماء ؟! لماذا تتصرفون دائما كأنكم قصر لم تشبوا عن الطوق بعد ؟!

لم يسترح ذو العباءة الكحلية لهذا التحدى المفاجئ :

ـــ وكيف تسير الأمور فى القلعة دون ولى لها ؟!

ـــ وكيف سارت وكان لها ولى مهاب إلى درجة الدجل والإرهاب ؟!

أسقط فى يد الشيخ لكنه لم يتراجع :

ـــ تريد للقلعة أن تتحول إلى سفينة بلا ربان ؟!

ـــ كفانا كلاما منمقا وشعارات جوفاء .. لقد قضى التطور الحضارى للشعوب على نظام شيخ القبيلة وولى الأمر ومن بيده مصير شعبه .. وأحل محله نظام الدولة المستقرة الراسخة بصرف النظر عن تغير الجالسين على

القمة .. وطالما أن الشعب قد ارتضى النظام الذى تتبعه الدولة بمحض إرادته فلا داعى لوصاية ولى الأمر .. وعلى كل مواطن أن يتولى أمر نفسه بنفسه !

ثم ربت عارف على كتف الضابط الواقف إلى جواره :

ـــ وحضرة الضابط معنا الآن كممثل لهذا النظام الذى أتحدث عنه ! والآن لم يعد هناك معنى لوقفتنا هذه فى هذا القبو الخانق المظلم ! كما أننى أستأذنكم للاطمئنان على زوجتى !

حياهم مودعا وشق طريقه مع انحناءات السرداب حتى بلغ درجات السلم الحديدى فصعد عليها بخفة برغم إجهاده . عشى الضوء بصره عندما برز رأسه من فوهة البئر . عبر الفناء ثم البوابة المقوسة من أعلى حيث أحاط به رجال الشرطة حتى لا تهاجمه الجماهير المحتشدة بتساؤلاتها وحب استطلاعها . حياهم مبتسما سائرا تجاه عربته حيث رأى عبد العليم واقفا مستندا إليها . سأله فى لهفة :

ـــ كيف حالها ؟! هل زالت آلامها ؟! ماذا قالت الطبيبة ؟!

ـ اركب .. سأقص عليك كل شىء فى الطريق !

لم يسترح عارف للكلام الذى لم ينطق به لسانه لكن وجهه قاله . ركب العربة معه وسط محاولات رجال الشرطة المستميتة لإبعاد الجماهير عن طريقها الذى شقته بمنتهى الصعوبة . وبمجرد خروجها بعيدا عن مد الأمواج البشرية ، تساءل عارف :

ـــ لم تقص علىّ شيئا حتى الآن ؟!

أجاب عبد العليم دون أن ينظر إليه :

ـــ زارتها الطبيبة وقالت إنها آلام المخاض .. وأمرت بنقلها إلى

المستشفى فورا !!

ـــ كيف حدث هذا ؟! إن أمامها شهرين حتى تلد !!

ـــ ستلد فى السابع !

ـــ وهل تم نقلها إلى المستشفى ؟!

ـــ فوراً .. وجئت لأبلغك !! والآن إلى مستشفى مصر الجديدة !!

انطلق عارف بعربته عبر مساكن زينهم ، ماراً بالسلخانة حتى طريق مجرى العيون حيث لقى أبوه مصرعه فشعر بكآبة تغمر قلبه . واصل طريقه حتى الدراسة ثم انحنى لينطلق فى طريق صلاح سالم بين قلعة صلاح الدين على يساره والمقابر على يمينه ، لكنه ركز عينيه على الطريق الصاعد الهابط أمامه دون أن يتفوه بكلمة واحدة . أراد عبد العليم أن يخفف من وطأة الصمت ورتابة صوت المحرك وحفيف الإطارات فتساءل مبتسماً :

ـــ كيف كان الحال اليوم ؟! كنت أتمنى أن أكون معك !! لكن ليس كل ما يتمناه المرء يدركه !!

أجاب عارف فى اقتضاب دون أن يحول عينيه عن الطريق أمامه :

ـــ سأقص عليك كل التفاصيل بعد أن أطمئن على قطر الندى ؟! هل قالت الطبيبة شيئاً آخر ؟! وكيف تم نقلها إلى المستشفى ؟!

ـــ لم تضف شيئاً سوى أنها استدعت عربة المستشفى التى رافقتها فيها ماما وبثينة !!

ـــ يبدو أن الحالة غير مطمئنة ؟! كنت قلقاً منذ ليلة أمس .. لم أسترح أبداً لضعفها وشحوبها !!

ـــ خيراً .. إن شاء الله .. إحساسك هذا إحساس الأب عند أول مرة ! لن تقلق هكذا فى أطفالك المقبلين بإذن الله !!

ساد الصمت مرة أخرى والعربة تخترق العباسية منطلقة بحذاء مدينة نصر . لاحظ عبد العليم الهالات السوداء حول عينى عارف وآثار العرق التى جفت على وجهه وعنقه . كان يتمنى أن يقود نيابة عنه ، لكنه للأسف لا يعرف القيادة ! فكم من آلام ومتاعب ومحن مرت بعارف فى الفترة الأخيرة دون أن تترك له مجرد هدنة لإلتقاط الأنفاس . حتى طفله قرر أن يصل بإذن الله قبل ميعاده !

هلت طلائع مصر الجديدة فى الأفق . انطلقت العربة فى الشوارع الرحبة بين الأشجار الباسقة النضرة بفرحة الربيع الذى طالما عشقه عارف ، لكنه لا يشعر به الآن وهو فى طريقه إلى المستشفى الذى زاره مرتين مع قطر الندى للمتابعة الطبية لحملها . توقفت العربة أمام مستشفى محاط بحديقة صغيرة . أسرع عارف وعبد العليم على درجات السلم الرخامى الفسيح ، وفى الداخل أشار موظف الاستقبال إلى عامل المصعد ليصحبهما إلى قسم الولادة فى الدور الثالث حيث توقف المصعد لينطلقا منه فى ممر فسيح غارق فى الصمت والطلاء الأبيض ، وفى نهايته جلست الأم وبثينة على مقعدين أمام باب عريض من الزجاج الإنجليزى .. سألهما عارف بعينين زائغتين :

ــ كيف الحال ؟!

نهضت بثينة وجذبته إلى مقعدها :

ــ استرح أولا !

تخلص منها وكأنها لم تقل شيئاً :

ــ كيف حال قطر الندى ؟!

أجابت الأم وقد أمسكت بيده دون أن تنهض :

ـــ خيرا إن شاء الله .. إنها فى الداخل .. والطبيبة معها !!

ـــ ماذا قالت الطبيبة ؟!

ابتسمت بثينة محاولة طمأنته :

ـــ قالت .. كلها لحظات وستصبح أباً لأول مرة فى التاريخ !

لم يستجب لدعابتها الباسمة :

ـــ لماذا لا أسمع صوتاً .. ولا حتى صرخة ؟!

أجابته الأم :

ـــ إنها أمور لا تفهمها يا بنى !! سيصل صراخها إلى القلعة عندما يأتيها الطلق النهائى !

نظر عارف إلى أخته فى ريبة وتوجس

ـــ أشعر أنك تخفين شيئاً عنى !! لا يعقل أن تظل تصرخ معظم الليل ثم تصمت هكذا فجأة !!

لم تشأ بثينة أن تقول له إن الطبيبة تتوقع عملية قيصرية إذا لم تستجمع قواها المنهارة . ابتسمت فى حنان دافق :

ـــ قالت لك ماما .. لا تتكلم فيما لا تفهمه !! أنت أستاذ فى الآثار والتاريخ والحضارة فقط !!

ـــ لم تجيبى عن سؤالى ؟!

ـــ نحن لا نخفى شيئاً !! وإذا كنت لا تصدقنا فيمكنك فتح الباب وسؤال الطبيبة .. لكننى غير مسئولة إذا نهرتك !

فى نفس اللحظة انشق بلاط الممر عن طبيب زاده المشيب وقاراً . كان يرتدى معطف العمليات الأبيض ولا ينظر يمنة أو يسرة عندما فتح الباب الزجاجى الضخم ثم أغلقه خلفه . أصبح عارف ريشة فى مهب رياح

القلق التى عصفت به :

ـــ لماذا دخل هذا الطبيب ؟!

أشاحت بثينة بوجهها بعيداً :

ـــ إنه طبيب بالمستشفى وله أن يتحرك كما يشاء !

ـــ يبدو أنه رئيس القسم !! لابد أن قطر الندى تعانى متاعب خطيرة !! يا رب !! يا رب !!

لم يستطع عارف أن يقف مكانه أطول من هذا . ظل يذرع الممر جيئة وذهاباً ، وسؤال رهيب يهاجم ذهنه ويمزقه إرباً : هل يمكن أن يكرر التاريخ نفسه بعد أن ماتت قطر الندى فى نفس العام الذى قتل فيه أبوها خمارويه فى الشام ؟! كاد هذا الهاجس أن يصيبه بالجنون فيدفعه إلى اقتحام حجرة العمليات وليحدث ما يحدث ! لكنه سمع صوتاً ينبع من أعماقه السحيقة : يا رب .. يا رب .. كنت دائماً معى فى أحرج الأوقات وأشد المحن .. فلا تتركها هى أيضاً .. فهى نقية كالزهرة .. بريئة كالطفل .. لم يعرف الشر طريقاً إلى قلبها .. برغم أنه أحاطها كالأمواج الصاخبة حول جزيرة صغيرة وادعة !

فجأة انطلقت صرخة من الغرفة المغلقة لتمزق السكون الأبيض . أسرع ليرهف السمع وراء الزجاج الذى لا يبين عن شيء خلفه . ربت عبد العليم على كتفه :

ـــ هانت .. كلها صرخة أو صرختان ثم تسمع صراخ الطفل الذى لن يتركك تنام فى راحة بعد ذلك !

نهضت بثينة بجسدها البدين وفستانها الأخضر لتشارك فى الحوار :

ـــ ولدت خمس مرات .. لكن عبده لم يفعل شيئاً من هذا القبيل !

ابتسم عبد العليم وقد احتوى عارف تحت ذراعه :

ـــ وكيف حكمتِ عليّ بأننى لم أفعل شيئاً .. وأنت فى الغرفة المغلقة تصرخين كما لو كان فى حلقك مكبِّر للصوت !!

لم تستسلم بثينة لسخريته :

ـــ قالت لى ماما أنك كنت تجلس فى الخارج مثل أبى الهول !

ـــ لا .. وأنت الصادقة .. كنت أنام على ظهرى مثل توت عنخ آمون !

ـــ ها أنت تعترف بعظمة لسانك !! إنك لا تعزنى كما يعز عارف قطر الندى ! لقد ظهرت على حقيقتك لكن بعد فوات الأوان !

كان عارف واعياً بالمسرحية المعروضة أمامه بهدف شغله عما يدور فى الغرفة الموصدة . لم يتجاوب مع بطليها ، كان قلبه وعقله هناك خلف الباب الغامض . لم تستسلم بثينة فسألته بنفس الدعابة :

ـــ لم تحك لنا ما فعلته اليوم فى البئر ؟ هل وجدت الخزانة ؟! هل تمكنت من فتحها ؟!

نظر إليها بنفس العينين الزائغتين دون رد فتصنعت الدهشة :

ـــ يبدو أن الأرواح والأشباح التى رأيتها اليوم قد ألجمت لسانك ؟!

كان قلب الأم ، قبل نظراتها ، موزعاً بين ابنها وزوجته ، وهى فى جلستها مشدودة قلقة . قالت لإبنتها :

ـــ لا تضايقيه يا بثينة .. فلن يستريح باله إلا بعد وصول طفله بإذن الله !

عادت بثينة إلى جلستها بجوار أمها صامتة فى حين ظل عبد العليم إلى جوار عارف الذى انتفض على سماع صرخة أخرى ثم صرخة أعلى فأعلى دوت بين جنبات الممر برغم الباب الزجاجى الموصد . نظر عارف تلقائياً

إلى وجه أمه فوجد أساريره وقد انفرجت . سرت، داخله تباشير راحة رطبة أطفأت بعض جمرات قلبه . تشبثت أذناه بالباب طلباً فى صرخات أخرى . لم يخب رجاؤه . توالت الصرخات وتصاعدت . رنت فى أذنه صرخة صغيرة خفيفة لم تلبث أن علت على الصرخات الأولى التى تلاشت . نظر إلى أمه التى نهضت وقبلته ، وفى أعقابها بثينة وزوجها . قبل أن تفتح الأم فمها ، فتح الباب وظهر منه وجه باسم لممرضة شابة ، رأى فيه عارف أجمل وجه فى الدنيا . تساءلت الممرضة ضاحكة متنقلة بعينيها بين عارف وعبد العليم :

— من فيكما الأب ؟!

خرج صوت عارف مبحوحاً :

— أنا !

اتسعت ابتسامة الممرضة حتى تحولت إلى ضحكة عذبة :

— مبروك .. ولد !

كان عارف على وشك أن يسألها عن صحة الأم ، لكنها أغلقت الباب مرة أخرى . أحاط ثلاثتهم به وفى عينيه فرحة الأطفال :

— أريد الاطمئنان على صحة قطر الندى !

لكزته بثينة فى جنبه ضاحكة بقوة :

— ماذا جرى لعقلك اليوم ؟! هل كنت تعتقد أن الممرضة تهنئك بهذا البشر والفرحة وصحة الأم ليست على ما يرام ؟! تعال .. استرح .. كفاك ما لقيته اليوم !

قادته إلى مقعدها وأجلسته عليه فيما يشبه القسر . استسلم لها وإن كانت قدمه اليمنى لم تكف عن الاهتزاز . فتح الباب وخرج منه الطبيب

ذو المشيب المهاب . انتفض عارف واقفا ليستمع إلى كلماته المقتضبة :

ـــ كنت على وشك أن أجرى لها قيصرية .. لكن إرادتها القوية .. على عكس ما تبدو .. ساعدتها على أن تلد ولادة طبيعية .. عن إذنكم !

سار الطبيب فى طريقه مسرعاً فى حين خرجت الطبيبة باسمة فى معطفها الأبيض وهى تداعب عارفاً :

ـــ لم نتوقع أن يكون وزن ابنك بهذا الشكل .. لقد زاد على الثلاثة كيلو جرامات ببضعة جرامات .. برغم رقة الأم وضعفها !

ضحك عبد العليم معلقاً :

ـــ حتى يصبح رجلا له وزنه فى المجتمع !

ضحكت الطبيبة لكن عارفاً سألها دون تجاوب مع الدعابة :

ـــ وكيف حال قطر الندى ؟!

ـــ لا أخفى عليك .. كانت ولادة متعسرة أجهدتها كثيراً .. فبالإضافة إلى ضعفها وإرهاقها .. هبط الطفل بساقيه !! لكنها الآن على ما يرام .. وكلها ثلاثة أو أربعة أيام وتسترد صحتها كاملة !!

لهج عارف لسانه بكلمتين ظل يرددهما :

ـــ شكراً يا دكتورة .. شكراً يا دكتورة .. شكراً يا دكتورة !

احمر وجهها خجلا وهى تنسحب بعيداً :

ـــ لا شكر على واجب .. سأمر عليها فى غرفتها فى المساء !

سارت الطبيبة فى حين خرج سرير صغير يجرى على عجل أمام ممرضة أكبر سنا من تلك التى بشرتهم . ابتسمت وهى تقول :

ـــ مبروك .. ينشأ فى عزكم !

كان الطفل ملفوفاً فى قماطه الأبيض وعيناه الصغيرتان تنظران إلى المجهول . سارت خلفه بثينة وعبد العليم دون أن يبتعدا بنظراتهما عنه . قالت بثينة دون تفكير :

ــ شبه عارف تماماً وهو طفل !

خرج سرير كبير يسير على عجل أمام الممرضة ذات الوجه الباسم الجميل . كانت قطر الندى ملفوفة فى ملاءة بيضاء . جرى عارف ليسير إلى جوارها . ابتسمت له فى إعياء فأمسك يدها وقبلها فيما يشبه التقديس . داعبته الممرضة ضاحكة :

ــ أول مرة فى حياتى أرى زوجاً يقبل يد زوجته !

انفتحت شهية عارف للمداعبة فقال وهو يساعدها فى دفع السرير :

ــ نحن عشاق قبل أن نكون أزواجاً !

ضحكت الممرضة :

ــ أدام الله عليكما نعمة الحب !

سارت الأم بجوار السرير بسرعة وخفة لم تألفهما فى نفسها منذ مرض قلبها الأخير . لكن قلبها الآن ارتوى برحيق الفرحة والنشوة ، فلم تسعها الدنيا وعادت إلى سنى شبابها المبكر .

دخلت الممرضة بالسرير إحدى الغرف المفتوحة حيث كانت بثينة وعبد العليم فى انحناءة حول سرير المولود الذى نقل إليه بجوار سرير الأم . وقف السرير المتحرك بحذاء السرير الثابت الذى ساعد عارف الممرضة على نقل زوجته إليه . خرجت الممرضة بنفس الإبتسامة السعيدة في حين جلس عبد العليم وزوجته على الأريكة المقابلة للسرير . حملت الأم الطفل واحتضنته بحنان جارف لم يخف على نظرات قطر

الندى المزهقة فى عذوبة حتى أعادته إلى سريره مرة أخرى .

جلس عارف على حافة الفراش محيطاً رأس قطر الندى بذراعه وممسكاً يدها بذراعه الأخرى :

ــ كلانا خاض اليوم امتحاناً مصيريا !

حركت شفتيها الشاحبتين بصوت خافت :

ــ كنت فى غاية القلق عليك ! هل وقع كل شيء كما توقعت ؟!

ــ تماماً !

ــ هل طاش صواب الشمطلى ؟!

ــ وثبتت عليه التهمة وتم القبض عليه !

تنهدت فى وهن عذب :

ــ أخيراً !

ــ كنت واثقاً أننا أقوياء بالحق مهما تسلح الباطل بكل أسلحة البطش والإرهاب . !

ــ هل فكرت فى اسم لإبننا ؟!

ــ كنت فى دوامة أنستنى اسمى أنا ! سأترك لك هذه المهمة !

ــ حلمت أمس فى اللحظات التى رحل فيها الألم وغفت فيها عيناى أننى رزقت بصبى أسميته ضياء !

ابتسم عارف فى سعادة غامرة :

ــ نحن فى أشد الحاجة إلى ضياء ينير لنا حياتنا بعد طول ظلام حتى نرى كل الأشياء على حقيقتها وبأحجامها الطبيعية !

ربتت قطر الندى على يده فى حين قالت الأم فى جلستها على الأريكة إلى جوار ابنتها :

— يمكنك أن تذهب إلى المنزل الآن لتنال حظك من النوم والراحة بعد كل هذا العذاب .. سنبقى هنا إلى جوار قطر الندى !!

أقحمت بثينة نفسها فى الحوار دون مقدمات :

— يبدو أن عذابه تبخر فى الهواء بمجرد خروج قطر الندى من الغرفة بالسلامة !

عادت روح الدعابة والمشاكسة إليه فقال لأخته :

— لن أذهب إلى البيت حتى لا ينفرد أولادك بى !

ضحك عبد العليم متسائلاً :

— وما ذنب الجيران حتى يحتملونهم يوماً بأكمله !

استمرأ عارف المشاكسة :

— ذنبهم أنهم جيرانكم !

كانت الساعة قد اقتربت من الرابعة مساء حين زحفت بعض طلائع معتمة على الغرفة . كان هناك ستار أبيض سميك مسدل على النافذة الوحيدة . نظرت إليه قطر الندى فى ضيق ، فنهض عارف دون كلمة وأزاحه تماماً . تسللت الأشعة الذهبية مخترقة النافذة الزجاجية وغمرت مهد ضياء الذى راح فى سبات عميق .

على مرمى البصر رأى عارف حديقة صغيرة لم تقربها يد إنسان منذ زمن . طالت حشائشها التى أحاطت بأقدام شجرة عريقة راسخة الجذور ، سامقة الفروع وسط بعض أشجار النخيل التى تطاول السحب فى أنفة وكبرياء ، وقد ارتمت ظلالها إلى مسافة بعيدة وهى تدعب الخيوط المشعة بالحياة والربيع قبل تسللها مع الغروب القريب الذى تحتفل به العصافير بزقزقتها وقفزاتها بين أفنان الشجرة العريقة الممتدة لاحتضانها .

كانت الحديقة كلها تستحم فى بحر من الضياء الذهبى قبل انحساره ، لكن نشوتها الخضراء أعلنت احتفالها باستقبال نهر الضياء الفضى مع حلول المساء .

ــ ماذا تشاهد يا عارف ؟!

تنبه عارف إلى سؤال حبيبة عمره فأجابها دون أن يستيقظ تماماً من رؤياه المتدفقة بطوفان النور :

ــ كل شىء فى هذا الكون الشاسع يعلن عن معنى وجوده فى كل لحظة .. لكن مأساة الإنسان تكمن فى انحساره داخل دائرة ذاته الضيقة التى لا يرى كوناً سواها .. يظل يحارب حفاظاً عليها .. ولا يعلم أنه يخوض حرباً خاسرة إلا عندما تحل النهاية .

[تمت]

رقم الإيداع ٥٠٤١ ــ ٨٤